

الإسلام
دين الفطرة والحرية

تأليف
عبد العزيز جاويش

تقديم
مجدي سعيد

دار الكتاب اللبناني
بيروت



دار الكتاب المصري
القاهرة

الإسلام
دين الفطرة والحرية





تأليف

عبد العزيز جاويش

تقديم

مجدي سعيد

٢٠١١







القاهرة

جاويش، عبد العزيز، 1876-1929
الإسلام دين الفطرة و الحرية / عبد العزيز جاويش ؛ تقديم مجدي سعيد.– الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2010.
ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-101-0

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الإسلام – مبادئ عامة. أ. سعيد، مجدي. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 297 2010499211

ISBN: 978-977-452-101-0
رقم الإيداع: 2010/20429

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير
للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)
ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York
على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّيْن»

المحتوى

كتاب «الإسلام دين الفطرة والحرية»

دين الفطـــرة

المرأة في نظر الإسلام

أثر القرآن في تحرير الفكر البشري

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْنِ / التاسع عشر والعشرين الميلاديِّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي -لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري – وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا – في إطار هذا المشروع – بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا – وغيرهم– لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية

والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي

غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

والمشرف العام على المشروع

تقديم

مجدي سعيد

«زارني ذات يوم وأنا في أكسفورد من بلاد الإنجليز لفيف من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة، فما كاد يستوي بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث في أمر الشرق والشرقيين وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التي تباين في كثير من الوجوه ما عليه أهل أوروبا حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام في الإسلام فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى سوى أنه الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات، وأن المسلمين يعبدون محمدًا كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم، وما زادوني فيهم بصيرة، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف. فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل، أصول الدين الإسلامي وقواعده وحكم بعض تكاليفه»[١].

---

(١) عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة والحرية، الطبعة الحالية، ص ٥١.

بهذه الحكاية استفتح عبد العزيز جاويش (١٢٩٣ - ١٣٤٧هـ/ ١٨٧٦-١٩٢٩م) كتابه «الإسلام دين الفطرة»، وهي الحكاية التي تضعنا أمام ملمح من حياة الشيخ جاويش ومرحلة من مراحل تلك الحياة الحافلة، كما أن الحكاية تنم عن بعض ملامح العصر الذي عاش فيه والظروف التي وضع فيها كتابه هذا والذي بدا فيه متأثرًا في آرائه وتوجهاته بأستاذه في الإصلاح الإسلامي الشيخ محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٢هـ/ ١٨٤٩- ١٩٠٥م)، وفي السطور التالية نفصل في كل دلالات الحكاية وموضعها من حياة الشيخ جاويش والظروف والملابسات التي مرت بها حياته تلك، وفي أي طور من أطوار تلك الحياة جاء الكتاب، كما سنحاول رسم ملامح ذلك الكتاب وما فيه من آراء وأفكار و موقعها من جهود النهضة الإسلامية الحديثة.

حياة جاويش في حياة وطنه وأمته

مرت حياة جاويش مع حياة الوطن والأمة خلال ثلاثة وخمسين عامًا، وخلال تلك الفترة شهد الوطن المصري، والأمة ممثلة في الدولة العثمانية تقلبات خطيرة، كما شهدت حياة جاويش الكثير من التقلبات والمراحل اشتبك خلالها مع أحداث وطنه وأمته وكان له منها وفيها مواقف، وعليه فسوف نسبر أغوار حياة صاحب الكتاب(١) (جاويش) في مراحلها المختلفة وعلاقتها بمراحل حياة الوطن والأمة.

---

(١) هناك العديد من الكتب والمقالات وفصول الكتب التي دونت عن حياة الشيخ عبد العزيز جاويش والتي يمكن الرجوع إليها للاستزادة، فمن فصول الكتب:

- محمد عبد المنعم خفاجي، قصص من التاريخ، القاهرة، المطبعة المنيرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٦م، ص ٤٩ – ٨٧.
- عباس محمود العقاد، رجال عرفتهم، القاهرة، دار الهلال، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م، ص ١٧٥ – ١٨٠.
- جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م، ص ٢٥٨– ٢٧٠.
- نقولا يوسف، أعلام من الإسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٩م، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.
- فتحي رضوان، مشهورون منسيون، القاهرة، دار أخبار اليوم، سلسلة كتاب اليوم العدد ٢٧، أكتوبر ١٩٧٠م، ص ٢٥ – ٥٤.
- فتحي رضوان، دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، إبريل ١٩٨٦م، ص ١٠٧ – ١٢٩.

ومن الكتب:

- حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، القاهرة، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، الألف كتاب، عدد ٣٥٧، ١٩٦١م.
- أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، سلسلة أعلام العرب عدد ٤٤، بدون تاريخ.
- حسين فوزي النجار، الشيخ عبد العزيز جاويش معلمًا ومربيًا ١٨٧٦ – ١٩٢٩م، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٤٤٢، ١٩٨٨م.

المرحلة الأولى: ميلاد في رحم المسألة المصرية (١٢٩٣- ١٣١٠هـ/ ١٨٧٦ - ١٨٩٢)

ولد عبد العزيز جاويش في (١٣ شوال ١٢٩٣هـ/ ٣١ أكتوبر ١٨٧٦م) بالإسكندرية، لأسرة قدمت من بنغازي في ليبيا وكانت تعمل بالتجارة في سوق المغاربة، وقد قيل إن جده حسن جاويش قد مضى من جنوب تونس[١] مع غيره متنقلين بالتجارة حتى بلغوا «بنغازي» فاستقروا فيها وأصهروا إلى أهلها حيث ولد بها والده خليل جاويش سنة (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) الذي قدم الإسكندرية فاستقر بها وتزوج منها وأنجب ولده عبد العزيز وإخوته (محمد وأحمد وعبد اللطيف) الذين اختارهم للتجارة بينما اختار عبد العزيز طريق العلم حيث حفظ القرآن وتعلم أصول اللغة العربية وأخذ من الثقافة الإسلامية، ولما أراد أهله أن يثنوه عن مواصلة مسيرة التعليم أقام في مسجد الشيخ إبراهيم الذي كان يتعلم فيه إلى أن سمح له والده بالسفر إلى القاهرة ليجاور في الأزهر الشريف فسافر في صحبة صديق صباه حسن منصور – أحد أساتذة دار العلوم فيما بعد – فوصل القاهرة عام (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م) حيث بدأ حياته الجديدة[٢].

---

(١) هناك خلاف بين من كتبوا عن جاويش عن مكان ولادته وأصل أسرته، إذ أشار أغلب من كتبوا إلى أنه قد ولد بالإسكندرية (خفاجي، الشيال، نقولا، الجندي، الشيخة، النجار) بينما أشار فتحي رضوان منفردًا في كتابيه إلى أن ولادته كانت في بنغازي بليبيا عام ١٨٧٢ إلا أنه عاد وصحح تلك المعلومة في مقدمته لطبعة الزهراء لكتاب جاويش «الإسلام دين الفطرة»، إلا أنه أكد في تلك المصادر جميعًا أن أسرته تنتمي لهذا البلد (ليبيا)، ونفى في كتابه «دور العمائم..» الأصل التونسي للأسرة قائلاً: «قد كان الذائع بيننا أن الشيخ «تونسي» ولم نعرف أنه ليبي إلا حينما أرخ له المؤرخون قريبًا» (دور العمائم، مرجع سابق، ص ١١٣)، إلا أن رضوان لم يذكر هؤلاء المؤرخين ومن هم وأين كتبوا تصحيح هذا الخطأ الشائع.

(١) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٦ – ٣٩.

هذا هو الدور الأول من حياة جاويش، فماذا كان يجري في حياة الوطن؟

في نفس تلك الفترة تجمعت عوامل عدة تداخلت فيها سياسات الدول الأوروبية تجاه مصر باعتبارها جزءًا من الدولة العثمانية وباعتبار مكانها الجغرافي، كما تداخلت فيها بعض عوامل التغير الداخلي السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتصنع مستقبل مصر في الفترات التي تلت ذلك والتي تمثل تصاعد دور جاويش في التفاعل مع الواقع المصري والعثماني على كل من الصعيد السياسي والاجتماعي والتعليمي، وتتمثل مفردات تلك العوامل المتداخلة في تلك المرحلة في التالي:

- كثرة الأحداث التي وقعت عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) وكان أهمها تصاعد أزمة الديون المصرية التي تورط فيها الخديو إسماعيل (١٢٧٩-١٢٩٦هـ/ ١٨٦٣-١٨٧٩م) وورط فيها البلاد: و «مسألة الديون هي الجانب المظلم من تاريخ إسماعيل، لأنها المأساة التي انتهت بتصدع بناء الاستقلال، وتدخل الدول في شئون البلاد المالية والسياسية»[١]، وقد توالت الأحداث في هذا الملف وتصاعد تدخل بريطانيا وفرنسا في شئون مصر، إلى أن انتهى الأمر بخلع الخديو إسماعيل في (٧ رجب ١٢٩٦هـ/ ٢٦ يونية ١٨٧٩م) وتولية ابنه توفيق بناء على فرمان من الدولة العلية بإيعاز من الدولتين.

(١) عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، الجزء الثاني، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص ٣٣.

- دخول الحياة النيابية في مصر إلى طور جديد بانتخاب الهيئة النيابية الثالثة، وذلك بعد أن مضى على الحياة النيابية عشرة أعوام منذ تأسيس «مجلس شورى النواب» عام (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م)، تخللها عامان من توقف العمل في عامي (١٢٩١هـ/١٨٧٤م) و(١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م)، وبانتخاب تلك الهيئة الثالثة «دخلت الحياة النيابية عصرًا جديدًا يمتاز بظهور روح النهضة والمعارضة في نفوس النواب، وبدت هذه الروح في مناقشاتهم وأعمالهم ومواقفهم، وأخذت مظاهر الحياة والنشاط ترتسم في أفق المجلس بعد أن كان يخيم عليه في الأدوار السابقة شيء من الخمول والجمود»[١].

- نشوء الصحافة العربية في مصر: كانت صحيفة «وادي النيل» التي أنشأها أبو السعود أفندي عام (١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م) هي أول الصحف السياسية غير الرسمية، كما كانت جريدة «الوطن» لميخائيل عبد السيد عام (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) أول جريدة قبطية[٢]، وفي عام (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م) صدرت جريدة الأهرام كأحد أهم الصحف السورية السياسية الصادرة في مصر لصاحبيها سليم وبشارة تقلا، وتلتها جريدة المحروسة لصاحبيها أديب إسحق وسليم نقاش عام (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر وصدور قانون المطبوعات عام (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) انقسمت الصحف العربية الصادرة إلى أقسام تَحَزَّب

(١) المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، مراجعة وتعليق شوقي ضيف، القاهرة، دار الهلال، بدون تاريخ، ص ٥١ – ٥٥.

بعضها للدولة العثمانية على الإنجليز، والبعض لفرنسا على الإنجليز، والبعض الآخر أخذ جانب الإنجليز، وأول الصحف التي أخذت جانب الإنجليز بمصر جريدة «الزمان» ثم «المقطم»[١] فامتعض الوطنيون منها، فأنشأوا جريدة «المؤيد» في العام التالي لمحررها الشيخ علي يوسف، و(كان) ظهور المؤيَّد خطوة كبيرة في الصحافة الوطنية لأنها أول الجرائد الوطنية الكبرى في هذا الدور من أدوار الصحافة، وهي التي مهدت السبيل لغيرها من الجرائد الوطنية الإسلامية[٢].

-الأفغاني ويقظة الوعي: عندما ولد جاويش كان قد مضى على إقامة الأفغاني في مصر خمسة أعوام، وقد «تعرف إليه في بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيًا إلى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده، وكانت مدرسته بيته..فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم، وهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور، أو يلفت الفكر إلى

---

(١) أنشأها كل من فارس نمر ويعقوب صروف وهما لبنانيان من أصول أرثوذكسية، تعلما تعليمًا أمريكيًّا في لبنان وتحولا إلى البروتستانتية وأسسا مجلة المقتطف عام (١٢٨٤هـ/ ١٨٧٦م) في لبنان، ثم انتقلا إلى مصر عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) وأعادا إصدار المجلة، وأضافا إليها جريدة «المقطم» عام (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م)، حول نمر وصروف طالع المرجع السابق، ص ٢٠٣ – ٢٠٧، ثم ٢١٣ – ٢١٦.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٥٦ – ٥٨.

النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها .. فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد»[١]، والشيخ عبد العزيز جاويش ما هو إلا نبت غير مباشر لمدرسة الأفغاني خاصة في رؤاه وآرائه في التجديد الإسلامي كما سنرى.

- الثورة العرابية والاحتلال البريطاني: ظلت الروح الوطنية المصرية تتصاعد، فاصطدمت بروح متشربة بالاستبداد في الحكم، وقوى استعمارية متربصة تنتظر وتختلق المبررات لتنفيذ سياساتها، وهو ما تجلى في مشهد الثورة العرابية التي بدأت أحداثها بداية عام (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) والتي انتهت أحداثها بالاحتلال البريطاني لمصر عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)، وإذا كان المقام ليس مقام الخوض في تفاصيل حوادث الثورة والاحتلال فإن المتيقن أن المسألة المصرية كانت «أول مسألة حيوية للدولة العلية والخلافة العثمانية»[٢].

وهو ما يدعونا لإلقاء الضوء على: الملامح العامة للأفق الأكبر من حياة الأمة ممثلة في الدولة العلية في الفترة الأولى من حياة جاويش:

(١) محمد عبده، الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٩م، ص ٨ - ٩.

(٢) عبد الرازق عيسى وعبير حسن، المؤلفات الكاملة لمصطفى كامل، الجزء الأول المسألة الشرقية، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص ٣٣٩، ويمكن مطالعة عرض لأحداث الثورة والاحتلال في نفس المرجع، ص ٢٨٣، ٣٤٠.

- السلطان عبد الحميد والمسألة الشرقية: كان القسم الأكبر من حياة جاويش موازيًا لفترة تولي السلطان عبد الحميد الثاني للحكم ما بين عامي (١٢٩٣- ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦- ١٩٠٩م)، وهي فترة اختلف حكم المؤرخين عليها، إلا أن القدر المتيقن حول تلك الفترة، أنها كانت فترة إنفاذ ما سمي بـ «المسألة الشرقية» و«هي مسألة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها، وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها»[١]، وكان السلطان عبد الحميد قد تولى «العرش في ظروف متناهية في ظلامها وقسوتها إذ ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار التي تعرض لها عبد الحميد الثاني من يمين ويسار[٢]، فقد تسابقت روسيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا على اقتسام الولايات العثمانية .. فكان على الدولة أن تواجه خمس دول أوروبية كبرى وقفت موقفًا عدائيًّا منها كما تسابقت تلك الدول في إثارة رعايا الدولة العثمانية عليها بهدف إضعافها في تلك المواجهة ولولا أصالة الدولة وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منثورًا وطويت صفحتها في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن وتكتلات أوروبية أكثر من قرنين من الزمان .. ونتيجة لهذا الزحف الاستعماري الضاري، ونتيجة

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٤م، ص ٣٠٧.

للضعف الشديد الذي انتاب الدولة، وهو ضعف لم يكن عبد الحميد مسئولاً عنه لأنه ورث العرش كما ورث هذا المرض، غدت ممتلكات الدولة نهبًا بين الدول الأوروبية الكبرى[١].

المرحلة الثانية: نضوج بين احتلال ووطنية (١٣٠٩- ١٣٢٦هـ/ ١٨٩٢- ١٩٠٨م)

حينما وصل جاويش إلى القاهرة عام (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م) وجد أمامه مجالاً واسعًا لمطامحه وتطلعاته الثقافية والوطنية، فقد كانت جريدة «المؤيد» مجالاً مفتوحًا للمثقفين، يردون مورد الشيخ علي يوسف، وفي القاهرة أيضًا التحق بالأزهر لكن لم يطل مكثه فيه إلا عامين؛ حيث التحق بمدرسة دار العلوم التي تخرج فيها عام (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) بدرجة عالية أهلته للبعثة إلى الغرب بعد فترة قصيرة من التدريس في مدرسة الزراعة[٢]. حيث سافر إلى بريطانيا وأمضى ثلاث سنوات في جامعة برودود[٣] تلقى فيها دراسات تربوية منوعة[٤]، عاد منها عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م)؛ حيث عين مفتشًا للكتاتيب في وزارة المعارف، وقد أصدر خلال فترة عمله تلك كتابين أولهما: «غُنْيَةُ المُؤَدِّبين»، وثانيهما: «مُرشد المُتَرْجِم»،

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٣ – ٣٠٤.

(٢) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٦.

(٣) يبدو أن هناك خطأً شائعًا بين جميع من كتبوا عن حياة جاويش في كتابة اسم الجامعة التي سافر إليها حيث كتبوها جميعا «بروورد» حتى فتحي رضوان في كتابيه، إلا أنه في مقدمة كتاب «الإسلام دين الفطرة» كتب اسم الجامعة كما دوناها في المتن.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٧.

«وقد دل صدور هذين الكتابين عنه عقب عودته من لندن، وقبل أن يطول عهده بالتعليم والتدريس، على مدى امتلاء نفسه بالرغبة في أن يحدث تغييرًا في وطنه، وعلى نفاد صبره من عجز وسائل التربية في مدارس مصر»[١]، والتحق بعد عودته بندوة الشيخ محمد عبده في منزله بعين شمس والتي كانت تضم عشرات من تلاميذه، غير أن عمله بالتربية والتعليم في مصر لم يطل حتى اختير ليعمل مدرسًا للغة العربية في جامعة أكسفورد[٢] بتوصية من المستشرق مرجليوث؛ حيث أمضى هناك خمسة أعوام (١٣٢٠- ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٢- ١٩٠٦م)[٣]. وخلال فترة عمله بأكسفورد اختير عضوًا في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في الجزائر عام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) وقد قام المسيو فولرس الألماني الذي كان يومًا مديرًا لدار الكتب المصرية فألقى خطابًا عن اللغة الفصحى واللغات العامية تطرق فيه إلى القول بأن القرآن الكريم ليس بفصيح، بل إنه أول كتاب كتب باللغة العامية. فما لبث جاويش أن طلب الرد على فولرس فأعطيت له الكلمـة في جلسة (١٨ صفر ١٣٢٣هـ/ ٢٢ إبريل سنة ١٩٠٥م) فأخذ يفند المقدمات التي بنى عليها فولرس كلامه فأبان فساده بالمرة من الوجهة اللغوية، ثم تكلم عن تاريخ

---

(١) فتحي رضوان، مقدمة الإسلام دين الفطرة والحرية، مرجع سابق، ص ٨.

(٢) يذكر رضوان في كتابه «دور العمائم..» أن جاويش قد ذهب إلى جامعة كمبريدج، غير أنه يذكر في كتابه الآخر وفي مقدمته لكتابنا هذا تصحيح هذا الخطأ، وأن الجامعة التي سافر إليها كانت جامعة أكسفورد كما يذكر جاويش نفسه في مقدمة كتابه هذا، وقد حقق محمد عبد المنعم خفاجي هذا الأمر في كتابه سابق الذكر فطالعه، ص ٥٨ – ٥٩.

(٣) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ٥٠.

جمع القرآن وتوزيع نسخه في البلاد الإسلامية وإعجازه وبلاغته التي لولاها لما آمن به العرب .. وقد بهر جاويش السامعين بحديثه الذي وصفه محمد فريد – أحد شهود المؤتمر – ببلاغة العبارة وجزالة المعنى فصفق له الحضور مرارًا وشهدوا له بقوة الحجة ومتانة البرهان ... فلما انتهى المؤتمر تحدث محمد فريد إلى مصطفى كامل طويلاً عن الشيخ عبد العزيز، ومواهبه الفائقة، وشخصيته الفريدة، فأحبه مصطفى على البعد[(١)] ومن ثم راسله الأخير وهو في باريس لزيارته في بريطانيا فتم اللقاء عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) والذي حضره كل من الدكتور محجوب ثابت ومحمود أبو النصر وفؤاد المنشاوي، وعرض عليه خلال اللقاء تولي تحرير اللواء واعتزامه إصدار صحيفتين أخريين بالإنجليزية والفرنسية[(٢)]، وبعد أن عاد جاويش من أكسفورد عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) عين مفتشًا في وزارة المعارف عامًا وبضعة شهور حتى استقال في أواخر إبريل عام (١٩٠٨م/ ١٣٢٦هـ) ليرأس تحرير اللواء[(٣)]. وكما نرى فقد تراوحت حياته في تلك الفترة بين التعلم والتعليم الذي أصبح أحد أهم المحاور التي ركز عليها في حياته.

---

(١) فتحي رضوان، «مقدمة الإسلام دين الفطرة والحرية»، مرجع سابق، ص ١٧ – ١٨. وفي كتابه دور العمائم في تاريخ مصر الحديث يروي فتحي رضوان رواية أخرى، إذ يقول إن محمد فريد حينما التقى جاويش عقب كلمته عرض عليه «أن يترك وظيفته ويلحق بركب المجاهدين، الذي يتزعمه ويشق له الطريق مصطفى كامل ولم يتردد الرجل في أن يقبل العرض، وسافر مع محمد فريد إلى لندن حيث قابلا مصطفى كامل»، طالع الكتاب في طبعته الأولى، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦م، ص ١٢٠ – ١٢١.

(٢) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ٦٢، يذكر جاويش تاريخًا لهذا اللقاء عام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) غير أن الأرجح أن اللقاء تم خلال زيارة مصطفى كامل لبريطانيا في يوليو من عام (١٩٠٦م / ١٣٢٤هـ) بعد صدور أحكام دنشواي، وما يؤكد ذلك أن صدور الصحيفتين كان أوائل عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م)، وعودة جاويش كانت في نهايات (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م).

(٣) فتحي رضوان، دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، مرجع سابق، ص ٥٥ – ٥٧.

ولكن ماذا كان حال الوطن والأمة في نفس تلك الفترة؟ خلال تلك الفترة من عمر جاويش تبدت ملامح التغير في الوطن في عدة عناصر:

أولاً: نشوء الحركة الوطنية

كان مصطفى كامل هو باعث الحركة الوطنية بعد هزيمة عرابي، وقد بدأ وعيه الوطني يبرز منذ عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م) لكنه كرس حياته من أجل إحياء روح الوطنية والاستقلال والنهضة في نفوس الأمة، ومن أجل الدعوة والدفاع عن قضية بلاده بعد حصوله على شهادة الحقوق، متخذًا من الخطابة والكتابة في الداخل والخارج ومن بعض المشروعات التي تحقق أفكاره وسيلة، فأسس جريدة اللواء عام (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) وأول مدرسة أهلية عام (١٣١٧هـ/١٨٩٩م)، ونادي المدارس العليا عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) ثم أسس الحزب الوطني رسميًّا عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م). وفي المقابل كان الخديو عباس حلمي الثاني الذي تولى الحكم في يناير من عام (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م) ميالاً في بداية حكمه إلى دعم الحركة الوطنية ماليًّا ومعنويًّا، لكن علاقته بالحركة الوطنية وزعيمها مصطفى كامل انتابها الفتور بداية من عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) إلى أن قطعت تمامًا عقب الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، وذلك نتيجة «لعدم ثبات الخديو على خطة واحدة في موقفه من الاحتلال واستماعه إلى الوشايات والدسائس»[1].

(١) عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م، ص ٣٤٢ - ٣٤٥.

ثانيًا: الاحتلال وسياسته التعليمية

كما شهدت تلك الفترة ذروة نشاط الاحتلال البريطاني في عهد اللورد كرومر، ومثلت سياسات الاحتلال أكبر استفزاز للوطنيين في مصر، وذلك بأن «تم استيلاء الإنكليز على الإدارات المصرية وملئها بالموظفين الإنكليز الذين يقبضون المرتبات العالية وسلمت أغلب الوظائف الباقية إلى أناس لا آراء لهم أو رجال لا يعرفون لهم أوطانًا ورفت ويرفت على الدوام بلا إشفاق ولا مبالاة كل كاره للاحتلال»[١]. وقد نالت تلك السياسات جميع الوزارات ومن ثم جميع جوانب الحياة المصرية، لكن أخطر الميادين التي أفسدوا فيها كان هو ميدان التعليم؛ إذ أصبحت «نظارة المعارف هي الميدان الذي يرى فيه الإنسان أكثر مما يرى في غيره جهاد الإنكليز ضد كل ما كان من شأنه سعادة بلادنا أو مجدها، وقد ارتكزت السياسة التعليمية البريطانية في مصر على أسس من أهمها: نجلزة الإدارة المصرية، والتقتير في تعليم المصريين، وقصر الغرض من التعليم على الإعداد للوظائف، ونشر الثقافة الإنجليزية في مصر، وتشكيل المناهج التعليمية لتلائم أغراض الاحتلال التعليمية[٢]، كل ذلك جعل التعليم هو «الميدان الذي تصارعت فيه القوى الوطنية مع سلطات الاحتلال، فاتجه الشعب المصري بغريزته نحو تعليم نفسه وبدأ الأفراد والجماعات يتسابقون لإنشاء المدارس الوطنية الأهلية ليعوضوا

---

(١) يواقيم رزق مرقص (تحقيق)، أوراق مصطفى كامل، الخطب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٨٤م، ص ٨٣.

(٢) جرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢– ١٩٢٢م)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص ٤.

النقص والتقتير الذي قصده الاحتلال وقد تناولت هذه الجهود الوطنية جميع مراحل التعليم وتنوعت حتى فاقت الجهود الحكومية في هذا الميدان»[(١)].

ثالثًا: صحف وأحزاب ومواقف

خلال تلك الفترة من حياة الوطن أدى الموقف من الاحتلال والقصر ومن قضية الهوية والانتماء والإصلاح الإسلامي إلى فرز الاتجاهات داخل النخبة المصرية، وقد عبرت تلك الاتجاهات عن نفسها بإصدار الصحف وتأسيس الأحزاب، فعلى صعيد إصدار الصحف:

- صدرت خلال تلك الفترة صحف: «الأستاذ» للسيد عبد الله النديم (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م) صحيفة مناهضة للاحتلال على طول الخط، والتي ما لبثت أن تعطلت، ثم «المنار» للسيد رشيد رضا عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) صحيفة تضع الإصلاح الإسلامي في أولوية اهتماماتها، ثم «اللواء» للزعيم مصطفى كامل عام (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) معبرة عن الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال كخط ثابت، ثم «الجريدة» لأحمد لطفي السيد عام (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) المهادنة للاحتلال[(٢)].

أما على صعيد الأحزاب فقد ظهرت في تلك الفترة ثلاثة أحزاب فـ «في العام

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٢) عبد اللطيف حمزة، قصة الصحافة العربية في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ١٠٠.

الأخير من عهد كرومر حدثت ظاهرة غريبة في تاريخ الصحافة المصرية، وهذه الظاهرة هي نشأة الأحزاب السياسية في داخل الصحف الوطنية .. وقد تم تأليف هذه الأحزاب بين (شعبان ١٣٢٤هـ/ أكتوبر ١٩٠٦) و (رجب ١٣٢٥هـ/ سبتمبر ١٩٠٧م) بالترتيب التالي:

أولاً: حزب الأمة وقد نشأ في داخل الجريدة.

ثانيًا: حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وقد نشأ داخل المؤيد.

ثالثًا: الحزب الوطني وقد نشأ داخل اللواء»[١].

خلال تلك الفترة أيضًا برز الفرز في المواقف من قضية بدت حينًا من الزمان على الأقل شعبيًّا وكأنها من المسلمات، وهو ما عرف حينئذ بـ «الجامعة الإسلامية»، لكن تلك الدعوة التي بدت واحدة في العنوان، لم تكن واحدة في المعنى لدى الداعين لها والمؤمنين بها ولا حتى المناوئين لها، وإذا كنا لسنا بصدد التأريخ لتلك الحركة، فإننا نذكر:

-أن مقصد السلطان عبد الحميد منها كان الحفاظ على كيان الدولة أمام الهجمة الأوروبية، وأمام دعاوى التفكيك الداخلي للدولة[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) طالع حول الموضوع: عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٤ — ٧٠.

- أما الأفغاني فإذا كانت الخلافة وضرورة التمسك بها كنظام ديني وسياسي من بين دعائم فكرته، فإنه كان يرى صعوبة خضوع شعوب الأمة الإسلامية لحاكم واحد، فاكتفى بالدعوة إلى قيام روابط محكمة بينها، ويكون لها هدف واحد، قوامها القرآن، وأساسها العدالة والشورى، واختيار خيرة الناس لتولي الأمر، وفي تصور الأفغاني، تأخذ هذه الروابط المحكمة شكل حلف إسلامي بين الدول الإسلامية تتزعمها أكبرها وأقواها[١].

- أما الشيخ علي يوسف وحزب الإصلاح: فكان ارتباطه بفكرة الوحدة الإسلامية في شكل خلافة راسخًا وثابتًا من الناحية الدينية فهي عنده «موجودة بوجود العقيدة»، أما من الناحية السياسية فقد أيد الدولة العثمانية باعتبار أن خلافة آل عثمان «أخف الضررين وأهون الشرين مراعاة للمصلحة العامة»، خاصة قبل تولي الاتحاد والترقي، فلما تولى الأخير دعا الحزب من خلال المؤيد إلى «حزب اللامركزية» الذي تأسس في القاهرة، وأصبحت مصر في نظر الحزب بديلاً للخلافة العثمانية[٢].

- وأما الحزب الوطني: فبقدر ارتباطه بالدعوة الوطنية كان تمسكه بالجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية، في مواجهة الاحتلال، وهو ما عبر عنه جاويش

(١) المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) نصر الدين عبد الحميد نصر، مصر والجامعة الإسلامية من عام ١٨٨٢م إلى عام ١٩١٤م، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ص ٦٨ - ٧٠.

لاحقًا في جريدة العلم عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) كاشفًا عن هدف الارتباط «بين أجزاء العالم الإسلامي ممثلة في وحدة الدولة العثمانية، هذا الهدف الذي يتلخص في استنهاض همم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى مجاراة الأمم الراقية في أعمالها ومساعيها، واستنفارهم إلى الاستزادة من نور العلم وتثقيف النفس، وتساءل عما إذا كانت وطنية الحزب الوطني تتعارض مع نهضة المسلمين وحثهم على النهوض بأنفسهم إلى حيث النباهة والرفعة والعلم الصحيح[١].

- وكان حزب الأمة يدعو إلى ما أسماه بـ «المصرية»، أما فكرة أن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين فقد اعتبرها قاعدة استعمارية تنفع كل أمة مستعمرة تطمع في توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حواليها من البلاد أو أنها إهدار من الأمم الإسلامية لشخصيتها وعدم اعتراف بما بينها من فروق في الأخلاق والعادات، وفي الألسنة واللغات، وفي المنافع والمواطن[٢].

في الدولة العثمانية: انتهاء العصر الحميدي

كان الوضع العام في الدولة العثمانية ينتقل من سيئ إلى أسوأ على مستوى استقرار الدولة وسيادتها على أقاليمها، ومنع تفككها وانهيارها، وظل السلطان عبد الحميد يناور وسط كل تلك المؤامرات التي كانت تحيق به في الداخل، والحروب والمعاهدات التي كانت تفرض عليه لمدة **٣٣** عامًا، لكن تيار

(١) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٢) حول موقف حزب الأمة من الفكرة، طالع نصر الدين عبد الحميد نصر، مصر والجامعة الإسلامية من عام ١٨٨٢م إلى عام ١٩١٤م، مرجع سابق، ص ٧٧ – ٨٢.

الأحداث وحجم المؤامرات كان أكبر منه ومن قدراته على مقاومته، فلم يلبث أن «حدث في (٢٣ ربيع الأول ١٣٢٧هـ/ ١٣ إبريل ١٩٠٩م) في إستانبول اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي، وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في عاصمة الدولة نتيجة تدبير أوروبي مع رجال الاتحاد والترقي تحرك على إثره عسكر الاتحاد والترقي من سلانيك ودخلوا إستانبول وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية[1]، وكانت هذه بداية النهاية لدولة الخلافة العثمانية.

المرحلة الثالثة: في خضم الحياة السياسية المصرية (١٣٢٦- ١٣٣٠هـ/ ١٩٠٨ - ١٩١٢م)

كانت وفاة الزعيم مصطفى كامل (٨ المحرم ١٣٢٦هـ/١٠ فبراير ١٩٠٨م) بصفته رئيسًا لتحرير «اللواء» ، إيذانًا بميلاد نجم عبد العزيز جاويش كاتبًا صحفيًّا مشاغبًا عمل كرئيس تحرير لصحف الحزب الوطني «اللواء» و«العلم» و«الشعب» فدخل من خلالها معترك الحياة السياسية المصرية إذ ترك منصبه في وزارة المعارف بالرغم من ترغيب سعد زغلول وزير المعارف في ذلك الوقت له في البقاء رغبة منه «في أن يخدم أمته حرًّا»، ولأنه «رأى معاول الهدم تهدم في بنية هذه الأمة» [2]،

(١) محمد حرب عبد الحميد، مقدمة كتاب: مذكرات السلطان عبد الحميد، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٨م، ص ٤ - ٥.

(٢) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ٦٥.

وفي مقاله الأول في «اللواء» يوم (٢ ربيع الآخر ١٣٢٦هـ/ ٣ مايو ١٩٠٨م) افتتح جاويش مرحلة جديدة في حياته قال عنها: «باسمك الله قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ومطيتها الدهان والتلبيس، في أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس، بزيوف الفلوس وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس، وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة، بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج، بلغت بها ذلك المقام الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومَرْجوٍّ فيه، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر مُنْبَرِيًا في ميدانها، فإما إلى الصدر، وإما إلى القبر»[١].

وقد امتازت تلك الفترة من حياة جاويش بالمعارك التي خاضها، والمحاكمات والاعتقالات التي تعرض لها، كما تميزت بجهوده وآرائه في التعليم والإصلاح الاجتماعي والتجديد الإسلامي، وسوف نرجئ الحديث عن التعليم والإصلاح الاجتماعي وتجديد الفكر الإسلامي إلى القسم الثاني من تلك المقدمة، حيث خاض الشيخ جاويش خلال رئاسته لتحرير اللواء عددًا من المعارك الصحفية، وحوكم وسجن أكثر من مرة. من تلك المعارك ما يلي:

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٨.

معركة «مذبحة الكاملين»: استفتح جاويش هذا النضال في نفس الشهر الذي تولى فيه «اللواء» بثلاثة مقالات عنيفة حول المذبحة التي ارتكبتها القوات الإنجليزية في السودان في منطقة الكاملين والتي حكم فيها في محكمة عسكرية مستعجلة على سبعين من أنصار الزعيم السوداني «عبد القادر إمام» بالإعدام شنقًا، فثارت ثائرة جاويش وتذكر حادثة دنشواي، ورأى حادثة الكاملين أقبح وأمعن في الظلم، ومن ثم فقد قدم أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني سؤالاً عما إذا كانت الحكومة المصرية تنوي محاكمة جاويش، ومن ثم حوكم في الثامن من يوليو فبرأته محكمة عابدين في محكمة الاستئناف.

معركة «ظلموك يا سعد»: تلا ذلك حملته على سعد زغلول وقت توليه نظارة المعارف وذلك بعد نشر المعتمد البريطاني تقريره السنوي الذي انتقد فيه الهجوم على دنلوب ممثل السياسة التعليمية للاحتلال متعللاً بأن للنظارة ناظرًا مستقلاً هو سعد زغلول، فكان نشر هذا التقرير إيذانًا بحملة في سلسلة مقالات حملت عنوان «ظلموك يا سعد» وكان يعني منها أن الإنجليز اتخذوا من اسم سعد وشخصه ستارًا يسدلونه على أعمال النظارة، وهذا هو موطن ظلمهم له ولماضيه.

معركة «ذكرى دنشواي»: وفي (١٠جمادى الآخرة ١٣٢٧هـ/ ٢٨ يونية ١٩٠٩م) كتب جاويش مقالاً في ذكرى دنشواي شنَّ فيه هجومًا على المحاكمة وهيئتها، واعتبرت الحكومة أن فيه قذفًا في حق كل من بطرس غالي رئيس المحكمة وفتحي زغلول عضو المحكمة، ومن ثم أحيل للتحقيق بمقتضى قانون

المطبوعات الجديد الذي صدر في مارس من نفس العام، وصدر حكم عليه في أغسطس بالحبس ٣ أشهر.

معركة «ديوان وطنيتي»: في عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) صدر ديوان وطنيتي للشيخ «علي الغاياتي» وبه مقدمتان إحداهما للشيخ جاويش والأخرى لمحمد فريد تقريظًا للديوان، الذي أهدى منه صاحبه نسخة إلى الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» والذي ما لبث أن كتب في يوليو مقالاً يستعدي فيه النيابة على صاحب الديوان، وبالفعل فقد حقق مع جاويش وقدم للمحاكمة ليقضي بالسجن ٣ أشهر مع النفاذ في أغسطس من نفس العام[١].

ودخل جاويش خلال تلك الفترة أيضًا في عدد من المساجلات الصحفية مع صحف: المقطم، والجريدة، والمؤيد، والمنار في مواقف عدة[٢].

معركة «الحرب الطرابلسية» والتضييق على جاويش: كان عام (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) بالنسبة لجاويش عامًا من الاضطهاد والترصد، ولمحت فيه لأول مرة كلمة النفي أو الإبعاد. وكانت معركة طرابلس بين الإيطاليين والدولة العثمانية وهي المعركة التي شارك فيها جاويش. و لم تكفه الكتابات النارية في الصحف

---

(١) للمزيد حول معارك جاويش طالع: مقدمة «الإسلام دين الفطرة والحرية»، فتحي رضوان، مرجع سابق، ص ١٩ – ٣٧.

(٢) طالع حول تلك المساجلات: أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ١٠٢ – ١١٥.

ولكنه كان يعمل بهمة يجمع الأموال ويهرب الأسلحة والمجاهدين وكان قد أعد وسائل كفيلة بذلك بواسطة إخوته أحمد وعبد اللطيف التجار في منطقة الضبعة غربي الإسكندرية. وفي أكثر من إشارة بجريدة «العلم» تكشف عن مراقبة جاويش ومصاحبة رجال البوليس السياسي له مصاحبة الظل .. ثم تطور الأمر فبدأ الهمس بعزم الحكومة على نفي جاويش بحجة الخوف من أن يحدث فتنة لا تقوى الحكومة على إطفاء لهيبها، كل هذه النذر كانت إرهاصات الهجرة، التي لم تقع إلا في (صفر ١٣٣٠هـ/ فبراير ١٩١٢م) عندما بلغت الأمور غايتها من التضييق والتآمر[(١)].

اتهامان ومناقشة: خلال تلك الفترة أيضًا من حياة جاويش والمليئة بصخب وغبار المعارك السياسية التي خاضها اتهم اتهامين لابد من تمحيصهما والوقوف عليهما:

- التعصب الديني ضد الأقباط: وهو الاتهام الذي بني على أساس مقاله «الإسلام غريب في بلاده» والذي جاء ردًّا على حملة جريدة «الوطن» وهي الصحيفة المعروفة بموالاتها للاحتلال، وهي تهمة علق عليها الأستاذ فتحي رضوان قائلاً: إن نشأة الشيخ ومصادر ثقافته ومعارفه تحول بينه وبين أن يكون هذا الكاتب الأحمق الذي تعبث به آفات التعصب الضيق، وقد علق جاويش على الحملة قائلاً: هاهو

(١) لتفاصيل أكثر حول ظروف التضييق طالع المرجع السابق، ص ١١٦ – ١٢٠.

ذا جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره إلى لوندرة ما يثبت لها مهارته، حتى إذا حط بها الرجل، وخلا إلى أولي الأمر فيها قال هأنذا قد نلت ما لم ينله سلفي، ونجحت فيما فشل فيه أستاذي إذ حاول اللورد – كرومر – مرارًا التفريق بين عنصري الأمة، وطعن المسلمين بالأقباط والأقباط بالمسلمين، فلم ينجح ولم يفلح، ولكنني تمكنت بإشارة صغيرة مني إلى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفكرة التي كان اللورد يجد وراءها ولا يصل، إذًا فقد كان هذا مصدر حدته وشدته في مقاله، وقد مضت الفتنة وانطفأت بحمد الله حينما أدرك الذين من خلفها أنه لا طائل من تحتها، فكما قال جاويش في مقاله المتهم به: عشنا في هذه البلاد دهرًا طويلاً فكنا كما شاء لنا الإسلام إخوانًا في الوطنية شركاء في المرافق الحيوية نتجاور ونتزاور، ونتشاور ونتسامر، ونتعاشر و نتناصر[١].

- العمل السري والتحريض على العنف: راج أيضًا عن الشيخ جاويش أنه من المنخرطين في العمل السري للحزب الوطني، وأنه من المحرضين على العنف والثورة، لكن تلك الاتهامات بقيت مجرد تهم وشبهات، إذ لم يثبت اتهامه في قضية من قضايا العنف

(١) حول تفاصيل الاتهام بالتعصب والرد عليه، راجع: فتحي رضوان، مقدمة «الإسلام دين الفطرة والحرية»، مرجع سابق، ص ٢٧ – ٣٢.

بِبَيِّنَاتٍ مُبِينَات، وإن كانت قد حامت حوله الشبهات «تحريضًا» في قضايا كقضية مقتل بطرس باشا غالي، أو محاولة اغتيال الخديو عباس لاحقًا، أو محاولة اغتيال سعد زغلول، إلا أنه لم تتوافر لكل جهات الاتهام تلك أية بينة تثبت تورطه في أي منها، وإذا كان مشاركًا في النضال السري للحزب الوطني إلا أن تلك لم تكن تهمة يتهم بها المرء وإنما شرف له في ظل وجود احتلال عسكري جاثم على أرض بلاده ومُقَدَّرَاتِها(١).

وفي تلك الفترة بدت الملامح السياسية العامة في مصر كما يلي:

عملت الحكومة على التضييق على الحركة الوطنية خلال تلك الفترة بمعاونة الاحتلال، وذلك في ظل حالة الوفاق بين الاحتلال والخديو وفي ظل خلاف الأخير مع الحركة الوطنية في ظل رئاسة محمد فريد لها، ورئاسة جاويش لتحرير صحفها، وقد تجلى التضييق في إعادة العمل بقانون المطبوعات، وزاد التضييق بعد مقتل رئيس الوزراء بطرس باشا غالي على يد أحد شباب الحزب الوطني وهو إبراهيم ناصف الورداني، ومن ثم محاولة جر المجتمع المصري إلى فتنة وطنية تساعد في المزيد من تضييق الخناق:

---

(١) حول الحزب الوطني والنضال السري راجع: عصام ضياء الدين السيد علي الصغير، الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ – ١٩١٥م، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

– إعادة العمل بقانون المطبوعات: حيث أصدر مجلس الوزراء في (٤ ربيع الأول ١٣٢٧هـ/ ٢٥ مارس ١٩٠٩م) قرارًا بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر في (٥ المحرم ١٢٩٩هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م)إبان الثورة العرابية، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد .. وقد اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطني يوم صدور هذا القرار وقررت الاحتجاج عليه، وإبلاغ الاحتجاج إلى الخديو .. وكان هذا القانون يخول وزارة الداخلية حق إنذار الصحف، وتعطيلها مؤقتًا أو نهائيًا، دون محاكمة أو دفاع، فكان بعثه وإعادة العمل به قضاء على حرية الصحافة، وكان صدور القرار أول مظاهر تحالف الخديو والوزارة والاحتلال على الحركة الوطنية[١]. وقد أثار قرار مجلس الوزراء سخط الرأي العام على وزارة بطرس باشا، وانهالت رسائل الاحتجاج وبرقياته وقرارات الهيئات والجماعات بالاحتجاج على إعادة قانون المطبوعات وقامت مظاهرات الاحتجاج على تقييد حرية الصحافة[٢]. وكانت محاكمة الشيخ جاويش حول مقاله عن ذكرى دنشواي في (جمادى الأولى ١٣٢٧هـ/ يونية ١٩٠٩م) ثم إنذار جريدة اللواء إعمالاً لقانون المطبوعات بحجة أنه نشر مقالة عن شاب هندي يُدعى دنجرا، حكم عليه بالإعدام لاتهامه بقتل السير كرزون ويلي، مما عُدَّ تحريضًا

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية (تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨م إلى سنة ١٩١٩م)، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م، ص ١١٨ – ١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢١ – ١٢٢.

على ارتكاب الجرائم وإخلالاً بالأمن والنظام العام، فكان الحكم على الشيخ جاويش وإنذار جريدة اللواء في يوم واحد اضطهادًا متعمدًا للحركة الوطنية[١].

- مقتل بطرس باشا غالي: في يوم (١١ صفر ١٣٢٨هـ/ ٢٠ فبراير ١٩١٠م) أطلق الورداني رصاصات على غالي فأودت بحياته، وكان الدافع الذي ذكره هو ما عده خيانة من تصرفات بطرس باشا غالي، وأخصها توقيعه اتفاقية السودان سنة (١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م)، ورياسة المحكمة المخصوصة في حادثة دنشواي، وإعادة قانون المطبوعات، ثم سعيه في إنفاذ مشروع مد امتياز القناة وكانت هذه الحادثة أولى حوادث القتل السياسي .. ولو لم يكن بطرس باشا قبطيًّا لوقعت الجريمة، مهما تكن ديانة المعتدى عليه ولكن وقوع الجناية على رئيس وزراء قبطي جعل فريقًا من الأقباط ينسبونها إلى التعصب الديني، ورددت الصحافة البريطانية[٢] تلك المقولة، «ومما لا شك فيه أن الاغتيال لم يكن فيه فكرة التعصب الديني، بل ولا أثر لها فيه على الإطلاق، بل كان سياسيًّا بالدرجة الأولى حسب اعتراف المعتمد البريطاني»[٣].

-الخلاف بين المسلمين والأقباط: في «خلال غيبة الزعيم - محمد فريد- في سجنه، حدثت فتنة الخلاف بين المسلمين والأقباط، وانعقد المؤتمر القبطي بأسيوط في شهر (ربيع الأول ١٣٢٩هـ/ مارس ١٩١١م)، ثم المؤتمر المصري بمصر

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٣ – ١٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٧ – ١٧٨.

(٣) عصام ضياء الدين السيد علي الصغير، الحزب الوطني والنضال السري، مرجع سابق، ص ١٨١.

الجديدة في إبريل - مايو من نفس العام ردًّا عليه. وقد قيل وقت انعقاد المؤتمرين إن يد السيد إلدون جورست المعتمد البريطاني، لم تكن بعيدة عن الدعوة إليهما، ومما يؤيد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة عقد المؤتمر المصري ردًّا على المؤتمر القبطي.. ولو لم يكن الاحتلال مغتبطًا بهذه الحركة، أو راضيًا عنها، لما فكرت الوزارة في تأييدها، ومما يؤيد ذلك أن جميع مواضيع المؤتمر المصري، بله المؤتمر القبطي، قد خلت من أي معارضة للاحتلال، أو انتقاد لسياسته، أو مطالبة له بتحقيق وعوده»[1].

أما الحالة العامة في الدولة العثمانية فقد بدت كما يلي:

خلال تلك الفترة كان قد وصل الصدام بين المطالبين بالدستور وعلى رأسهم جمعية الاتحاد والترقي وبين السلطان عبد الحميد الثاني إلى الحافة التي انتهت بخلعه وتولية السلطان محمد رشاد الذي تولى منصبه في (٧ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ/ ٢٧ إبريل ١٩٠٩م)، وعلى الرغم من موقف الحزب الوطني الثابت من قضيتي الوطنية المصرية جنبًا إلى جنب مع الجامعة الإسلامية، فإن موقفهم كان لا يقل ثباتًا من قضية «الدستور» سواء على المستوى العثماني أو المصري، وهو ما حدا بالحزب الوطني مُمَثَّلاً في زعيمه الثاني محمد فريد ورئيس تحرير جريدتها

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد ...، مرجع سابق، ص ٢٧٣، وحول وقائع هذين المؤتمرين طالع: طارق البشري، الجماعة الوطنية العزلة والاندماج، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٦٥٢، إبريل ٢٠٠٥م، ص ٢٩ – ٦٩، حيث يرى البشري أن أعمال المؤتمر المصري تجنب الاستقطاب القبطي الإسلامي، وقدم مناقشة هادئة للقضايا الخلافية، كما قدم مشروعًا للنهضة المصرية.

«اللواء» إلى الاحتفاء بانتصار الدستور، حيث يقول الأول «خلع عبد الحميد سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) فبويع بالخلافة الإسلامية الخليفة الشوري العادل أمير المؤمنين محمد رشاد الخامس .. ومنذ ارتقاء جلالته على العرش تسلم حزب الاتحاد والترقي إدارة الحكومة العثمانية .. وبدأ أعماله وإصلاحاته بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل، كان أول ما ابتدأ في تنفيذه من الوسائل النافعة تعميم المساواة بين أفراد الأمة بوضعهم جميعًا في مستوى واحد أمام قانون واحد»[١].

أما جاويش فقد كان مع إيمانه بالحق القومي «يتابع بقوة تطور الدولة العثمانية خاصة بعد أن صدر الدستور عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) وبدأ حكم جديد قوامه إطلاق حرية الصحافة العثمانية وإصدار الدستور، وهو في عرضه لذلك يذكر مصر ويطالب لها بمثل ما حققت تركيا»[٢].

المرحلة الرابعة: استمرار النضال في المهجر (١٣٣٠- ١٣٤١هـ/ ١٩١٢- ١٩٢٣م)

بين تركيا وألمانيا قضى جاويش الأعوام الأحد عشر التالية من عمره، واصل فيها نضاله في سبيل قضايا أمته دون كلل، فحينما غادر مصر في (ربيع الأول ١٣٣٠هـ/ مارس ١٩١٢م) اتجه إلى تركيا وله معرفة وثيقة

(١) محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٧م، ص ٤١٢ – ٤١٤، زاد محمد فريد في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب والتي نشرت عام ١٩١٢م من صفحة ٤٠٦ إلى صفحة ٤١٥، وهي الطبعة التي أخذت منها طبعة ١٩٩٧م التي ننقل عنها.

(٢) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ٨٤.

إذ ذاك بالرجال البارزين من الاتحاديين: طلعت، أنور، عصمت وغيرهم، وهناك أنشأ جريدة «الهلال العثماني» التي أصبحت دارها موئلاً للعاملين في المجال السياسي والدعاة إلى الحرية، والمقاومين للنفوذ البريطاني الفرنسي وجعل هدفها الدفاع عن حقوق مصر في الحرية والاستقلال ومناهضة الإنجليز في كل مكان[1].

ولما نفضت تركيا يدها من ليبيا وتركت المجاهدين يلاقون مصيرهم وحدهم أمام الغزو الإيطالي، أبى أن يوقف جهاده، وتعاون مع أنور باشا في مساعدة الليبيين ومدهم بالمال والسلاح، ولاتساع نطاق صلاته بزعماء العالم الإسلامي استطاع أن يؤسس «جمعية خُدَّام الكعبة» والتي اعتبرتها جريدة التايمز حزبًا سياسيًّا أشد خطرًا على مصالح بريطانيا من الحزب الوطني المصري، وفي (ربيع الأول١٣٣٢هـ/ فبراير ١٩١٤م) أسندت الحكومة التركية إلى الشيخ وإلى شكيب أرسلان أمر تأسيس جامعة في المدينة المنورة، وقد أنابه الخليفة محمد الخامس لوضع حجر أساسها في (ربيع الأول١٣٣٢هـ/ فبراير ١٩١٤م)، ومن هناك أذاع بيانًا بأن الجامعة ستضم كليات للطب والهندسة والمساحات الزراعية يتبعها ما يلزم من مستشفى ومعامل للتحليل، ودعا المسلمين إلى دعم المشروع بمالهم، وعهد إليه السلطان في نفس العام بتجديد كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس، فقال عن المشروع إن الكلية ستقوم على تدريس العلوم الشرعية والحقوق والفنون المختلفة واللغات المتنوعة لتخرج أخصائيين في هذه العلوم قادرين على

(١) المرجع السابق، ص ١٢١ – ١٢٢.

الدفاع عن التعاليم الدينية، ويصلحون للنهوض بأعباء الوظائف الشرعية وتبعات الأعمال العلمية. ولما وقعت الحرب العالمية في أغسطس سنة ١٩١٤م، ودخلت تركيا الحرب في صف ألمانيا بداية من ٥ نوفمبر من العام نفسه اتصل بالساسة الألمان ليجد ما يعين على إخراج الاحتلال البريطاني من مصر، وقد أصدر مجلة «العالم الإسلامي» بالألمانية والعربية معًا عام (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م)، وقد أصبح مكتب المجلة في برلين ناديًا سياسيًّا للمصريين والعرب والمسلمين والشرقيين، وكان يتردد عليه كبار الساسة الألمان[١]. كانت هزيمة تركيا وإعلان الهدنة من أسوأ ما مر بجاويش من أحداث، فاضطر هو ورجال الحزب الوطني للهرب من تركيا عام (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) متجهًا إلى ألمانيا عن طريق سويسرا، وهناك عاش حياة قاسية حيث اضطر للاحتطاب في الغابات وعاش بين ألمانيا وسويسرا من أجل تحقيق ما يمكن تحقيقه من مؤتمر الصلح[٢].

ثم قامت الثورة التركية بقيادة مصطفى كمال لرد الزحف اليوناني على تركيا، واستدعى كمال أتاتورك الشيخ جاويش ليرأس هيئة للبحث والدراسة والفتوى الإسلامية اسمها «تدقيقات وتأليفات إسلامية» حيث وصل الشيخ إلى أنقرة في (٢٨ ربيع الآخر ١٣٤١هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٢٢م)، وأخذ في إعداد ما يلزم لهذه الهيئة من المراجع، وأعد لها مكانًا، ووضع لها برنامجًا، ولكنه لم يلبث

(١) فتحي رضوان، مقدمة «الإسلام دين الفطرة والحرية»، مرجع سابق، ص ٤٣ — ٤٦.
(٢) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ١٣٠.

أن اختلف مع كمال أتاتورك، حينما اتضحت نيته في إنهاء الخلافة الإسلامية وفي إقامة حكم علماني لا ديني في تركيا، وأدرك الأتراك أن الشيخ لا يقرهم على أفكارهم ولا يؤيد سياستهم فأصبحت حياته في خطر فدبر له بعض الأصدقاء سبل العودة سرًّا إلى مصر في (ربيع الآخر ١٣٤٢هـ/ ديسمبر ١٩٢٣م)بعد أن رفضت وزارة يحيى إبراهيم باشا أن تأذن له بالعودة إلى بلاده[١].

المرحلة الخامسة: بالتعليم تنتهي الرحلة كما بدأت (١٣٤٢- ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٣- ١٩٢٩م)

لدى عودته متخفيًا نشر جاويش بيانًا في الصحف بعد عدة أيام بعنوان «تجديد العهد» كشف فيه عن وجوده في مصر التي كانت تستعد لمعركة الانتخابات الأولى بعد إعلان الدستور وعودة سعد زغلول من منفاه، وكان الحزب الوطني قد نزل المعركة فعلاً، واحتجز دائرة الجمرك في الإسكندرية لجاويش، لينافس محمد سعيد باشا وزير الداخلية في وزارة مصطفى فهمي، وقد هاجمته الصحف الوفدية، وبدا موقفه في الانتخابات قاسيًا لتأييد الوفد لمحمد سعيد باشا، وكانت الشُّقة قد بعدت بين جاويش والشعب، ومن ثم خرج من المعركة الانتخابية مهزومًا، وكان ذلك ختام الموقف السياسي كله بالنسبة لجاويش، هنالك اتجه جاويش إلى العمل الصحفي فكتب في جريدتي الأخبار واللواء المصري، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى وقع الاعتداء على سعد زغلول رئيس الحكومة يوم ١٢ يوليو عام ١٩٢٣م، وألقي القبض على جاويش ولفيف من أعضاء الحزب الوطني،

(١) فتحي رضوان، مقدمة «الإسلام دين الفطرة والحرية»، مرجع سابق، ص ٤٦- ٤٧.

وظلَّ مسجونًا حتى (٥ المحرم ١٣٤٣هـ/ ٥ أغسطس ١٩٢٤م) عندما أفرج عنه، ولم تلبث الدولة أن رأت عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م)الانتفاع بخبرته التعليمية والتربوية، فأوكلت إليه مهمة مدير التعليم الأولي وفق خطة لمحو الأمية وتوسيع نطاق التعليم. وخلال تلك الفترة من حياته في مصر شارك جاويش في تأسيس جمعية «الشبان المسلمين» في (جمادي الآخرة ١٣٤٦هـ/ ديسمبر ١٩٢٧م) مع عدد رجال الحزب الوطني القدامى وبعض الشباب الغيور على دينه وذلك ضمن تحرك أوسع يتخذ وسائل عدة كان يستهدف بها الوقوف في وجه موجة الإلحاد والإباحية التي كانت تموج بها مصر آنذاك، وقد اختير جاويش وكيلاً للجمعية، كما ساهم جاويش بجهوده في تلك الفترة أيضًا في دعم أنشطة جمعية المواساة الإسلامية والتي كان قد سبق وأن أسسها منذ زمن طويل، إضافة إلى ذلك واصل جاويش خلال تلك الفترة نضاله النقابي، حيث عمل وكيلاً لنقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال[١]. وقد مضى جاويش يعمل في تلك المجالات حتى انقطع الزيت وانطفأت الشمعة فجر يوم الجمعة (١٥ شعبان ١٣٤٧هـ/ ٢٥ يناير عام ١٩٢٩م)[٢].

---

(١) طالع جانبًا من مظاهر تلك الموجة ورد الفعل عليها في: حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، القاهرة، دار الشهاب، بدون تاريخ، ص ٤٩ — ٥٤، وبينما يشير محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه «قصص من التاريخ» إلى أن الشيخ جاويش كان وكيلاً للجمعية التي أنشئت في ٩ ديسمبر ١٩٢٧م (طالع: محمد عبد المنعم خفاجي، قصص من التاريخ، مرجع سابق، ص ٧٤ — ٧٥)، فإن عصمت نصار يشير إلى أن الغرض من إنشائها كان هو تنمية الآداب، والأخلاق الاجتماعية الإسلامية، وإنارة الأذهان بالمعارف، وإزالة الخلافات بين الفرق الإسلامية، وتشجيع الرياضة، والفتوة، انظر: عصمت نصار، الفكر المصري الحديث بين النقض والنقد، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ١٧١.

(٢) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ١٤٤ — ١٥٤.

النسب الفكري للشيخ جاويش

الشيخ عبد العزيز جاويش كان في تكوينه نتاجًا لتزاوج ثلاث من الثنائيات:

- أولاً: ثنائية تعليم الأزهر ودار العلوم.
- ثانيًا: ثنائية التعليم الإسلامي والتعليم الغربي.
- ثالثًا: ثنائية مدرسة الإصلاح والتجديد ورائدها محمد عبده، ومدرسة الحزب الوطني في الوطنية (الاستقلال والنهضة) ممثلة في زعمائها (مصطفى كامل ومحمد فريد).

كان الشيخ جاويش طوال حياته مفكرًا وحركيًّا في آن واحد، وكان في أعماله وأفكاره نتاجًا لتلك الثنائيات المتزاوجة في تفاعلاتها مع المكون الذاتي، والتي أثمرت جهودًا وأعمالاً وأفكارًا في التعليم والتربية والإصلاح الاجتماعي والنضال السياسي، وإذا كنا قد أشرنا في الصفحات السابقة إلى جهوده في المجال السياسي الوطني، فإننا في الصفحات التالية نسرد ملامح جهوده وآرائه الفكرية في مجالات التعليم والتربية والإصلاح الاجتماعي وتجديد الفكر الإسلامي، وإجمالاً فإننا يمكن أن نضع التأثير والتأثر في حياة وفكر جاويش في الشكل التالي:



التعليم والإصلاح الاجتماعي

الدعوة لتطوير أساليب التربية ونشر التعليم في جميع فئات الشعب، وتطوير التعليم الأزهري والأزهريين، والعمل على تكاتف فئات الشعب من خلال الجمعيات (جمعية المواساة الإسلامية)، والنقابات (نقابات العمال ونقابات التعاون الزراعي، ونقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال)، وإصلاح أحوال السجون ومحاربة المخدرات والمسكرات.

النضال السياسي

كان في نضاله طوال حياته متشبثًا بالوطنية والاستقلال، ومعاديًا لا يهادن في عداوته للاحتلال وأعوانه، ومتمسكًا بالدستور والحياة النيابية، ومتمسكًا بالانتماء للأمة الإسلامية ممثلة في الدولة العثمانية مع العمل على تجديد دمائها بعلاج سلبيات الحكم والإدارة فيها.

تجديد الفكر الإسلامي

كان الشيخ جاويش في صلته بالفكر الإسلامي مفكرًا ومجددًا وحركيًّا على منهج شيخه محمد عبده في الذود عن الدين ضد انتقادات الغربيين والمتغربين ومجليًا لحقائق الدين في وجه المفاهيم والسلوكيات السلبية التي التصقت بأتباعه(١)، وداعية من خلال مجلاته ومقالاته ومن خلال جهوده في إنشاء نادي دار العلوم(٢)، وجمعية الشبان المسلمين.

---

(١) من أمثلة هذا الدور المزدوج في كتابه ما استهل به حديثه حول تعدد الزوجات حيث قال: «تقدم لنا التلميح إلى ما حشا به الأوربيون كتبهم من الطعن في الإسلام، متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة ولو كانوا يعرفون العربية، ويفقهون كتاب الله وقواعده، ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه. إن النقائص التي مثلت بالإسلام في أعين غير أهله، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح، ميزانًا لتقدر به قوانين الشرع ونواميسه، فمن قائل بسد باب الاجتهاد، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه في شيء، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعًا إلى الزلفى منه، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم، حتى ضاقت نفوسهم، وأيقنوا العجز من احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون»، عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة والحرية، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٢) طاهر الطناحي، الشيخ عبد العزيز جاويش، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مجلة منبر الإسلام، العدد ٧ السنة ٢١، رجب ١٣٨٣هـ، ديسمبر ١٩٦٣م، ص ١٠٩.

كانت التربية والتعليم هي الخيط المتصل في مسيرة اهتمام جاويش و في مراحل عطائه، بينما كان الإصلاح الاجتماعي خيطًا ثانيًا ومكملاً لديه لأدوات النهضة بعد التعليم.

أما النضال السياسي فقد كان هو الوقود الذي كانت ثوابته التي لافصال فيها: ١- الاستقلال والوطنية ومعاداة الاحتلال ٢- التمسك بالدستور والحياة النيابية كتعبير عن حرية الأمة إزاء حكامها ٣- التمسك بالهوية والوحدة الإسلامية[١].

أما الفكر الإسلامي فرغم أنه لم يتفرغ للعمل به إلا أن إنتاجه القليل في هذا المجال ينم على أنه لو فعل لما قل مكانة عن أستاذه الإمام، وقد كان في فكره هذا: يذود عن الإسلام إزاء أعدائه، وينتقد المفرِطين (بكسر الراء)، ويثور على المُفرِّطين (بالراء المكسورة والمشددة)، ويجلو ويبين حقائق الدين للباحثين، ويجدد فهم الدين والعمل به على خطى الإمام.

(١) طالع في ذلك ما جاء في مقدمة فتحي رضوان لكتاب «الإسلام دين الفطرة والحرية»، مرجع سابق، ص ٢٢- ٢٤، وطالع أيضًا كتاب: خبير بأطوار الأمم الشرقية، خواطر في التربية النفسية والاجتماع عن المرأة المصرية والشئون العامة، بدون ناشر، ١٩٣٠م، ص ٦١ - ٦٣.

مجمل الإنتاج الفكري للشيخ جاويش

لم يُعْنَ أحد ممن كتبوا عن الشيخ عبد العزيز جاويش بحصر مؤلفاته[1] أو جمع كتاباته سواء منها المقال أو الدراسة أو الكتاب، حيث ذكروا بعضها في معرض حديثهم حول حياته. وقد كانت محاور كتابات جاويش هي محاور حياته التي ذكرناها سابقًا:

المحـــور	بيانـــه
السياسي	مقالات بصحف: اللواء (١٩٠٨ - ١٩٠٩م) والعلم (١٩٠٩ – ١٩١١م) والشعب (١٩١٠م) والأخبار (١٩٢٣ – ١٩٢٤م) والهلال العثماني (١٩١٢-١٩١٤م) والحق يعلو[2]
التربوي والتعليمي	مقالات: بصحف اللواء والعلم والأخبار ومجلة الهداية (١٩١٠ – ١٩١٤م) كتب: غنية المؤدبين (١٩٠٣م)، ومرشد المعلمين (١٩٠٦م)، و«مرشد المترجمين»[3]

---

(١) باستثناء أنور الجندي في نهاية كتابه في إطار ذكره لمصادر بحثه، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

(٢) ذكر أنور الجندي أنها أنشئت في عهد وزارة شوكت (التركية) ولم يحدد لها تاريخًا للبدء أو التوقف، طالع ص ١٢٧.

(٣) طاهر الطناحي، الشيخ عبد العزيز جاويش، مرجع سابق، ص ١٠٩، حيث ذكر أنه ألفه باللغتين العربية والإنجليزية بالاشتراك مع آخرين.

المحـــــور	بيانـــــه
الإصلاح الاجتماعي	مقالات بالصحف السابق ذكرها ومجلة الهداية كتاب: أثر الخمر في نظر أرقى الأمم المسيحية وغيرها (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م)[١]
تجديد الفكر الإسلامي	تجديد الفكر الإسلامي، كتاب: الإسلام دين الفطرة (١٩٥٢م) مقالات بمجلة الهداية (١٩١٠ – ١٩١٤م)، ومجلة العالم الإسلامي (١٩١٦-١٩١٧م)، وكتاب: إجابتي على الكنيسة الإنجليكية[٢]
عــــام	كتاب: خواطر في التربية النفسية والاجتماع وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة بقلم خبير بأطوار الأمم الشرقية، وهو يجمع مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش التي كتبها في صحيفة اللواء أعوام ١٩٠٨م و١٩٠٩م[٣].

(١) ذكره أنور الجندي في متن كتابه «عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع» دون تحديد تاريخ صدوره، ص ١٩٤، كما ذكره محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه «قصص من التاريخ»، وذكر فيه أنه ألفه في لندن، مصدر سابق، ص ٧٩.

(٢) ذكر محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه «قصص من التاريخ»، ص ٧٩ أن جاويش قد ألفه باللغة التركية فترة هجرته دون ذكر تاريخ محدد.

(٣) كتب الأستاذ أنور الجندي بقلمه على نسخة هذا الكتاب الموجودة بدار الكتب في ١٩٦٤/٧/٢٥م بأن: مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ عبد العزيز جاويش، وإن كان ضمير الغائب الذي يعود إلى الشيخ جاويش المستخدم من قبل جامع الكتاب والذي يلقبه فيه بالأستاذ يوحي بأن جامع تلك المقالات هو شخص آخر غير الشيخ جاويش، وإن كانت المقالات تعود إليه، حيث أن أول تلك المقالات هو مقاله الأول باللواء والذي سبقت الإشارة إليه.

بعد أن عرضنا للجانب السياسي من حياته، نتعرض للمحاور الثلاثة الأخرى فيما يلي:

أولاً: التربية والتعليم في فكره وأعماله

اهتم جاويش بالتربية والتعليم خلال جميع مراحل حياته، ففي المرحلة الثانية من حياته عني بتأليف كتابين والمشاركة في ثالث، وكانت كتابته في هذا المجال من بين الكتابات الرائدة في مجالي التربية والتعليم بشكل يتوافق مع العلوم الحديثة ويتواءم مع منطلقاته الوطنية والإسلامية، ويعد كتاباه من أبرز ما كتب في هذا المجال: «غنية المؤدبين» و«مرشد المعلمين».

أ. غنية المؤدبين: نشر هذا الكتاب عام (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) وجاء في ١٨٠ صفحة، وهو كتاب متخصص في تربية النشء لكنه كتب بأسلوب يناسب المبتدئين، وكتابه هذا هو أول كتاب ألف بالعربية في العصر الحديث في تربية النشء كما يشير جاويش في مقدمته: «لما كانت اللغة العربية لم يوضع بها في فن التربية وأساليبها شيء على النسق الحديث وقد اشتدت حاجة المؤدبين في هذا الزمن إلى كتاب يهتدون بهديه في هذا الفن أردت إجابةً لمطالب هذه الحاجة الشديدة أن أضع عجالة صغيرة تكون بحول الله مرجعًا لمدرسي فن التربية ولُقَطَة لطالبيه، وجمعت في هذه العجالة كل ما تدعو الحاجة

إليه في تعليم الناشئة، ولم أخرج عن دائرة مسائل التربية العلمية إلا بشذرات قليلة ألممت فيها بنبذة في تاريخ التربية وشيء قليل من علم النفس، وهنا يَجْمُلُ بي أن أقول إنني جافيت بكتابتي هذه مضاجع الإتقان حتى لا يحرم مبتدئ أو قاصر عن الانتفاع بها فجاءت بحمد الله دانية القطوف لمن رغب في ثمراتها»[١]. وكما قال في مقدمة كتابه التالي المسمى بـ «مرشد المعلمين»، فإن «غنية المؤدبين» «لم يكن في الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء، ولذا جاء غير وَافٍ بجميع المباحث الضرورية[٢]. ولكنه جاء وافيًا بما يناسب جمهوره المستهدف منه».

ب. مرشد المعلمين: وقد نشر هذا الكتاب عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) في ٢٨٥ صفحة، وكتب على غلافه أنه من تأليف «حضرة الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش الإسكندري مدرس اللغة العربية بكلية أكسفورد» أي إنه نشر فور عودة جاويش من عمله في أكسفورد في ذلك العام. وعن سبب تأليفه يقول جاويش: «دعاني إلى وضع هذه العجالة ما رأيته من حاجة المعلمين الشديدة إلى ما يهتدون بنبراسه من كتب

(١) عبد العزيز جاويش، غنية المؤدبين في الطرق الحديثة للتربية والتعليم، القاهرة، مطبعة الشعب، ١٩٠٣، ص أ – ب.

(٢) عبد العزيز جاويش الإسكندري، كتاب مرشد المعلمين، القاهرة، مطبعة الواعظ، ١٩٠٦م، جزء أول، ص ٢.

التربية العملية فإن ما سبق لي وضعه في هذا الفن لم يكن في الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء ولذا جاء غير وافٍ بجميع المباحث الضرورية فأبت الحاجة إلا أن ألبي طلبها بهذه العجالة التي أرجو أن يهتدي بها جميع أساتذة المدارس الابتدائية، وقد ضربت صفحًا عن البحث عن النفس وقواها والعقل على اختلاف أطواره في هذه العجالة حتى لا يفوتنا شيء من المباحث العملية التي هي المقصودة بالذات من هذا الكتيب والله المستعان»[1]. وقد جاء الكتاب «العجالة» تفصيلاً لمباحث «التربية العملية» بشكل أكثر تخصصًا للمعلمين، على عكس كتابه الأول الذي كان لطائفة المؤدبين.

وفي المرحلة الثالثة من حياة جاويش واصل اهتمامه بالتربية والتعليم فـ «أنشأ المدرسة الإعدادية بدرب الليل قسم الدرب الأحمر ودعا المواطنين إلى إرسال أبنائهم إليها وكان يعلم فيها بنفسه، وقد رأى أن يفتتحها في فترة إجازات الصيف حتى لا تضيع أوقات الشباب فيما لا ينفع. كما أنشأ في القاهرة ما أطلق عليه جمعية تشجيع التعليم الحر، ودعا في المؤتمر الوطني (غرة المحرم ١٣٢٨هـ/ ١٢ يناير ١٩١٠م) إلى إنشاء مدارس البساتين (رياض الأطفال) وقال إن هذه المدارس هي التي تبني التعليم في مصر»[2]. وقد كتب العديد من المقالات

---

(١) المرجع السابق، ص ٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٧ – ١٦٨.

حول التربية والتعليم في صحف اللواء والعلم والشعب ومجلة الهداية، فتكلم فيها عن التربية كأساس للتعليم وتكلم عن تعليم البنات ودعا إلى التوسع في التعليم الزراعي والصناعي ومدارس النسيج وطاف بمصر يدعو لجمع الصدقات والأموال لِتُوَجَّه في خير مصارفها في سبيل العلم، وأمكنه إصدار قانون الشركة الأهلية وهدفه تسهيل التعليم على الأهالي بنين وبنات، مع تحسن التربية حتى تكون للأخلاق واقية[١]، وفي مؤتمر الحزب الوطني في (صفر ١٣٢٩هـ/ فبراير ١٩١١م) ألقى جاويش خطابًا جامعًا في إصلاح التعليم بدأه بالحديث عما تردى فيه التعليم من تخلف في أساليب التربية وفي مستوى التعليم، وما يجب أن يكون عليه لإصلاح حاله[٢]، كما وجه الشيخ جاويش جزءًا من اهتمامه إلى التعليم في الأزهر، وخاض من أجله معركة ضخمة، وألف لجنة الاتحاد الأزهري قاوم فيها الحكومة لموقفها العدائي من إصلاح أحوال التعليم في الأزهر، ودافع جاويش عن مطالب تطوير نظم التعليم، حيث طالب بإدخال جميع العلوم العصرية في الأزهر، وإلحاق مدرسة المعلمين بالناصرية ومدرسة القضاء الشرعي به لأن هذا المعهد (الأزهر) يجب أن يكون مصير التربية والتعليم إلى رجاله، كما كان يلتقي بالشباب المتطلع من الأزهر موجهًا إياه للعمل، ولدراسة الفرنسية عن طريق المدرسة الإعدادية الليلية التي أنشأها، التي أمها عدد كبير منهم من علماء وطلبة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٩ – ١٧٤.

(٢) حسين فوزي النجار، الشيخ عبد العزيز جاويش معلمًا ومربّيًا، مرجع سابق، ص ١٠٣ – ١٠٤.

حتى بلغ عددهم نحو أربعمائة طالب، كما أعد مشروعًا لإرسال بعثات منهم إلى أوروبا، حيث شارك مع إسماعيل شيمي وفؤاد حسيب (من رجال الحزب الوطني) في إعداد الإرسالية، وقد سافرت البعثة الأولى التي تكونت من ثلاثة طلاب أزهريين في (١٧ صفر ١٣٢٩هـ/ ١٦ فبراير ١٩١١م) وكانت على حساب الأمة مباشرة، وسافر جاويش معها إلى مونيلييه[١] لكن اضطراره للهجرة عام (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) حال دون أن يتابع رعاية تلك البعثة، كما اهتم جاويش بترقية تعليم البنات «فمدارس البنات القائمة غير كافية الأمة حاجاتها ولا وافية بشيء من مطالب المرأة باعتبارها نصف الأمة عليها من الفروض والتكاليف العمومية ما لا يقل عما على الرجل»[٢]. أما في المرحلة الخامسة والأخيرة من حياته فقد عاد إلى العمل بالتعليم، وشارك خلال تلك الفترة في مؤتمر التعليم الأولي الإجباري الذي أقامته نقابة المعلمين العليا في شهر (ذي الحجة ١٣٤٣هـ/يوليو ١٩٢٥م)؛ حيث ألقى محاضرة في جلسته الأخيرة كان عنوانها «التطور الحديث في التعليم الأولي»، كما شارك في مناقشة أعمال المؤتمر وصياغة قراراته[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٥ – ١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣) حول أعمال المؤتمر انظر: أحمد شفيق باشا، أعمالي بعد مذكراتي، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ١٤١– ١٥٤.

ثانيًا: الإصلاح الاجتماعي في فكر وأعمال جاويش

أولى جاويش الإصلاح الاجتماعي اهتمامًا بالغًا وصرف همه إليه بالفكر والعمل معًا خلال بعض مراحل حياته (١٣٢٦-١٣٣٠هـ/ ١٩٠٨ - ١٩١٢م) و(١٣٤١-١٣٤٨هـ/ ١٩٢٣ - ١٩٢٩م)، ففي الفترة من (١٣٤١-١٣٤٨هـ/ ١٩٠٨-١٩١٢م) أنشأ «جمعية المواساة الإسلامية» التي كانت تعول مائتين من الأسر .. ورافق عمر لطفي في توسيع مشروع نقابات العمال والنقابات الزراعية، وشارك في إنشاء شركات التعاون المنزلي والتعاون المالي، ودعا إلى ترابط رؤوس الأموال الصغيرة وإنشاء مصرف وطني، ووجه عناية كبيرة إلى المسجونين وتهذيبهم، واهتم بمحاربة أذى الخمر ومضار المسكرات، كما أولى اهتمامه الكبير لأمر الأسرة والبيت والمرأة، فأفسح للمرأة مجالاً في مجلة «الهداية» والتي حوت فصولاً متعددة عن الإصلاح الاجتماعي ذات طابع علمي كان يوقع عليها باسم «الاجتماعي»[١]. وقد شارك جاويش خلال تلك الفترة في المحاضرات التي دارت في نادي دار العلوم[٢] في إطار المناقشات العامة التي دارت حول مسألة إنشاء بنك وطني والتي دعت إليها الحركة الوطنية آنذاك لتحرير الاقتصاد الوطني من قبضة البنوك الأجنبية، حيث ألقى المحاضرة الأولى في سلسلة تلك المحاضرات[٣].

---

(١) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ١٩١ - ١٩٨.

(٢) ألقيت المحاضرات في الفترة من ١٢ ربيع الأول ١٣٢٦هـ، إلى ٢٩ ربيع الأول ١٣٢٦هـ (٣٠ إبريل ١٩٠٨م)، ويمكن مطالعة بعض مما جاء في تلك المحاضرات في: جمال البنا، الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية، القاهرة، دار الفكر الإسلامي، ١٩٨٦م، ص ٧ - ٤٧.

(٣) محمد عبد المنعم خفاجي، قصص من التاريخ، مرجع سابق، ص ٧٤.

ثالثًا: في الفكر الإسلامي على خطى الإمام

اقتدى الشيخ عبد العزيز جاويش في هذا الباب سواء أكان في علمه أو في إرشاده إلى الإصلاح عن طريق الدين بالإمام محمد عبده؛ وفي إصلاح حال المسلمين بواسطته، وفي تفسير كتاب الله العزيز. فكيف تم للشيخ الاقتداء بالإمام؟ يحدثنا في ذلك السيد رشيد رضا في الجزء الأول من مؤلفه «تاريخ الأستاذ الإمام» بقوله: «وكان يحضر دروس التفسير غير هؤلاء – منهم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد مجيئه من أوربا والشيخ مصطفى العناني وقد كلماني بأن أقدمهما إليه، وأذكر له رغبتهما في الانضمام في سلك مريديه ففعلت»[١].. وبعد أن تمت صلة الشيخ بالإمام، أخذ بتأثره في كل شيء في تفسير كتاب الله، وفي البحث الديني، وفي اتجاهاته الإصلاحية، وقد سلك لذلك سبيله، سبيل التأليف والخطابة فكان فيهما مرشدًا ومعلمًا، وعالمًا كبيرًا»[٢].

مجلة الهداية.. أجل أعماله في الفكر الإسلامي

بدأ الشيخ عبد العزيز جاويش كتاباته في مجال الفكر الإسلامي منذ عام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)؛ حيث ألف في ذلك العام كتابه «الإسلام دين الفطرة» وهو ما سيأتي الحديث عنه لاحقًا، لكن أكثر أعماله في هذا المجال نشرت بمجلة

---

(١) حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

«الهداية» (١٣٢٨- ١٣٣٢هـ/١٩١٠- ١٩١٤م)، التي كانت تهدف أساسًا للدفاع عن الإسلام، وقد صور جاويش في مقدمتها هدفه منها قائلاً: «أصبح كثير من المسلمين في تفريطهم في هذا الدين القيم شيعًا، فمنهم من غرتهم زخارف المدنية، وغرتهم منها حال صرفتهم عنه، فلم يبق منهم إلا السمة والرسم.. نشأوا في حجر التفرنج، ودرجوا فيه، ومنه خرجوا يعبدون كل ما يخشونه أو يرجونه ومنهم من أَنْسَتْهُمْ دينَهم النشأةُ الفاسدة والبيئة الجاحدة»[١]. ومن أجل هؤلاء جميعًا أخذ يعمل في هذا المجال «يهيب بالمسلمين داعيًا إياهم إلى السبيل القويم»[٢]. وقد صدرت المجلة في المحرم من عام (١٣٢٨ هـ/ فبراير ١٩١٠م)، وكان إنشاء «مجلة الهداية في نظر البعض محاولة لمنافسة مجلة المنار التي كان يصدرها رشيد رضا[٣]، وذلك لما كان بين جاويش ورضا من اختلاف في الرؤى في الموقف من الدولة العثمانية ومن الحركة العربية في الشام، وقد احتوت المجلة على عدد من الأبواب الثابتة تتناول شئون التعليم والإصلاح الاجتماعي، وأحوال العالم الإسلامي، وبابًا في اللغة والأدب، لكن أهم أبواب المجلة كان باب التفسير الذي أسماه «أسرار القرآن»، والذي حرص فيه جاويش أن يقوم بتفسير القرآن على نحو عصري سلفي على النحو الذي بدأه الشيخ محمد عبده واستمع إليه جاويش في الرواق العباسي سنة (١٣١٩هـ/١٩٠١م)، وهو

(١) مجلة الهداية، الجزء الأول، السنة الأولى، المحرم ١٣٢٨ هـ، فبراير ١٩١٠م، ص ٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢.

(٣) أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، مرجع سابق، ص ١١٤.

في كثير من عروضه للإسلام والقرآن يستشهد به ويردد اسمه مسبوقة بعبارة وقال «أستاذنا»[١]، ويؤكد على نفس المعنى حسن الشيخة الذي عاصر صدور المجلة وداوم على قراءة باب التفسير فيها قائلاً: «كنا (في دار العلوم) نتلقى درسًا أسبوعيًّا في تفسير القرآن، ولكنه كان على الطريقة المدونة في كتب التفاسير، ولما ظهرت مجلة الهداية رأينا بها طريقة جديدة في التفسير، تساءلنا وقتئذ عن هذه الطريقة الحديثة الجذابة الخلابة، وكيف استطاع الشيخ أن يجعلها طريقته في هذا الركن الأكبر من أركان الدين الإسلامي، فكان جواب أساتذتنا بالمدرسة أن سبب استطاعته هذه هو أنه تأثر بالأستاذ الإمام في تفسير القرآن، وسار على طريقته في أن القرآن الكريم هو الأساس والغراس لمعرفة أسرار الحياة كلها وأنه الأصل الذي يرجع إليه في كل إصلاح»[٢].

ففي تمهيده لهذا الباب من «أسرار القرآن» يقول: «جاء القرآن الكريم بلسان عربي مبين فلم تكن معانيه ومقاصده لتخفى على العرب الذين نزل بلغتهم سوى ما سماه الله تعالى المتشابه الذي أريدت منه مَرامٍ ومقاصد شريفة سامية، ولقد وضع في سبيل بيان كتاب الله الكريم كثير من المؤلفات نحا أصحابها فيها مناحي متغايرة، فمنهم المُعْتَسِفُ المُتكلِّف، ومنهم الراجع في بيان كثير من أبواب القرآن إلى الموضوعات من الإسرائيليات وغيرها، ومنهم المنهمك في

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٢) حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، مرجع سابق، ص ٦٤ – ٦٥.

حمل كتاب الله على ما علمه أو علمه من المسائل الفلسفية، ومنهم من حملوه فوق طاقته وأثقلوه بالنكت البلاغية والدقائق اللسانية التي وضعها علماء النحو حتى صوروا كتاب الله كأنه رموز أو ألغاز عميت على الناس فلا سبيل لهم إلى إدراكها وتعرف أسرارها إلا بقراءة ما تدفقت به بطون التفاسير من الأقوال والتشكيكات والمذاهب والتخريجات، ولذا صار من المتعسر أن يجدوا شرحًا موجزًا سهل المنال يرجعون إليه، هنالك أصبح الناس يستظهرون ألفاظ الكتاب الكريم أو يصونون المصاحف في خزائنهم دون الفقه منها ولا انتفاع بكنوزها، والله جلت قدرته ما أنزل القرآن إلا ليكون هدى للناس وبينات يرجعون إليها في سبيل التماس أسباب السعادة الدنيوية والأخروية، لذلك عزمت مستعينًا بمن بيده مقاليد الأمور على أن آتي على تفسير ما استعجم على كثير من المفسرين معتمدًا في ذلك على ما يفيده القرآن نفسه أو ما تفسره به السنة الصحيحة كما أنني سآخذ من كلام جملة من أَجِلَّة العلماء ما يزيد الكتاب الكريم إيضاحًا وبيانًا مجتنبًا كل ما يربك الأذهان ويبعد آيات الله عن الأفهام، وقلما تكلمت فيما له علاقة بقواعد العربية ومسائلها فإن كتاب الله أظهر من أن يتوقف فهمه على المماحكات الصناعية والتصاريف الإعرابية»[1].

(١) مجلة الهداية، مرجع سابق، ص ٦ – ٧.

ومن بين أعمال جاويش المهمة في الفكر الإسلامي عدد من المحاضرات منها محاضرته في المؤتمر المصري المنعقد في (ربيع الآخر- جمادى الأولى ١٣٢٩هـ/ إبريل – مايو ١٩١١م) بعنوان «وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة الغراء» أشار فيها إلى وجوب الاجتهاد بما يلائم ظرفي الزمان والمكان ويفيد درك المصالح في إطار ما لايخالف ما أمر الله به ورسوله، ووجوب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية التي قررها نفر من أهل العلم دون رعاية المصلحة العامة وأشار إلى نهي رسول الله ﷺ عن قطع اليد في حالة الحرب استثناء وعدم إنفاذ عمر حد القطع عام المجاعة وغير ذلك من سوابق التشريع الإسلامي، ثم عرض أمثلة للاجتهادات المطلوبة في زمانه، ومنها أن عدة المطلقة يؤخذ في تحديدها بقولها، والواجب عند الريبة الإحالة إلى طبيبة مختصة، ومنها وجوب التيسير في التطبيق بسبب إعسار الزوج، ومنها الطلاق ثلاثًا ووجوب وقوعه طلقة واحدة(١). ومن أمثلة تلك المحاضرات أيضًا، محاضرته في نادي دار العلوم حول الربا(٢)، والتي على الرغم مما قد يبدو في المحصلة النهائية لها من أن الشيخ جاويش لم يقل في النهاية بحل الربا كما كان يتمنى البعض، فإنه تمتع فيها بنظر ثاقب في تحليله، إن كان على المستوى الاجتماعي وإن على

---

(١) طارق البشري، الجماعة الوطنية العزلة والاندماج، مرجع سابق، ص ٥٥ – ٥٦، وطالع بعض ما قاله جاويش في المحاضرة بشكل أكثر تفصيلاً في: حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، مرجع سابق، ص ٦٨ – ٧٢، والمحاضرة تكشف عن علم معمق للشيخ جاويش بأصول الفقه، ومقاصد الشريعة.

(٢) طالع نص المحاضرة في: جمال البنا، الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية، القاهرة، دار الفكر الإسلامي، ١٩٨٦م، ص ١٠ – ١٧.

المستوى الشرعي، كما أنه قدم الحل الذي يراه مناسبًا للمعضلة المطروحة (وهي معضلة إيجاد بديل للبنوك الأجنبية وآثارها التخريبية على الاقتصاد الوطني)، كما يمكن أن نكتشف في دراسته تلك عقلية فقهية أصولية تمتلك فقه الشرع وفقه الواقع، وأريحية في تقديم الحل المتناسب مع الشرع وتبريره، أما في الأسلوب فكأننا حينما نقرأ محاضراته تلك إنما نقرأ للإمام محمد عبده من قبله أو للشيخ محمد الغزالي من بعده فقهًا وبصيرة وجزالة في الأسلوب وروحًا ناقدة جريئة فيما تراه صوابًا وحقًّا.

جاويش يجلو دين الفطرة

كان مما آمن به جاويش وعمل على تحقيقه في كتاباته الإسلامية أن من الحق «على كل مسلم نَوَّر في قلبه الإيمان. أن يفند ما يأتي به الطاعنون فيه (أي في الدين الإسلامي) من الشبه التي تغوي ضعاف اليقين فقد طمى سيلها وسكت عن تفنيدها الذين من أخص خصائصهم أن يفندوها حتى كثر سواد الطاعنين، من القساوسة والرّهّابين، ولم يعد يعوز السفيه إلا أن يؤتى دواة وقلمًا[١] ومن ثم فقد جعل من أغراض «الهداية» «رد تلك الشبه وإدحاض ما يكيلونه من الأكاذيب، وبيان أن الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها».[٢] وكما يبدو من قول

---

(١) حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، مرجع سابق، ص ٢ – ٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣.

الشيخ جاويش، فقد كانت إثارة الشبهات والطعن في الإسلام والقرآن سمة من سمات عصر الهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي، وفي هذا الصدد إما أن يتحول الرد إلى ما يشبه المناظرة كما شهدنا في كتاب الإمام محمد عبده «الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية» والذي كان في الرد على فرح أنطون وهانوتو ونشره رشيد رضا بعد وفاة أستاذه، أو أن يكون الكتاب تبيانًا وجلاءً لما خفي على أهل العصر من المسلمين – وغيرهم – من خصائص الإسلام، وذلك في معرض الرد على تهمة أو فرية أو شبهة، ومن باب ذلك كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين أو «الإسلام دين المدنية» لمحمد فريد وجدي، أو «الإسلام دين الفطرة» لشيخنا عبد العزيز جاويش والذي عني فيه بوضع عنوان شامل لتبيانه وجلائه لمفردات خصائص الإسلام التي تأتي دائمًا في معرض التشكيك والتجريح والتعريض بالإسلام والقرآن والنبي والرسالة كما سيأتي بيانه. وكان جاويش قد ألف كتابه «الإسلام دين الفطرة» هذا وهو في بلاد الإنجليز يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة أكسفورد، وقد اشتق اسمه من قول أحد طلابه في المحاورة التي أثبتها في أول كتابه: «يخيل إلي أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة في شيء»[1]، ويشير حسن الشيخة أن الكتاب «كان هو المؤلَّف الذي قدمه الشيخ إلى مؤتمر المستشرقين في مدينة الجزائر، لما دعته الحكومة المصرية وهو في إنجلترا ليمثلها في

---

(١) عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة والحرية، مرجع سابق، ص ٥٢.

هذا المؤتمر، سنة ١٩٠٥»[١]، لكن الكتاب لم يطبع في مصر إلا بعد وفاة الشيخ، إذ طبعه ابنه «ناصر جاويش» طبعة أولى ضمن سلسلة كتب الهلال عام (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، ثم أعادت الزهراء للإعلام العربي طبعه عام (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) بمقدمة جديدة للأستاذ فتحي رضوان، والكتاب كما يصفه حسن الشيخة بأن كله فلسفة علمية تكشف عن وجوه كثيرة من مرامي الدين الإسلامي التي يتم بها إصلاح العقيدة، ومعرفة مرامي الإصلاح من أسرار هذا الدين، وقد ألفه الشيخ جاويش على طريقة الإمام محمد عبده في البحث الديني، وقد استشهد فيه كثيرًا بآرائه[٢].

ينقسم كتاب الإسلام دين الفطرة إلى قسمين: القسم الأول منه يتناول بعض السمات المهمة في الإسلام التي تجعل منه دينًا يتوافق مع الفطرة، أما القسم الثاني فيتناول أثر القرآن في تحرير الفكر البشري. والكتاب يبدو لمن يقرؤه وكأنه كتابان أُدمِجَا سويًّا حتى أنه اشتهر لدى البعض باسم «الإسلام دين الفطرة والحرية»، وما يدعونا لهذا القول هو اختلاف طريقة تناول الموضوعين الأساسيين للكتاب: الفطرة والحرية، ففي القسم الأول من الكتاب، يتناول جاويش الموضوع على طريقة من يرصع قطعًا من الفسيفساء ليصنع منها لوحة متكاملة من قطع صغيرة من الزجاج الملون، أما القسم الثاني الذي يتناول أثر القرآن في تحرير

(١) وهو ما أكده كل من حسن الشيخة في كتابه «عبد العزيز جاويش»، مرجع سابق، ص ٦٤، وطاهر الطناحي في مقاله بمنبر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، مرجع سابق، ص ٥٩.

الفكر البشري، فهو موضوع متكامل يتكون من نقاط متسلسلة مرتبة، لكن قد ينظر لهذا القسم الثاني كحلقة متممة لجزئيات القسم الأول في إتمامها لمعنى موافقة الإسلام للفطرة بمقتضى تحرير كتابه للعقل البشري، وأن مجافاتها للقسم الأول تبدو فقط من استطالة البحث فيها بما لا يعهد في جزئيات القسم الأول، ويميل الباحث لهذا الرأي.

يتناول القسم الأول من الكتاب قضايا أساسية هي:

١- **الفطرة والتوحيد**: مزج جاويش وهو يتناول هذه القضية بين العقل والنقل، وأوضح كيف أن الفطرة السليمة تقتضي التوحيد، أو التوحيد هو مقتضى الفطرة والمنطق السليم، فكل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدًا قد نظم هذا العالم ودبره، لا يمكن أن يشابه الممكنات في شيء من صفاتها، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز، ولا يستطاع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول، وبين كيف أن أفكار وقضايا السواد الأعظم من العامة إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئًا من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت الأديان الوثنية في كل أمة، وأن العامة يتعشقون سماع الخزعبلات وسير من لا قيمة لهم في سوق الفضائل والمكرمات، وأن عقول المسلمين قد أصابها من المس ما أصاب عامة غيرهم، وانتهى

إلى أن السبيل الذي جاء به الشرع الإسلامي في الإيمان بالله .. هو السبيل التي يصل إليها الإنسان بفطرته متى خلي وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع إلى غير تلك السبيل[١].

٢- **النبوة والمعجزات والفطرة:** ويتناول كيف أن معجزة النبي الخاتم جاءت لتتواءم مع النضوج الفطري للبشرية، إذ ظهر النبي في أمة أمية دينها الوثنية فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا، فمنهم من آمن به ومنهم من صَدَّ عنه، وكان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول ﷺ أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة، فكان يرجع بهم إلى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل، إذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الأرض ونحوه من المعجزات، وقد جاء القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وألا يشطوا في مطالبهم وألا يعتسفوا في اقتراحاتهم، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة إلى ما يريدون من الغايات، ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التي جاء بها ذلك النبي حجة بالغة بين يديه نورًا مبينًا ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم إلى نزول إحدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم[٢].

---

(١) عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة والحرية، مرجع سابق، ص ٥٥ – ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٦١ – ٦٥.

٣- **القرآن والفطرة البشرية**: وتناول فيه سوء التأويل المناقض للفطرة الذي وقع فيه بعض مفسري القرآن حيث «نزل القرآن الكريم ليؤدي ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الإلهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة، وما زال القرآن إمامًا يُتْبَع وفيصلاً يَحْكم في النوازل، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه، فاستعملوا آيات من القرآن في غير ما وضعت له، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد، بل تراهم تطرقوا واجترءوا على القرآن ومُنَزِّله، فأَوَّلوا القرآن طبقًا لأهوائهم وأخرجوا كثيرًا من آياته عن معانيها التي تفهم من لغته وأسلوبه وسياقه»[1]، وعرض بعد ذلك لأربعة نماذج من ذلك التأويل الفاسد وناقشها، واعتبر أن أصحاب التأويل الفاسد ذلك «افتأتوا على النبي وصالح أتباعه، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب، فتجلوا للقرآن أعداء في ثياب أصدقاء يلزمونه بما ينكره ويحملونه ما لا يحتمله ويفسرونه طبقًا لأهوائهم، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه عن الغرض الذي أنزل لأجله»[2]، وعرض في ذلك إلى صنفين:

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

- أولهم من قال: «إن القرآن لم يترك فنًّا من الفنون العلمية إلا أتى بشيء من مسائله، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرّا، وادعوا أنه أتى من كل فن بطرف، فحملوا من التأويل ما ينبو عنه، ثم ذيلوا القرآن بأشياء أملاها عليهم جهلهم، ووسوست لهم بها شياطينهم فشوهوه وألبسوه غير لباسه، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين»[١].

- ثانيهم أولئك الذين كبر عليهم «القول بأن القرآن كتاب يفهمه كل من يعرف لسانه، فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن، ألم تر إلى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين: أحدهما باطني والآخر ظاهري، وادعوا أن الرسول الذي أتى به لم يصل إلى إدراك ما فيه من المعاني الباطنية، مع أنه يقول ما معناه: أنا أعلم بكتاب الله تعالى، ولو علمت بأعلم مني لرحلت إليه، أو كما قال»[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٧.

٤- **الإسلام والسيف**: وفي هذا الجزء يناقش ما لهج به معظم الأوروبيين، وضعاف العقول من المسلمين بأن الإسلام لم ينتشر ولم ترسخ أقدامه إلا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل، وتُذَلِّل بين يديه العظماء، وتلجئ المستضعفين إلى اعتناقه حقنًا لدمائهم، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم، وتتبع سيرة النبي وغزواته وبين أن ما شرعه الله للمسلمين من القتال وأنه لا يخالف في شيء ما يسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس حيث نهى الله المسلمين عن الاعتداء، وينتهي إلى أن البصير بالتاريخ، يشهد معنا أن المصطفى ﷺ لم يَسلّ في حياته سيفًا لإرغام أحد من الناس على الدخول في دينه، ولكن الهدى هدى الله يهدي به من يشاء[1].

٥- **صلاحية الإسلام ومسوغاته**: وفي هذا الجزء من الكتاب يدلل على أن الإسلام دين الفطرة البشرية التي فطر الناس عليها في كل زمان ومكان، صالحًا لكل أمة وكل جيل، مصلحًا من استمسك بسببه المتين، وعمل بكتابه المبين، رادًّا بذلك على من يقولون بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبي عربي، لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى إلا قليلاً جدًّا، كما لم يعلم ما سيتوالى بعده من الأمم المختلفة، والأحوال المتباينة، والعصور التي تكاد تكون متباينة في مقتضياتها ومطالبها وأحكامها،

(١) المرجع السابق، ص ٧٩-٨٣.

ثم شرع يشرح ما عده من قواعد الإسلام الأصلية الثابتة والتي تقدر بها الأحكام حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة، في الأزمان المختلفة، بين الأمم المختلفة[١]:

الأصل الأول: الاجتهاد ويعني به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل إليه الأفهام السليمة.

الأصل الثاني: القصد في الأعمال، وإقامة ما لا يشق على النفوس من أعمال.

الأصل الثالث: أنه لا ضرر ولا ضرار.

الأصل الرابع: وهو سد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات.

الأصل الخامس: إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به.

الأصل السادس: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض.

الأصل السابع: وجوب امتثال ما قاله النبي ﷺ شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

---

(١) مرة أخرى تكشف تلك الأصول عن عقلية و علم بالأصول والمقاصد، عقلية فقيه حقيقي، فقهًا بمعناه الواسع والضيق معًا.

الأصل الثامن: المساواة بين المسلمين في الأحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد.

الأصل التاسع: ألا تزر وازرة وزر أخرى.

الأصل العاشر: أن جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الإمام أو من ينصبه من القضاة.

الأصل الحادي عشر: تقدير كثير من الأحكام حسبما تعورف عليه بين الناس.

وأضاف إلى مسوغات صلاحيات الإسلام بعضًا من المعاني منها:

انتقاده خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذي حض عليه القرآن غير مرة إذ قالوا إن التوكل هو تفويض الأمر إلى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة، ثم ذهب يعدد مظاهر ذلك ذاكرًا أن ذلك يعد سببًا من أسباب تنديد الأمم الغربية بالشرقيين والإسلام والمسلمين بسبب ما جر عليهم ذلك من ضعف وانحلال العقدة والفشل، وبين أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة وبرهان واهن كما بين أن الله سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات وخلق ما بينهما من لحمة السببية، فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء، بل إنه نفس التوكل ثم انثنى يدلل على ذلك بالقرآن والحديث.

أحكام الشرع ومطاعن الجاهلين: وقد تناول في هذا الجزء من القسم الأول من الكتاب قضيتين بالشرح والإبانة:

- **قضية الرق**: حيث استعرض موقف الأديان السابقة والأمم الحاضرة من الرق، ثم بين موقف الإسلام في تضييق مداخل الرق وقصرها على الحروب الشرعية، وتوسيعه المخارج بجعله عتق الرقاب كفارة للذنوب وقربى إلى الله، كما استنكر فعل بعض المسلمين في أزمان سابقة أو أماكن معينة مبينًا أنها ليست حجة على الدين.

- **قضايا المرأة**: وفي هذا الجزء تناول عددًا من الإشكالات التي تثار حول قضايا المرأة في الإسلام، فتناول:

- المساواة: مبينًا أن الإسلام ساوى بين الذُّكْرَانِ والإناث في التكاليف الشرعية والحقوق المدنية ومنها حق المرأة في أن تُزوِّج أو تُطلِّقَ نفسها، وأن القوامة لا تعني فضل البدوي الذي عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التي وصلت الليالي بالأيام طلبًا للعلم.
- تعدد الزوجات: مبينًا أن الأصل هو زواج الرجل بواحدة بِنَصِّ القرآن على شرط العدل، وصعوبته مع الحرص، وأن الاستثناء هو التعدد للضرورات، وأنه بمثالبه في تلك الحالات أفضل من إتيان الفاحشة.

- زوجات النبي: مبينًا أن أكثر ما ذكره المسلمون حول تلك القضية غير مقنع لغير المسلمين الذين نددوا بالنبي ﷺ ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم، اللهم إلا قليلاً ممن أيده الله بروح منه، ثم ذكر ما رآه جلاءً لهذه النقطة وأنه لو كان سلطان الهوى على قلب المصطفى لاتخذ من الزوجات من شاء وهو في مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية، لا شرع يحول بينه وبين بغيته، ولا عادة تمنعه مراعاتها من قضاء مآربه، لا سيما وقد كان مرغوبًا فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم أخلاقه، وجميل خصاله، وتناول كقضية فرعية زواجه بزينب امرأة مولاه زيد، واستشهد في القضية بقول أستاذه الشيخ محمد عبده.

- الطلاق: مبينًا أن الإسلام جرى فيه على مقتضى أصل الفطرة وأنه أباح الطلاق لأنه تدعو إليه الضرورة، أما حيث لا ضرورة فسماه أبغض الحلال، وأنه كما أعطى فيه الحق للرجل، أعطاه للمرأة، وأن من أكبر الدلائل لبغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية لأنه ربما يكون التطليق لثورة غضب ثارت، «فرجا الشرع أن يرجع إليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى

إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأي ضعيف العزم»[١].

القسم الثاني من الكتاب

وقد تناول فيه قضية واحدة ومسائلها المتفرعة منها بالبحث المستفيض وهي: أثر القرآن في تحرير الفكر البشري، حيث تناول في بدايته فيما يقرب من ٢٠ صفحة حرية الفكر قبل الإسلام، وتاريخ النضال البشري في سبيل تحرير الفكر، وفي هذا القسم من الكتاب يظهر بجلاء أثر الدراسة الغربية على معلوماته ومعارفه التي تعرض لها في معرض شروحه للقضايا المتعلقة بحرية العقل والفكر والموقف الديني من العلم بما لا يتناقض مع فكره الإسلامي، ثم قدم بعد ذلك أدلته على قضيته مستهلاً بقولٍ جامع في «أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل، وإذا حاج فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلي العقل، وإذا رضي فعن أولي العقل»[١].

القرآن والمعجزات: ثم تعرض لموقف القرآن من المعجزات والخوارق، مناقشًا «هل يرى فيها القرآن ما رأته الأديان الأخرى من اعتبارها أسسًا للعقائد الدينية وآيات قاطعة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والأنبياء في إفحام المتحدين

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

لهم من الأمم الذين يرسلون إليها؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها – مع دعوته إلى التعقل وحضه على النظر والتدبر – ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج؟»[١].

الإكراه في الدين والردة عنه: ثم ناقش قضية الإكراه في الدين ومسألة الردة وهل لها حدٌّ شرعي، مبينًا أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، منها البرهان العقلي، ثم بين أن الردة مالم تلتبس بمحاربة المسلمين وخيانتهم، «فلا حد فيها فالقرآن الكريم لم ينص في آية ما على قتل المرتدين من دين الإسلام إلى دين آخر وأما الأحاديث فليس منها شيء فيما نرى جاء نصًّا في القول بالقتل ولا في بيان حدود الردة وكنهها والتعريف بها»[٢]، ويُنْهي الحديث حول تلك النقطة قائلاً: «الله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه، يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء/ ١٦٥] فإن الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين، إذن فلا تكليف إلا حيث البلاغ المبين، فإذا ابتُلِيَ العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسلمين، فكيف يؤاخذون إذا ضلت أحلامهم بعد أن فقدوا

(١) المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

أركان الإسلام، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرءوا الشبهات، ويهدوا الهائمين في أودية الضلالات»[١].

الدين والعلم بين الجمود والاستلاب: ثم تناول بالنقد موقف كلٍّ من الجامدين والمتغربين قائلاً: نحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية، وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات، فكيف لنا مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والإرشاد أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم، ممن لم يستوعبوا أصول الدين، ولم يهتدوا إلى صواب اليقين، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات، ثم يقول: «كثيرًا ما نسمع من خطبائنا العصريين، ونقرأ في صحفنا ومجلاتنا الحديثة، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين في حرب قائمة دائمة، لا يستقر لها صلح ولا تتخللها مهادنة، يلهج بذلك أشباه المحصلين، وتلاميذ آثار الغربيين، ممن يطيرون لكل هيعة، ويفتنون بكل بدعة، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير ثم انتقد مقولاتهم: زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف في سبيل الرقي العلمي، وأنه إذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره، كذلكم يقولون أيضًا فيما يرجفون إنه لابد من فصل الدولة عن الدين وأن حرية الفكر الإنساني تستلزم انقلابه ماديًّا طليقًا لا يتقيد بشيء من قيود الأديان.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٨- ٢٣٩.

القرآن والعلوم العقلية والكونية: وبين أنه بالقرآن بدأ عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود، فوطئت بذلك الأكناف للفلسفة الإغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت، فهي بأهل القرآن عاشت، وفي أرض القرآن نمت، وفي ظل القرآن عَزَّت وسادت. ثم تناول كيف تطور هذا الأمر أو تدهور في تاريخ أمة الإسلام مقارنة بتاريخ الأمم الأخرى، كما تناول تعريف العلم ومادته، ومن ثم موقف الغرب منه قبل عصر النهضة، وكذا موقف القرآن منه مقررًا في ذلك أن موقف القرآن الكريم تجاه العلم في العصر الحديث، هو عينه موقفه إزاء العلم في القرون الوسطى إلى عهد التجديد الغربي، فهو كما كان لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير، والأبصار إلى الاعتبار، والآذان إلى الاستماع، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار الكائنات، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها، والتنقيب عن دقائقها، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأن الله يخلق ما لا يعلمون، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة، كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد في عقائدهم، واتباع الظن في أحكامهم، والميل مع الأهواء في تصرفاتهم، على أنهم مع هذا كله يجدون في كثير من آي القرآن ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول إليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤١- ٢٧٦.

ونحن نعيد نشر هذا الكتاب الهام آثرنا أن نبقي مقدمة الأستاذ فتحي رضوان نظرًا لأهميتها في التعريف بعبد العزيز جاويش وكتابه؛ حيث يعد فتحي رضوان قامة وطنية مؤثرة، وواحدًا من أهم المنتسبين للحزب الوطني القديم بزعامة مصطفى كامل، كما كان من المواكبين لعبد العزيز جاويش.



تأليف

عبد العزيز جاويش

قدم إلى مؤتمر المستشرقين في الجزائر عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، وطُبِع عام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م

مقدمة

بقلم الأستاذ/ فتحي رضوان

عبد العزيز جاويش

عرفت الشيخ عبد العزيز جاويش لأول مرة في مدينة بني سويف، سنة ١٩٢٩ وكان مديرها، أي محافظها، قد دعاه – فيمن دعا – لإلقاء محاضرة في قاعة المحاضرات بدار بلديتها. وكنت قد سمعت اسم الشيخ منذ بدأت أدرك حقائق السياسة، وما يدور في الوطن من أمور وأحداث فطبعت له في نفسي صورة رجل كل ما فيه عنيف، صوته ومَشيَتُه، وأسلوبه في الحديث، ومنهجه في التفكير، وطريقته في معالجة الأمور ومعاملة الناس. فلما قابلته في بني سويف يومذاك غير بعيد من دار البلدية ومعه الشيخ علي الجارم، راعني أنني رأيت إنسانًا خافِتَ الصوت، دائِمَ الابتسام، مأنوسَ الطَّلْعَة، لطيفَ الإشارة، قليلَ الكلام، وقورًا، تفيض آياتُ الوداعة من قَسَمَات وجهه، ولَفَتَات ذهنه، ونَظَرَات عينه، ثم حانت ساعة المحاضرة، فأخذ مكانه في الصدر، ثم شرع يتكلم فإذا هو على هدوئه لم يفارقه، وكنت أحسب أنه سينطلق، وأن صوته سينحدر من صدره هادرًا، وأن موقف الخطابة سيخرجه من الوداعة إلى العنف، ومن الرقة إلى الشدة..

والحقّ أن عبد العزيز جاويش رجل فكر، خُلِقَ ليعلّم الناس، ويأخذ بأيديهم، في رفق الأبوَّة، وحنوّ المرشدين، وليناقش الصعب من مشكلات العلم، في أَنَاة[١] وصَبْر، وسيلته الحُجَّة، وعُدَّته الدراسة وهدفه الإقناع لا الغلبة، وكَسْب عقول الناس، وتألُّف قلوبهم لا إخافتهم أو تنفيرهم. ولكنه نزل – كما سنرى– إلى حلبة السياسة، فلبس دروعها وامتشق[٢] سيوفها، واصطنع أساليبها وخاض معامعها[٣]، وقد اختار أن يكون قائدًا من قوادها، في فترة من الزمن اشتد فيها أُوار [٤] النزاع السياسي في مصر، وتعددت معسكراته، وأصبحت معاركه معارك حياة أو موت. وكان الاحتلال البريطاني أكبر الأطراف، وأشدها قوة، وأعظمها مرانًا على القتال، وأوفرها مالاً، وأوسعها حيلة.

وكانت «السراي» الملكية وصاحبها الخديو «عباس حلمي» طرفًا ثانيًا في هذا الصراع وكان بدوره داهية من دهاة السياسة، زاده صبرًا على القتال، واحتمالاً لشدائده – شبابه، فقد كان دون العشرين حينما ولي سدة الملك، وطموحه، فقد كان أضيق ما يكون صدرًا بوجود الاحتلال البريطاني الذي يشاركه في السلطان، وكان ماضي جده محمد علي يخلب لبه، ويلقي في روعه، أنه قادر على أن يجدد مجده الذي اندثر، وسلطانه الذي باد[٥]...

---

(١) أناة: انتظار.

(٢) امتشق السيف: استله.

(٣) المعامع: الحروب والفتن.

(٤) أوار: شدة

(٥) باد: هلك وانقرض.

أما الطرف الثالث فقد كان الشعب، الذي صدمته كارثة الاحتلال البريطاني بعد فشل الثورة العرابية، بعد فترة قصيرة من بدايتها لم تزد على عام. ولم يكن الاحتلال البريطاني مجرد غازٍ اقتحم على المصريين دارهم، بل كان نقلة هائلة من مجتمع شرقي، كل موارده الثقافية عربي إسلامي إلى مجتمع غربي حديث اقتصر احتكاكه على أبناء الشرق القريب، وأبناء الغرب القريب، أهل الشام، وأهل المغرب. فقد انقضت فترة الاحتلال الفرنسي سريعًا، ونسيت أحداثها، وطمست آثارها، ولم يعد يتذكرها أحد، وهي لم تُخْرِج أحدًا عن منهجه القديم، أو أسلوب معاشه المألوف، أو نطاق تفكيره الموروث.

كان الاحتلال البريطاني حكمًا أجنبيًّا، وصورة جديدة للإدارة، ومجموعة غير مألوفة من الأفكار، والمعتقدات، والوسائل، في شئون الدنيا، وعالم العواطف والوجدان. لذلك انكمش الشعب وانطوى على نفسه فترة غير قليلة بعد أن دخلت جيوش الاحتلال البريطاني القاهرة في ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ بقيادة السير ولسلي، بعد أن ضرب الأميرال سيمور بمدافعه في ١١ من يولية من نفس السنة، مدينة الإِسكندرية..

ولكن الشعب، بعد أن زالت الصدمة، بدأ يعيد تنظيم صفوفه ويسترد ثقته بنفسه، ويستأنف هجومه، وكان القدر قد أعاد عبد العزيز جاويش ليكتمل شبابه في الوقت الذي عاد فيه الشعب إلى ميدان القتال، فقد وُلِدَ في بنغازي

بليبيا سنة ١٨٧٦م لتاجر من تجار هذا القطر العربي الشقيق، هو الشيخ خليل حسن جاويش، ولما كان دور عبد العزيز في مصر لا في ليبيا، فقد زَيَّن هذا القدر لوالده، أن يهاجر إليها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واختار له متجرًا في سوق المغاربة بالإسكندرية، ولم يلبث أن أصبح أكبر تجار الواردات الليبية إلى مصر، ولما بلغ عبد العزيز سن الرابعة عشرة، بدأ يتلقى علومه في معهد جامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية، وكان التعليم فيه على نسق ونظام التعليم في الأزهر، فلما أتم دراسته الأولية، سافر إلى القاهرة في سنة ١٨٨٩م، ليجاور في الأزهر، ولكنه سمع بأن مدرسة دار العلوم تُجري امتحانًا لطلبة العلم، الراغبين في اللحاق بها. ولما كانت دار العلوم التي أنشأها علي مبارك سنة ١٨٧١م، تفسح لمن يُتمّون العلم فيها فرصًا للعمل أوسع، وتهيّئ لتلاميذها أسلوبًا للدرس والبحث، أدنى إلى ذوق العصر، وأقل اضطرابًا من منهج الدراسة في الأزهر، الذي بقي على حاله قرونًا طويلة، يأبى أن يتطور أو يلين، فقد عقد عبد العزيز العزم على دخول هذا الامتحان، ولم يثنه عن هذا العزم ما اتصل بسمعه من أنه امتحان شاق، تكاد تكون الغاية منه تعجيز الممتحنين، لا الكشف عن قدراتهم، وقياس استعدادهم، وأنه يشمل الفقه والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق، والنحو والصرف، والمعاني والبيان والإنشاء والتاريخ. وكانت لجنة الامتحان تضم عشرة أعضاء، وقد استطاع أن ينجح في هذا الامتحان العسير، سبعة عشر طالبًا كان منهم عبد العزيز جاويش، وزميله حسين منصور، الذي أصبح أستاذًا في مدرسة القضاء الشرعي. وقد وصف الشاعر محمد عبد المطلب، الشيخ عبد العزيز في

هذه المرحلة فقال: «لم يمض نحو شهر على هذا الفتى حتى أصبح روح إخوانه، وريحانهم وقرة كل عين، وأنس كل نفس، وقرارة كل فضيلة وخلق كريم. ويزيده عظمة في أنفسهم أنه كان جامعًا لكثير من الكفايات التي تعدها كالصفات المتقابلة، فبينما هو معدود بيننا من النابغين في العلوم الكونية كالطبيعة والفلك، إذ نراه من خيرة الأكفاء في علوم الدين كلها... ومع هذه الكفايات الكثيرة كان كوكب إخوانه في الناحية الأدبية، فهو شاعر الفرقة المطبوع، وكاتبها الضليع، ومن عادة المدرسة أن يكون لكل فرقة زعيم في الأدب له الصدارة عنها في مواقف القول ومحافل البيان، فكان الأستاذ عبد العزيز زعيم إخوانه في هذا الميدان».

وحسبك أن تقرأ هذه الشهادة وأن تتأملها، حتى تعرف من أي طراز كان عبد العزيز جاويش، منذ مطالع شبابه، وأية مواهب انتظمتها شخصيته، وأية منازع اتجهت إليها مطامحه، ومزاياه وصفاته هذه تفتح أمامه سبلاً متعارضة، فهو إما أن يكون من أهل الفكر الذين ينأون عن مواطن الصراع، ويلتمسون الهدوء، والدعة، ليطيلوا التأمل، وليخرجوا للناس ثمار أفكار نضجت بعد رَوِيَّة وتَثَبُّت، وإما أن يكون من رجال الحياة العامة، بكل صخبها، واحتدام الخصومات فيها، وتوالي الوقائع في ميدانها والتعرض لأذى الناس وعسف الحكام، ومعاناة الهبوط بعد الصعود، والإِدبار بعد الإِقبال، والسجن والمنفى بعد الصدارة والنفوذ.

وقد مر عبد العزيز جاويش بالدورين معًا، وأوفى في كل منهما على الغاية. بدأ بدور المربي والمفكر، إذ لم يكد يتخرج في دار العلوم في سنة ١٨٩٧ حتى عُيِّنَ

مدرسًا للغة العربية بمدرسة الزراعة، ولكن عمله بها لم يَطُلْ، إذ وقع اختيار وزارة المعارف عليه ليكون مبعوثها إلى جامعة «برودود» بلندن؛ حيث درس فيها الآداب والتربية، وبعد أربع سنوات عاد لِيُعَيَّن في سنة ١٩٠١ مفتشًا للكتاتيب في الوزارة، وقد أصدر في هذه الفترة كتابين أولهما «غنية المؤدبين» وثانيهما «مرشد المترجم» وقد دل صدور هذين الكتابين عنه، عقب عودته من لندن، وقبل أن يطول عهده بالتعليم والتدريس، على مدى امتلاء نفسه بالرغبة في أن يحدث تغييرًا في وطنه، وعلى نفاد صبره من عجز وسائل التربية في مدارس مصر، ولاشك في أن تجربته في الأزهر، وفي دار العلوم، أكدت له أن التعليم لو ترك على حاله في بلادنا، لكان سَيَّرها نحو الأمام، زحفًا على البطون، على طريق ملتوية، تمتلئ بالفجوات والعقبات.

وقد شاء له الحظ أن تتنوع صلاته بمعاهد التعليم في بلاده فبعد أن درس في مسجد الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية لحق بالأزهر – كما مرَّ بنا – ثم انتقل إلى دار العلوم، ثم دَرَّس في مدرسة الزراعة، ثم أصبح مفتشًا للكتاتيب .. ثم عين مدرسًا في مدرسة للمعلمين، بدلاً من الأستاذ حسن توفيق الذي اختير ليدرس اللغة العربية في جامعة كمبردج، ولما كانت جامعة كمبردج وجامعة أكسفورد لا تكفّان عن المنافسة، كان لابد للثانية منهما أن تختار أستاذًا للغة العربية فيها، كما فعلت أولاهما، ووقع اختيارها على الشيخ عبد العزيز، بتوصية من المستشرق مرجليوث، الذي لابد أن يكون قد عرف الشيخ حينما كان يطلب العلم في جامعة «برودود».

وقد كانت هذه الحلقة في حياة الشيخ عبد العزيز، مع سابقاتها دالة على أن القدر يأبى إلا أن يعدّه للدور الذي لعبه فيما بعد. فبعد دراسته الإسلامية الواسعة أبى القدر إلا أن يتيح له فرصة واسعة كذلك «يتصل بفضلها بالثقافة الغربية، ويأخذ عن مناهلها مباشرة، ثم ليرى بنفسه رأي العين صور الحياة السياسية في بريطانيا، موطن الديموقراطية البرلمانية، بكل خصائصها المميزة لها، من ملك يملك ولا يحكم، وأحزاب تلعب دورًا خطيرًا وحاسمًا في الحياة السياسية، وصحافة يحسب لها كل الناس ألف حساب وندوات للمناقشة الحرة، ودور غنية تطبع الكتب الحديثة وتحقق وتنشر الكتب القديمة، وهذا كله في إطار غريب من المحافظة على الماضي، والتشبث بجوهره مع تطور مستمر، ومسايرة لا تنسى، لما تأتي به الأيام من أفكار جديدة، ووسائل للحياة لا عهد للناس بها».

وقد أفاد الشيخ عبد العزيز جاويش من فترتي إقامته ببريطانيا تلميذًا ومدرسًا، الشيء الكثير، وكان أهم ما أفاده إتقانه اللغة الإنجليزية، حتى بات كواحد من أبنائها، ثم عرف كيف ينظر الأوربيون إلى الإسلام، وماذا يأخذون عليه، أو يرمونه به، ثم ماذا تكون عيوب المجتمع المصري أو الإسلامي التي تعوق تقدمه، وتحول بينه وبين التطور، الذي يفضي إلى استجماع وتحصيل أسباب التحرر.

وقد بقيت ثمار هذه التجربة زادًا للشيخ عبد العزيز جاويش حتى آخر حياته، فقد رسمت له منهج عمله، ووضعت أمامه سبيل كفاحه. فأصبح داعيًا إلى حرية وطنه، وإلى تطور التفكير الديني عند مواطنيه، وإصلاح أساليب التعليم

في بلاده، وإرساء قواعد جديدة للحياة السياسية بها، تقوم أول ما تقوم على العناية بالعمال والطبقات الفقيرة، وبإنشاء النقابات لطوائفها، وإشاعة الثقافة السياسية بين أبنائها.

وكتاب «الإسلام دين الفطرة والحرية» في الواقع، صدى مباشر لهذا المنهج الذي اختطه لنفسه والتزم به، لم يحد عنه قط، حتى آخر نسمة تتردد في صدره.

ولكن ما كادت سنة ١٩٠٥ توافي، حتى بدأ القدر يُعدّ الشيخ عبد العزيز للمرحلة الثانية من حياته، وهي المرحلة الأخيرة، في الوقت نفسه، فقد بقي يؤدي فيها دورًا واحدًا لا يتغير، حتى فارق دنيانا..

في هذه السنة انعقد مؤتمر المستشرقين بالجزائر، وحضره محمد فريد زميل مصطفى كامل في الكفاح وخليفته في الحزب الوطني، وكان الشيخ عبد العزيز، من بين العلماء الذين حضروا هذا المؤتمر، فبدت مواهبه الذهنية والبيانية باهرة، فأثارت تقدير محمد فريد، الذي أعجبه بصفة خاصة من الشيخ عبد العزيز الرد الذي أفحم به المستشرق الألماني «فوارس» الذي كان قد قدم بحثًا للمؤتمر، ذهب فيه إلى أن القرآن هو أول كتاب في العربية كتب باللغة العامية، فلما انتهى المؤتمر، تحدث محمد فريد إلى مصطفى كامل طويلاً، عن الشيخ عبد العزيز، ومواهبه الفائقة، وشخصيته الفريدة، فأحبه مصطفى على البعد، ولما زار بريطانيا، في

إحدى رحلاته السياسية، أوعز[١] إلى محمد فريد أن يسأل الشيخ عبد العزيز: هل لديه ما يمنعه من استقبال مصطفى كامل. فرد الشيخ على الفور، بأن هذه الزيارة تسره وتشرفه، وكان مَرَدُّ تحفظ مصطفى كامل في طلب الزيارة، إلى أن الشيخ عبد العزيز كان في ذلك الحين موظفًا بالحكومة، معارًا لجامعة أكسفورد.

وبقي الشيخ عبد العزيز موظفًا حكوميًّا، حتى كانت سنة ١٩٠٨م، التي شهدت في ١٠ فبراير منها، وفاة مصطفى كامل، فقدم استقالته من الوظيفة وتولى رياسة تحرير اللواء، خلفًا للزعيم الشاب، ونشر له اللواء في ٣ من مايو سنة ١٩٠٨م مقاله السياسي الأول الذي استفتح به كفاحه الطويل الشاق، وقد يحسن أن ننقل من هذا المقال بعض فقراته، التي كانت أشبه شيء بقرع الطبول الذي يسبق المعركة، قال: «بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن، وخور[٢] العزيمة، ومطيتها الدهان[٣] والتلبيس[٤]، في أسواقها تُشْتَرى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس، وتباع الذمم والسرائر، بالابتسام وهز الرءوس، وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة حياتي الجديدة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، وحياة الإرشاد العام حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة، أستقبل هذه الحياة، بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجوٍّ فيه، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر مُنْبَرِيًا في ميدانها، فإما إلى الصدر وإما إلى القبر».

---

(١) أوعز: تقدم إليه في الأمر وأمره أن يفعله.

(٢) خور: ضعف. (٣) الدهان: إظهار خلاف ما يُضمر. (٤) التلبيس: الخداع والغدر.

وبهذا بدأت صفحة، بل بدأ فصل من فصول التاريخ الوطني في مصر، كان الشيخ عبد العزيز بطل أبطاله، وقد كان فصلاً حافلاً بالحركة والقتال اختفى منه ما كان قد ران[١] على الشعور في مصر من التحفظ والاحتياط، اتقاءً لشرّ الاحتلال أو طمعًا في خيراته، وبدت فيه مصر على حقيقتها، شجاعة مؤمنة صابرة، تبدأ خطاها وئيدة، ثم يتسع مداها وتتلاحق، في سرعة واندفاع، كما يبدأ صوتها خافتًا، ثم يأخذ في العلو والارتفاع، والامتداد والشدة، والوضوح والحدة، ويتوالى خروج الأبطال من أبنائها مستشهدين وكتابًا ثائرين، وشعراء مبدعين ومجددين، لا في ميدان القول وحده، بل في أساليب النضال وإثارة الجموع، وتأليبها[٢].

وقد لا يتسع مجال القول هنا لسرد المواقع التي خاضها الشيخ عبد العزيز الواحدة بعد الأخرى، في تفصيل وإسهاب، ولكن لابد من أن نشير إليها في إيجاز؛ لأنها في الواقع، ليست أحداث حياته هو، بل وقائع حياة مصر في تلك الحقبة التي كان فيها الشيخ أحد خمسة أو ستة، اتخذ التاريخ منهم محاور يدور حولها، وهؤلاء هم: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعباس الثاني، واللورد كرومر. وخامسهم بلا جدال الشيخ عبد العزيز جاويش وقد يليهم الشيخان علي يوسف، ومحمد عبده، ثم جورست، وكتشنر.

---

(١) ران: غطى.

(٢) التأليب: التحريض.

ما كاد الشيخ عبد العزيز، يمسك قلمه، كرئيس تحرير لجريدة اللواء حتى خاض أولى معاركه، وكانت معركة مدوية، إذ كتب في الخامس من مايو عام ١٩٠٨م عن المذبحة التي أقامها الإنجليز في السودان في منطقة الكاملين، التي خرج فيها زعيمها «عبد القادر إمام» يدعي النبوة والتف حوله لفيف من أنصاره، فأوفدت الحكومة السودانية عددًا من الجنود، برياسة ضابط بريطاني يساعده ضابط مصري، فأبادهم عبد القادر إمام جميعًا، فأرسلت الحكومة حملة أكبر برياسة ضابط أعظم رتبة، وبعد معركة بين الطرفين، جرح فيها ضابطان بريطانيان، وقتل فيها ضابطان مصريان وجنود كثيرون، تمكنت حكومة السودان من إلقاء القبض على زعيم الفتنة، وقدمته وقدمت أنصاره لمحاكمة عسكرية مستعجلة، وعلم الشيخ جاويش، أن المحكمة حكمت على سبعين من أنصار الزعيم بالموت شنقًا، فثارت ثائرته، وتذكر حادثة دنشواي، ورأى حادثة الكاملين أقبح، وأمعن في الظلم، وأردف[1] مقاله في ٥ مايو بآخر في ١١ من نفس الشهر، ثم عززهما بمقال ثالث في السادس والعشرين، وفي السادس من يونية، قدم المستر «أشلي» أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني سؤالاً عما إذا كانت الحكومة المصرية، تنوي محاكمة الشيخ عبد العزيز، أم لا، وكان هذا السؤال نذيرًا بأنه سيقدم للمحاكمة، وفعلاً أجرت معه النيابة تحقيقًا قدمته على إثره إلى المحاكمة في الثامن من يوليه، فبرأته محكمة عابدين من تهمة نشره خبرًا كاذبًا، وقضت بتغريمه عشرين جنيهًا

(١) أردف: أتبع بآخر.

لإهانته لوزارة الحربية، واستأنفت النيابة كما استأنف هو الحكم، فقضت محكمة الاستئناف في ٣٠ من أغسطس ببراءته.

لم تكن هذه القضية مجرد جنحة، تنظرها محكمة الجنح، وإنما كانت حدثًا سياسيًّا، اضطربت له أعصاب الحكومة، وثارت عواطف الشعب، الذي كان يتابع المحاكمة، في حماسة، وينتظر خروج الشيخ، كل يوم عقب كل جلسة ليهتف له وليحاول جرَّ عربته بدلاً من جيادها، حتى إذا صدر حكم البراءة اعتبر انتصارًا للشعب على الحكومة، وكالعادة ألهم الاتهام والمحاكمة والحكم الشعراء، فنظموا فيها جميعًا: حافظ إبراهيم ومحمد إمام العبد، وأحمد نسيم قصائد عصماء حفظها الناس وردَّدوها، وقد كانت كلها قصائد تتقد بالغضب، إليك مثلاً هذه الأبيات من قصيدة نسيم:

أجمعوا كيدهم فرد إليهم ... طاعنًا في النحور والأكباد

زعموا أنـــهم أصـــابوا ولكن ... ربك الله كان بالمرصاد

فكفى الخزي فوقهم من دثـار ... لبسوه كأنهم في حـداد

وجاءت المعركة الثالثة، في أعقاب المعركة الثانية، بلا إمهال، وكانت المعركة هذه المرة في ميدان منحه الشيخ أعمق عواطفه، وأكثرها تدفقًا، ذلك هو ميدان التعليم، الذي بدأ فيه حياته وكان سبب هذه المعركة، أن سعد زغلول اختير من بين مستشاري محكمة الاستئناف ليكون وزيرًا للمعارف، في ٢٨ من أكتوبر

سنة ١٩٠٦م، فرحب بهذا الاختيار مصطفى كامل وأثنى عليه واعتبره بشيرًا ببداية عهد يوكل فيه إلى المصريين ذوي الاستقلال مناصب الوزارة، ولكن سعد زغلول، بدأ حياته في الوزارة بالاستقالة من عضوية اللجنة المشكلة لإنشاء جامعة مصرية أهلية، واعتذر بأن أعماله لا تسمح له بالمشاركة في أعمالها، وكان الإنجليز يعارضون هذا المشروع، ولا يرضون عنه، ثم أتبع سعد هذه الاستقالة بخطبة ألقاها في الجمعية العمومية في ٣ من مارس سنة ١٩٠٧م – وكانت الجمعية العمومية مجلسًا نيابيًّا ضعيف الاختصاصات، لا يملك مراقبة الحكومة ولا تعديل الميزانية، فجاء في خطبة سعد زغلول ما نصه:

«إن مركز الأمة من الأمم الأخرى، واختلاطها بالأجانب، واشتباك المصالح الأجنبية بالمصالح الوطنية، كل ذلك أوجب أن يكون تعليم العلوم باللغة الأجنبية؛ لكي يتقوى الطلاب فيها كما ينبغي، ويمكنهم بها أن يستفيدوا من المدنية الأوربية، ويفيدوا بلادهم بها، ويقووا على الدخول مع الأجانب في معترك هذه الحياة، حياة العلم والعمل».

أصيب الوطنيون بخيبة أمل لهذا التصريح، وابتدأ اللواء يغير مواقفه من سعد، وأخذ مصطفى كامل يهاجمه، فلما كانت سنة ١٩٠٨م، نشر المعتمد البريطاني، تقريره السنوي، فأورد فيه فقرة استنكر فيها حملة الصحف الوطنية على مستر دنلوب، المستشار البريطاني لوزارة المعارف، وقال: إن للوزارة وزيرًا مستقلًا، هو سعد زغلول، فلا يجوز اتهام المستشار بأنه المسئول عن سياسة وزارة

المعارف، فكان نشر هذا التقرير سنة ١٩٠٨م، تجديدًا لحملة اللواء على سعد، وقد تولى الحملة هذه المرة الشيخ عبد العزيز جاويش بسلسلة من المقالات عنوانها «ظلموك يا سعد»، وقد ذاع صيت هذه الحملة، وتداولت الألسن عباراتها، وكان الشيخ عبد العزيز، يعني أن الإنجليز اتخذوا من اسم سعد، ومن شخصه ستارًا يسدلونه على أعمالهم في الوزارة، وهذا هو موطن ظلمهم له ولماضيه.

ولم تنته هذه المعركة إلا لتفسح مكانًا لمعركة أبعد مدى، وأطول عمرًا، تلك هي المعركة التي دارت بين «اللواء» ورئيس تحريره الشيخ عبد العزيز جاويش، وبين «الجريدة» ورئيس تحريرها أحمد لطفي السيد.

وقد بدأت هذه الحملة بتصريح أدلى به أحمد شوقي أمير الشعراء في شهر سبتمبر سنة ١٩٠٨م، إلى جريدة المؤيد، قال فيه: «إن الخديو لا يستطيع أن يمنح البلاد دستورًا بغير إرادة الإنجليز». وقد جاء في أعقاب هذا التصريح تصريح أدلى به في أكتوبر من السنة نفسها إلدون جورست المعتمد البريطاني قال فيه: «إن بريطانيا لن تمنح مصر دستورًا، وإنه لا يغير من موقف بريطانيا أن يكون السلطان عبد الحميد – سلطان تركيا – قد منح بلاده دستورًا إذ لا تأثير لما يجري في تركيا على مجريات الأمور في مصر». فانهال الشيخ عبد العزيز على كلٍّ من شوقي وإلدون جورست، والمقطم تقريعًا، وتنديدًا.

وحدث أن خطب اللورد كرومر في بريطانيا، بعد عزله من منصبه كمعتمد لبريطانيا في مصر، بعد حادثة دنشواي، فقال في خطبته مثلما قال خلفه في مصر، جورست، من أن حصول الأتراك على دستور لا يؤدي إلى منح المصريين الدستور، ورمى المصريين بأنهم لا يهتمون بانتخاب أعضاء مجلس شورى القوانين، ولا يميلون إلى تعليم أولادهم. فشن عليه الشيخ جاويش حملة ضارية، ولما لم يعجب الشيخ مسلك بعض أعضاء مجلس شورى القوانين، الذين يميلون إلى الحكومة كل الميل، ويكرهون أن يوجَّه إليها نقد، أصلاهم من قلمه نارًا حامية، فنهضت جريدة «الجريدة» للدفاع عنهم، فاشتبك الشيخ معها، وكان المجلس قد قرر حرمان مندوب جريدة اللواء من حضور جلساته، فأخذ أحمد لطفي السيد يدافع عن مسلك المجلس ويتهم الشيخ بالتهور والعنف، وأنه بعنفه يحاول أن يقطع علاقات لطفي السيد بأصدقائه في الحزب الوطني، فالتفت إليه الشيخ بمواقفه من صاحب اللواء حال حياته، ومن تطاوله عليه، ثم ذكّره بعجزه عن الدفاع عن المتهمين الأبرياء في قضية دنشواي.

اتسع نطاق معركة الدستور، وكان الشيخ عبد العزيز لا يدع أمرًا يتصل بهذه المعركة، إلا اتخذه ذريعة لتعميقها، من ذلك أن شاه إيران صرح لوكالة رويتر في ٢٤ من نوفمبر ١٩٠٨ بأن المتعلمين من أفراد شعبه لا يرغبون في مجلس نيابي أو دستور، وأن علماء الدين قد أفتوا بأن المجلس مخالف للشرع، فتفجَّر غضب الشيخ عبد العزيز في مقال ننقل إليك منه:

«لم يبلغ الشاه بغيته بما أنزل بأمته من الكوارث الساحقة الماحقة، فتاب إلى تلك التكأة[1] التي طالما توكأ عليها ضعاف الإيمان من أمراء المسلمين، فجمع حوله من الدين عمائم كالنمائم[2]، ولحى كذيول الخيل، جببًا كأنها أوراق الكرنب، وسبحًا لا تقل حباتها عن بيض الحمام، وألسنًا لا تريح كاتب السيئات».

كان اللورد كرومر يرخي حبل النقد لصحف الحزب الوطني، لا إيمانًا منه بحرية الرأي، بل استهانة بما يستطيعه «اللواء» وما تستطيعه خطب مصطفى كامل، ولكن لم يكن كرومر ليحتمل وطأة صحف الحزب الوطني، لو قدر له البقاء في منصبه، بعد حادثة دنشواي في ١٣ من يونية سنة ١٩٠٦م، فقد ظهر للإنجليز وللأجانب جميعًا أن الحركة الوطنية المصرية ليست حركة سطحية، تقتصر على تأييد الطبقة المتعلمة من طلاب المدارس العليا، وبعض طوائف المتعلمين من المحامين ومتوسطي الموظفين في الحكومة وصغارهم، بل إنها تعبير عن شعور شامل غامر، وإنَّ قوتها تزداد مع الأيام، وقد كانت دعوى الاحتلال أن الفلاحين معه وأنهم سعداء بما أسداه إليهم من خير، وما وفَّره لهم من حرية بعد عهد السخرة والكرباج، فلما وقعت حادثة دنشواي، وثبت أن الذين تشاحنوا مع الضباط الإنجليز هم من صميم صغار الفلاحين سقطت حجة الاحتلال، ولم يعد يدري كيف يلفق لنفسه دفاعًا؛ لذلك لم يكن هناك بُدٌّ من أن يعدَّل قانون المطبوعات فعُدِّل، وأصدرت الحكومة قانونًا جديدًا في ٢٨ من مارس سنة ١٩٠٩م، وأصبح

(١) التكأة: ما يمكن الاتكاء عليه.

(٢) النمائم: إفساد ذات البين.

من حق الحكومة بمقتضى هذا القانون، أن توقف الصحف إداريًّا، كما أحيلت قضايا الصحف إلى محكمة الجنايات بدلاً من محكمة الجنح، بعد أن بَرَّأَ القضاء الابتدائي الشيخ جاويش في قضية الكاملين كما مَرَّ بنا. لذلك كان على الشيخ أن يخوض معركة حرية الصحافة، وقانون المطبوعات، فخاضها كالعادة صريحًا، حادًّا، عنيفًا، على أعداء رأيه وخصوم فكرته، وقد بدأ الحملة بمقال نشره في **٢٣** من مارس في تلك السنة ودع فيه قلمه وقال:

«أيها القلم لو كنت سيفًا لأغمدتك في صدر من يحاربونك أو سهمًا لأنفذتك إلى أعماق قلوبهم، ولو كنت جوادًا لوجدت لك في ميادين النزال مجالاً للكَرِّ والفَرِّ».

«أيها القلم استلانوا عريكتك[١]، واستهانوا بقوتك، وأَمنوا جانبك، فمدوا إليك يدًا مجرمة ما كان أولاها أن تقطع».

ولم يمر إصدار قانون المطبوعات في يسر وسهولة، فإن حركة المقاومة أخذت شكلاً جديدًا، إذ اعتنقت الجماهير مبادئ الحزب الوطني، فخرجت جموعها في أول إبريل سنة ١٩٠٩م إلى الشوارع، وعقدت اجتماعًا ضخمًا في حديقة الجزيرة، وتدفقت إلى القاهرة بعد مرورها على كوبري قصر النيل، واضطرت الحكومة إلى أن تحشد قوات البوليس بقيادة حكمدار العاصمة البريطاني هارفي باشا، ثم لما لم

---

(١) العريكة: الطبيعة والخُلق.

تفلح هذه القوات في تشتيت المتظاهرين وتفريق صفوفهم استعانت بخراطيم مياه المطافئ، ثم بفرقة من فرسان الجيش.

واستمرت حملة اللواء، يغذيها قلم الشيخ جاويش، وأقلام كُتَّاب اللواء وشعرائه الشبان، ومنهم الشيخ علي الغاياتي الذي نشر له اللواء في نفس العدد الذي نشر فيه الشيخ عبد العزيز مقاله، قصيدة جاء فيها:

أعباس هذا آخر العـــهد بيننا	**فلا تخش منا بعد ذاك عتابا**
ونيأس من آمالنـا فيك كلما	**قضيت علينا أن نكون غضابا**
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها	**وأصليتنا بعد الوفاق عـــذابا**
ألا أمطـر الله الـوزارة نقمـة	**ولا بلغت ممـا تـروم مرامـا**

ولم يكن ممكنًا أن تسكت الحكومة ولا الإنجليز على بقاء الشيخ جاويش خارج السجن حرًّا، فانتهزت فرصة نشره في ٢٨ من يونية مقالاً في ذكرى دنشواي، اعتبرت أن فيه قذفًا في حق كل من بطرس (باشا) غالي رئيس الوزراء ورئيس محكمة دنشواي وفتحي زغلول (باشا) عضو هذه المحكمة، والذي يقال إنه هو الذي كتب الحكم، ومحمد يوسف المحامي، فدعته للتحقيق معه في ٧ من يوليه ثم قدمته للمحاكمة في ١٧ من يولية، وفي ٢٥ من أغسطس صدر الحكم بحبسه ثلاثة أشهر، فأثار الحكم سخط الشعب، وتألفت المظاهرات احتجاجًا عليه، واحتاطت الحكومة لمنع هذه المظاهرات، ولما زُجَّ بالشيخ إلى السجن امتلأت

صحف الحزب الوطني بمقالات غاية في العنف ضد الحكومة، وتجاوز العطف على الشيخ مصر فكتب الشاعر اللبناني إيليا أبو ماضي قصيدة كان مطلعها:

لئن حجبوك عن مقل البرايا   فما حجبوا هواك عن القلوب

أما الشاعر أحمد نسيم فقد نظم قصيدة كان مطلعها:

يا نازل السجن محفوفًا بإكبار   هون عليك فما في السجن من عار

وخرج محمد فريد وجدي، وهو الكاتب الهادئ، الذي لا يعرف عنه عنف العبارة ولا شدتها، فقد كتب مقالاً في جريدة «الدستور» بدأه ببيت شعر:

وما على التبر(١) عار   في النـــار حين يقلب

أما الشيخ الغاياتي فعلى عادته ذهب إلى أقصى الغاية فقال في قصيدته:

أنت البريء ومن يخا   لك مجرمًا هو مجـرم

وتأيد الحكم من محكمة الاستئناف، ورُفض الطعن الذي قُدِّم لمحكمة النقض.

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ عبد العزيز جاويش في السجن، اكتتب أنصار الحزب الوطني، والمعجبون بالشيخ بمبلغ كبير اشتروا به وسامًا من حرير

---

(١) التبر: هو الذهب الخام قبل تشكيله.

ثمين، مزين بثلاث قطع ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة، فلما أطلق سراحه أقيم له احتفال في فندق شبرد، وسلم له الوسام، ولما خرج من الاحتفال في مساء يوم ٢٢ من فبراير سنة ١٩٠٨م، اجتمعت الألوف خارج الفندق، لتُحَيِّيه وترفعه فوق الأعناق.

وفاض مَعِين الشعر في هذه المناسبة، فنظم الشعراء قصائد جميلة في تحية الشيخ، وتمجيد وطنيته وشجاعته وكان من الشعراء، شاعر شاب هو الشيخ طه حسين الذي قال:

الآن حق لك الثناء فلتحيى وليحيى الثناء

وكان الاحتلال يؤمل في أن السجن سيوهن من عزم الشيخ جاويش وسيسلمه إلى أسلوب أكثر اعتدالاً، ولكن السجن، وحفاوة الشعب، لم يزيداه إلا ضراوة في القتال، فكان لابد من حبسه مرة أخرى، وقد أتيحت للحكومة هذه الفرصة حين صدر ديوان «وطنيتي» للشيخ علي الغاياتي في يونية سنة ١٩١٠م، وكان قد أهدى نسخة منه للشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد، الذي ما كاد يتصفحها، حتى كتب في ٤ من يولية سنة ١٩١٠م، مقالاً يستعدي فيه النيابة على صاحب الديوان، ولم يكن هذا الديوان سوى مجموعة من القصائد نشرها صاحبها تباعًا في جريدة اللواء ولم تجد النيابة وقتذاك فيها ما يستحق المؤاخذة ولكنها فرحت أشد الفرح بصدور الديوان، وبمقدمتي الديوان اللتين

كتب الشيخ جاويش إحداهما، وكتب محمد فريد رئيس الحزب الوطني الثانية وقد رأت النيابة أن المقدمتين تنطويان على تحبيذ قصائد الديوان التي تنطوي بدورها على تحسين جرائم القتل وغيرها، فحقق مع الشيخ جاويش، في سرعة وقدم للمحكمة ليُقْضَى عليه بالسجن ثلاثة أشهر مع النفاذ في ٧ من أغسطس سنة ١٩١٠م وخرج منه في ٤ من نوفمبر ليستأنف جهاده، أشد عزمًا، وأقسى على خصوم فكرته وعقيدته...

وكان محمد فريد خارج البلاد عند محاكمة الشيخ جاويش، فلما عاد أقيمت عليه الدعوى في ٢٣ من يناير ١٩١١م، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع النفاذ، أما صاحب الديوان نفسه، الشيخ علي الغاياتي، فقد حكم عليه غيابيًّا بالحبس سنة، وكان قد هاجر قبل المحاكمة إلى تركيا..

ومقدمتا محمد فريد والشيخ عبد العزيز لديوان «وطنيتي»، لم تكونا مقالين سياسيين، فحسب، بل كانتا قبل كل شيء دعوة لشعر جديد يهجر المعاني الموروثة، والأساليب المألوفة، ويجدد في أساليبه ومعانيه ويتصل بالحياة، ويحتفل بما يجري في دنيا الناس..

قال الشيخ عبد العزيز:

«قد يتوهم بعض المتشاعرين، أن الشعر هو تلك الجمل الموزونة ذات الرَّوِيّ الملتزم، فنراهم أجرأ ما يكونون في تقصيد القصائد والانتساب إلى دعوى الشعر

معتمدين على جهل كثيرين بأسرار الشعر ومزاياه.. إذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور، والتزام الحروف ومُحَسِّنات الألفاظ، واعتبر بما يتركه في نفسك من الأثر».

كان أمام الشيخ جاويش بعد ذلك أن يخوض معركة كبرى، من أكبر معارك بلاده، تلك معركة القناة، فقد تفاوضت الحكومة المصرية خلال سنة ١٩٠٩ سرًّا مع شركة قناة السويس لمدِّ امتياز شركة القناة أربعين عامًا بعد نهاية هذا الامتياز في سنة ١٩٦٨م مقابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفع لمصر أقساطًا، وقد استطاع محمد فريد رئيس الحزب الوطني أن يحصل على نسخة كاملة لهذا المشروع في أكتوبر سنة ١٩٠٩م فاجتمعت في الحال، اللجنة الإدارية للحزب الوطني وطالبت بعرض هذا المشروع على الجمعية العمومية، التي كانت وقتذاك المجلس النيابي للبلاد، دون أن يكون لها من المجالس النيابية حتى مجرد الاسم..

وكتب الشيخ جاويش أول مقال في هذا الشأن في ٢٦ من يونية سنة ١٩١٩م وكأنما كان يقرأ المستقبل في كتاب مفتوح قال:

«يقرأ المصري كل يوم ما تنشره شركة القناة من التقارير الدالة على ما يجني ملاكها من الغلات العظيمة، والربح الزائد في كل عام، فيفكر في نفسه: متى......؟ متى يعود ملك هذه القناة إلى مصر؟ متى ينقضي أمد امتياز هذه

الشركة القابضة على مفتاح هذا الكنز، حتى تتمكن مصر من استرداد فيئها المسلوب، مع تراثها المنهوب؟ متى يضاف إلى مالية مصر من غَلَّة هذه القناة عدة ملايين من الجنيهات في كل عام، فتستطيع بذلك أن تقضي من ديونها، وتصلح من شئونها، وتعد لنفسها إذا شاءت ما يزيدها أمام أعدائها قوة وبأسًا؟».

واضطرت الحكومة تحت ضغط مقالات محمد فريد والشيخ جاويش وباقي الصحف المصرية حتى ما كان منها معتدلاً، ومواليًا للاحتلال، أن تعرض المشروع على الجمعية العمومية، وأن تحترم قرار هذه الجمعية ولو أن قرارات هذه الجمعية لا تلزم الحكومة أصلاً.

فأخذ الشيخ جاويش، يبصر أعضاء الجمعية العمومية بواجبهم ويدعوهم إلى الصمود والثبات، وألا يلقوا بالاً إلى تهديدات الحكومة ووعودها وذكرهم بأن بريطانيا كانت تبرر احتلالها لمصر بأن لها وراء قناة السويس أملاكًا، وأن لها في شركة القناة أسهمًا، فإذا امتد أجل شركة القناة أربعين عامًا بعد مدته المنصوص عليها في عقد الشركة كان معنى ذلك أننا نطيل أمد الاحتلال بأيدينا...

وكانت رياسة الجمعية معقودة للأمير حسين كامل شقيق الخديو عباس، فلما خرج عن واجب الحَيْدَة[١] الذي يجب على رئيس كل هيئة احترامه لم يتردد الشيخ جاويش في تعنيفه قائلاً:

---

(١) الحَيْدة: عدم الميل إلى أي طرف من أطراف الخصومة.

«كنا نرى فلتات، يظهر فيها الأخير بمظهر الهازئ بواجب الحيدة، الكاره لحرية الآراء، الميال لتعضيد الحكومة، وأخذت تلك الفلتات تزداد في الأيام الأخيرة، حتى بدأ الأمير يظهر شيئًا فشيئًا بمظهره الحقيقي، وجاءت مسألة قناة السويس، فإذا بالأمير قد خرق أبرز صفة يتحلى بها رؤساء المجالس النيابية، وهي التزام الحيدة».

وتدور المعركة في الجمعية العمومية، ويقف سعد زغلول وزير المعارف آنذاك، ليدافع عن امتياز القناة، باذلاً كل جهد، منتفعًا بكل حجة، معتمدًا على قدرته الخطابية، ولكن الجمعية العمومية، رفضت المشروع بما يشبه الإجماع إذ لم يشذ عن الإِجماع سوى عضو واحد هو مرقص سميكة.

لكن في حياة الشيخ عبد العزيز جاويش جانبًا، يقتضي الإنصاف من كل مؤرخ أن يجليه[١]، وأن يبدد ما انعقد حوله من سحب الشبهات الظالمة، ذلك هو الجانب الذي رمي فيه الشيخ بتهمة التعصب ضد الأقباط، وإثارة النزاع الطائفي في مصر..

وقد يَجْفَل[٢] بعض المؤرخين من تناول هذا الجانب، بدعوى أن ذلك مما لا يتفق مع وحدة البلاد المتينة الثابتة، التي جعلت الحديث في هذا الشأن إثارة لماض كريه أو تحريكًا لذكريات مؤلمة ولكن مع تسليمنا بأن هذا الحافز جليل

(١) يُجْلِيَه: يبينه ويوضحه. (٢) يجفل: يشرد وينفر.

وسام، إلا أن تاريخ الشيخ أمانة في ذمم وأعناق المؤرخين، ولا يسوغ أن يُضحَّى به لاعتبارٍ فقد قيمته الآن..

ونحب أن نبادر بأن نشأة الشيخ، ومصادر ثقافته، ومعارفه تحول بينه وبين أن يكون هذا الكاتب الأحمق الذي تعبث به آفات التعصب الضيق. فقد كان منذ بداية حياته العلمية والعملية من علماء التجديد والاجتهاد، الذين يريدون للإسلام أن يخرج من الحيز المحدود الذي وضعه فيه جمود بعض علمائه، وانطواؤهم على أنفسهم، وبعدهم عن موارد الثقافة عند غير المسلمين، وتطورات السياسة والاجتماع في الدنيا.

وكان الشيخ جاويش فريدًا بين جميع الأزهريين؛ لأنه في أيامه كاد يكون الأزهري الوحيد الذي تعلم في الأزهر ودار العلوم، ثم في بريطانيا ثم كاد يكون وحده الذي وقع عليه اختيار جامعة بريطانية عريقة، كجامعة أكسفورد، ولو لاحظ عليه الرؤساء البريطانيون في مصر، أو الأساتذة البريطانيون في لندن، هذه الآفة لما رشحوه للوظيفة التي رشح لها، وهي وظيفة تجعله صاحب أثر على التلاميذ البريطانيين الذين يتلقون عنه العلم، وهم بعد شبان...

ويجب أن نستحضر لأذهاننا صورة الحالة السياسية، في الفترة التي اندلعت فيها نيران فتن الخلاف بين الإخوة المسلمين والأقباط ففي سنة ١٩١٠ وما قبلها، كان الاحتلال البريطاني يمر في أحرج أدواره، فقد كان ممثلو الاحتلال وكبار

موظفيه، يخدعون أنفسهم بأن المصريين استناموا للاحتلال وارتضوه، وأن خطب مصطفى كامل ومقالاته ومحاولاته لم تحرك ساكنًا، وإن أثارت الإعجاب به وإن كانت قوية إلا أنه كان إعجابًا سلبيًّا يقنع بالتحية والهتاف، وقراءة اللواء ولا يخطو بعد ذلك خطوة، فلما اتضح للإنجليز أن الحركة أكبر من ذلك، وأقوى، عز عليهم أن يمنوا بالهزيمة، فأصبح ممكنًا أن يثار نزاع مصطنع بين الأقباط والمسلمين، يشكو فيه الأقباط من ضآلة حظهم في المناصب الحكومية، والواقع أن الأمر كله كان في ذلك الحين للإنجليز، وقد كانوا الآمرين النَّاهين، ولم يكن الوزراء المصريون، سوى واجهات تخفي وراءها الرؤساء البريطانيين وتحميهم من النقد..

وإذا رجعنا إلى أصل القضية التي انتهت بمقال الشيخ جاويش الذي نشر في اللواء في ١٧ من يونية سنة ١٩٠٨م تحت عنوان «الإسلام غريب في بلاده» رأيناها تبدأ بمقالات ينشرها جندي إبراهيم صاحب جريدة الوطن في جريدته يشكو فيها من مظالم تقع بالأقباط، ويقترح تأليف وفد لمقابلة الحكومة لعرض هذه المظالم، ثم ينشئ أخنوخ فانوس جمعية أو هيئة اسمها «مجتمع الإصلاح القبطي»، لنفس الغاية، فيتصدَّى الأستاذ ويصا واصف المحامي وعضو اللجنة الإدارية للحزب الوطني، لهذه المحاولات ويكتب مقالاً في اللواء يوجه فيه الحديث لأخنوخ فانوس يقول له فيه: «شكلت جمعية سميت بمجتمع الإصلاح القبطي، فانتخبت لها رئيس الطائفة الإنجيلية (البروتستانتية) رئيسًا ثم دعتنا إلى الانتظام في سلكها، فسألناها: ما غرضك، وإلى أي شيء ترمين؟.. إن كنت حزبًا سياسيًّا فنحن لك أعداء ألدَّاء».

وهاج غضب جريدة الوطن على الأستاذ ويصا واصف، وأسمته يهوذا الإِسخريوطي، واشتدت حملتها على اللواء وعلى الشيخ جاويش وعلى الحزب الوطني واللواء صامت لا يجيب على هذه الحملة؛ لأنه يعلم أنها لا تمثل الأقباط في قليل أو كثير، وأن الإِنجليز يسرهم أن تقع الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، ويصرح بذلك فعلاً في مقال نشر باللواء في يوم ٤ من يونية سنة ١٩٠٨م جاء فيه:

«ها هو ذا السير جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره إلى لوندره ما يثبت لها مهارته، حتى إذا حط بها الرحل، وخلا إلى أولي الأمر فيها قال: هأنذا قد نلت ما لم ينله سلفي، ونجحت فيما فشل فيه أستاذي إذ حاول اللورد كرومر مرارًا التفريق بين عنصري الأمة، وطعن المسلمين بالأقباط والأقباط بالمسلمين، فلم ينجح ولم يفلح، ولكني تمكنت بإشارة صغيرة مني إلى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفكرة التي كان اللورد يجدّ وراءها ولا يصل».

ولعل هذه العبارة وحدها كافية في الكشف عن الأسلوب الذي تناول به الشيخ جاويش منذ بداية الفتنة هذا الموضوع، وهو أسلوب الوطني الذي يحرص غاية الحرص على وحدة الأمة، وهو في الوقت نفسه أسلوب السياسي الذي يعرف أن الإنجليز بذلوا كل ما في وسعهم للتفريق بين المسلمين والأقباط ولم ينجحوا عندما كانت الحركة الوطنية في بدايتها، فلا يجوز لزعماء هذه الحركة، حينما يشتد ساعدها، أن يعينوا أعداءها على ضربها في أقوى مقاتلها...

ولكن الاحتلال والاحتلاليين استمروا في النفخ في نار هذه الفتنة حتى تجاوز كاتب اسمه فؤاد كامل حد البحث في العلاقة بين المسلمين والأقباط إلى الطعن في الإسلام ذاته، إذ قال في مقال نشر في ١٥ من يونية سنة ١٩٠٨م: إن الاعتزاز بالقوة والاستهتار بالضعيف، هما الحجران اللذان بني عليهما ما يسمونه مجد الإسلام، والحق أنه كان من الصعب على رجل كالشيخ جاويش طبع على العنف في مناقشة خصومه المسلمين قبل غيرهم من البريطانيين والأجانب، أن يصطنع أسلوبًا آخر في الرد على اعتداء كهذا، واقع على دينه لاسيما أنه يعلم أن كاتب المقال مدفوع من أعداء المصريين الأقباط والمسلمين على السواء، فاشتد عليه في القول كعادته، وبنفس الأسلوب الذي خاض به كل معاركه السياسية من أجل الدستور وقناة السويس وحرية الصحافة، وهو لم ينل من الأقباط ولم يمسسهم بسوء بل قال:

«ولو كنتم عشتم ربع هذا الزمن الذي عشتموه مع المسلمين مع الإنجليز لألحقوكم بالجنس الأحمر في أمريكا، أو الصنف الأسمر في أستراليا».

ثم إن هذا المقال نفسه الذي ذهبت شهرته في الآفاق وردد الناس عباراته كدليل تعصب جاوز كل حد، ما ينضح ببراءة الشيخ مما نسب إليه فقد قال: «عشنا في هذه البلاد دهرًا طويلاً فكنا كما شاء لنا الإسلام إخوانًا في الوطنية شركاء في المرافق الحيوية نتجاور ونتزاور، ونتشاور ونتسامر، ونتعاشر ونتناصر».

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن انطفأت حينما أدرك الذين من خلفها أنه لا طائل من تحتها، وأن مجموع الشعب في قرى الريف والصعيد من أقباط ومسلمين، بقوا على سابق عهدهم من تواصل وتوادّ كأن هذه الحملة لم تقع. وقد توقفت اللواء منذ أواخر شهر يولية عن مواصلة الكتابة في هذا الموضوع ولم تردّ على جريدتي الوطن ومصر..

حتى وافى رأس السنة الهجرية، واحتفل الحزب الوطني بها، فحضر الاحتفال الأستاذ مرقص حنا المحامي وعضو مجلس إدارة الحزب وخطب فيه قائلاً: «جئت لأقول لكم كلمة صغيرة في مبناها كبيرة في معناها، وهي مهما قيل ويقال عن مقاطعتنا وتدابرنا فنحن إخوان في الوطن».

ورد عليه الشيخ جاويش بقوله: «رُبَّ ضارة نافعة، فلقد كان نتيجة تباعد الطرفين زمنًا أن محص الله المخلصين منهم للجمع بينهم، فالطرفان لم يخلقا إلا ليتحدا».

وقامت ثورة سنة ١٩١٩م والشيخ جاويش خارج الوطن، وتوفي المرحوم محمد فريد في ألمانيا في ١٥ من نوفمبر في تلك السنة فوقف على قبره الشيخ جاويش يؤنبه، وقد مس بطبيعة الحال ما جرى في فتنة سنة ١٩٠٨م، وانطلق على سجيته يقول:

«أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب وتعاقدت خناصره، إذ ألَّف الله بين قلوب أحزابه وطوائفه، وأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها، أبصر فريد كيف نافس في سبيل الوطن المفدّى أطفال الأمة الشيوخ، ونساؤها الرجال، ومسيحيوها المسلمين وكيف تعانق الهلال والصليب، والتقى القرآن والإِنجيل، وتعانق الشيخ والقسيس»..

ولعل أجمل ما يمكن أن نختم به القول في هذا الجانب من حياة الشيخ جاويش أن نذكر أن الشيخ رشح نفسه لانتخابات أول برلمان ينعقد في مصر وذلك في سنة ١٩٢٣م فهاجمه منافسه والحزب الذي كان يؤيده، أفتدري من جاء لنصرة الشيخ جاويش للإشادة به وبوطنيته؟ جندي «بك» إبراهيم صاحب جريدة الوطن، الذي كان أول من حمل عليه سنة ١٩٠٨ ورماه بتهمة التعصب، وكراهية الأقباط، وأيده بمقال طويل حار، نشره في جريدة الوطن، في عددها الصادر في ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٣م.

يحسب الكثيرون أن الحملات التي قام بها اللواء لعهد مصطفى كامل ثم لعهد عبد العزيز جاويش كانت صراخًا عنيفًا في الهواء وكانت حماسة كلامية مسرفة، وأنها لم تُجْدِ شيئًا، وأن أسلوب التعقل والتبصر الذي التزمه خصوم اللواء، والذي مال بهم إلى صداقة الاحتلال وممثليه، وخَطْبِ ودِّهِم، وتبادل الرأي معهم، والأخذ بنصيحتهم، هو الطريق السوي السليم.

وما ذهب إليه هؤلاء هو الخطأ بعينه، فإن هذه الحملات – وإن اتسمت بالعنف والشدة أحيانًا – كانت كالقوارع[١] التي تخرج الناس من جمودهم، وتبث الشجاعة والحرارة في قلوبهم وأعصابهم، وكانت وحدها السبب في كل ما شمل البلاد من الرغبة في الإِصلاح وكراهية النظام القديم والميل إلى تجديد التفكير الديني والاجتماعي، فلولا هذه الصيحات المدوية التي انشق عنها قلب مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش لما قامت حركة إصلاح ديني، ولا ترجم كتاب عن اللغات الأوربية، ولا نبتت فكرة إنشاء جمعية خيرية، أو بناء مستشفى، أو إقامة جامعة أو إرسال بعثة للخارج.

وقد صورت جريدة فرنسية في سنة ١٩٠٩م أثر اللواء، فقالت: قد شرح أحد السائحين الذين جالوا في الديار المصرية ذلك فقال:

«إن الذي يزور الآن قرى مصر يرى فيها أمرًا مستحدثًا ما كان ليخطر على بال أحد، يرى حلقات من الفلاحين ملتفين حول رجل يتصدر مصطبة فينصتون إليه، وهذا الرجل في العادة من القصاصين الذين يتلون القصص القديمة ولكنه يقرأ الآن اللواء، ويفهم الفلاحون ما يتلوه عليهم، وبذلك يبذر في قلوب أولئك الذين لم يألفوا منذ أجيال غير الخضوع، بذرة جديدة قد تنمو وتثمر في مستقبل الأيام».

---

(١) القوارع: المصائب.

على أن نشاط الحزب الوطني والشيخ جاويش، لم يذهب كله جهدًا سياسيًّا، بل إنه التفت في عناية واهتمام بالغين إلى النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وبذر فيها بذورًا كانت هي أصول ما شاهدته البلاد بعد ذلك من تطورات وحركات تحرر اجتماعي وتحرر اقتصادي على أوضاعه القديمة الضيقة الكريهة.

بدأ الحزب الوطني في إنشاء «مدارس الشعب» لتوفير الثقافة السياسية والاجتماعية للعمال في المدن، وقام الشيخ جاويش بتدريس مادة الدين، وقد بدأت هذه المدارس بواحدة في بولاق حي العمال وأردفت بثلاث مدارس أخرى في أقسام الخليفة وشبرا والعباسية، ودعا الحزب الوطني إلى إنشاء نقابات للعمال، وكانت باكورة هذه النقابات نقابة عمال المصانع اليدوية، فقام الشيخ جاويش بوضع قانونها، وأسندت إليه رياستها. أما التعليم فقد كان ميدان الشيخ المفضل، وكان هو جواده المجلي[١]؛ ولذلك لا يتولانا شيء من الدهشة حينما نطالع البرنامج الذي أعده الشيخ لإِصلاح التعليم في بلادنا، فتقع أبصارنا على أفكار متقدمة بمعيار الزمان الذي وضع فيه هذا البرنامج ومعيار زماننا نحن، فقد اقترح مثلاً إنشاء «رياض الأطفال» وأسماها «بساتين الأطفال» يتلقن فيها الطفل منذ بلوغه الثالثة الأغاني والأناشيد والرسم والألعاب حتى يبلغ السابعة ثم حينما نراه شديد العناية بالتعليم الفني الزراعي والصناعي والتجاري، وحينما يصر

(١) المجلي: السابق في الحلبة أو السباق.

على أن التعليم العملي في المدارس كلها قرين التربية النظرية، وحينما كان يقترح تعليم التلاميذ مبادئ الحساب التجاري ومسك الدفاتر التجارية.

إن تفكير الشيخ عبد العزيز الاجتماعي كان ينضح في كل ما يكتبه وقد مر بك أنه حمل على شاه إيران لما أنكر على أمته حقها في الحكم الدستوري وقد قال في حملته هذه:

«كبر عليه أن ينصف من لا ينفق إلا من مالهم ولا يخدم إلا برجالهم إذ لولا ذلك العرق المتصبب من جِبَاه الزُّرَّاع، والجهد الذي يبلغ نفوس كثير من الصناع، لما وجد مضغة يلوكها[١] ولا غرفة من ماء يشربها».

بقي أن نتحدث عن جانب من أهم جوانب كفاح الشيخ جاويش وجهاده، ذلك هو جانب المصلح والمجدد الديني.

ولا شبهة عندي في أن الشيخ جاويش لولا أن الجهاد الوطني قد استأثر به لكان إمام هذه الأمة ولتوالت آثاره، على نسق هذا الكتاب العظيم، الإسلام دين الفطرة والحرية، الذي نقدم له بهذه الصفحات.

فالشيخ عبد العزيز جاويش، رجل توافرت له كل خصائص ووسائط المصلح الديني، فقد درس الإسلام في أكبر وأقدم جامعة إسلامية ونعني بها

---

(١) يلوكها: يمضغها.

الأزهر، وقد أتم دراسته منقطعًا لها، متفرغًا للإحاطة بها، وكانت مواهبه الذهنية والبيانية تعينه على أن يبرز في تلك الدراسة على الرغم من الصعوبات التي تحشد في طريق طالبي المعرفة الإسلامية، لما أصاب المناهج من تحجر، والمراجع من غموض وإسهاب تضيق له النفوس، وتَفَرُّع تضلُّ معه العقول.

ثم درس في أوربا فعرف الأساليب الحديثة في البحث والتنقيب، وترتيب الأفكار واستخلاص النتائج من المقدمات استخلاصًا سائغًا. وعرف كيف ينظر الأوربيون إلى الدين الإسلامي، والشبهات التي تعلق بأذهانهم ونفوسهم على أحكامه ومبادئه، وقارن بين أسلوب الأوربي في حياته، وتحصيل العلم، وتدبير المال، واستجماع أسباب القوة، وإدارة البلاد، واختيار الحكام، ومحاسبة الملوك والوزراء، وتنوير الرأي العام، واحترام أحكامه، ونشر التعليم وتيسير سبل الثقافة، فأدرك مدى تخلف المجتمع المصري والعربي والإسلامي، ونظر إلى الدين فلم يجد فيه ما يحول دون التقدم والتنافس في ميادين البحث العلمي النظري والتطبيقي، وإقامة صروح الاقتصاد والصناعة والتجارة، وتحرير المرأة والعامل، فخاض معاركه السياسية مملوء النفس بهذا الإيمان، عظيم الأمل في أن يوفر لبلاده أسلحة تعينها على طرد الغاصب الأجنبي، وطرد الخزعبلات والأكاذيب العقلية والسموم النفسية معه.

لذلك كان الشيخ عبد العزيز جاويش مصلحًا نموذجيًّا حارب الإنجليز وخاصمهم، وحارب الرجعية سواء كانت رجعية رسمية ممثلة في الخديو والوزراء

أو كانت ممثلة في الأوهام الشائعة التي يتبناها ويحرص عليها أقوام ينسبون إلى العلم الديني زورًا وبهتانًا، وما هم إلا متجرون بالدين، ومتخذون من أحكام القرآن بضاعة مزجاة. فقد أعفى الله الشيخ جاويش من هذا الخطأ الذي تردى فيه آخرون دعوا إلى الإِصلاح الديني، وأحسنوا الكتابة فيه، والدعوة إليه، ولكنهم استندوا في دعوتهم إلى تأييد من المعتمد البريطاني ممثل الاحتلال الأجنبي وهزئوا بالدعوة السياسية، وبالحركة الوطنية والقائمين على أمرها، مع أنهم لو انضموا إليها لأعانوها، ومهدوا الطريق في الوقت نفسه للإِصلاح الديني الذي يدعون إليه ويحرصون عليه.

ولقد استطاع الشيخ عبد العزيز جاويش أن يجد من وقته وجهده ما يستطيع أن يخصصه للإِصلاح الديني، فوقف على ذلك الجانب الهام من مشاغله مجلة الهداية الأسبوعية التي أصدرها في فبراير سنة ١٩١٠ وقد استمر يصدرها حتى سنة ١٩١٢. ثم صدرت متقطعة في تركيا حتى سنة ١٩١٤، وقد قال في افتتاحية العدد الأول منها، في بيان أغراضها: «إن من يلقي على أحوالنا نظرة تستبطنها.. يرى آفات فاشية، وخرافات عاتية، وفوضى ممتدة العرق لم يخل لنا منها شأن» ووعد بمواجهة هذا كله. ثم قال إنه سيفرغ من أقسامها قسمًا لإِنعاش لغة العرب من عثارها[1] بما يأتي به من التحقيقات اللغوية والإِشارات الأدبية». وقد صدر

(١) عثارها: زللها.

العدد الأول بباب تفسير القرآن، وقال عن منهجه في التفسير إنه سيسير فيه «مجتنبًا كل ما يربك الأذهان، ويبعد آيات الله عن الأفهام، وقلما تكلمت فيما له علاقة بقواعد اللغة ومسائلها، فإن كتاب الله أظهر من أن يتوقف فهمه على المماحكات[1] الصناعية والتصاريف الإعرابية». وما نشره من التفسير يثبت أنه قصد منه إفهام الناس أحكام القرآن في يسر وبما يتفق مع ما انتهت إليه حقائق العلم بغير محاولة لادعاء أن القرآن جاء ليقرر هذه الحقائق العلمية، فنفى فعلاً وهو يشرح كلمة سماء في الآية ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الفرقان / ٤٨] ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنها موج مكنون وأن السماء الثانية من صخرة، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، وقال: «الحقيقة أن القرآن لم يأت بشيء من ذلك ففي القرآن ما يدل على أن السماوات بناء مؤلف من أجزاء مادية على نحو ما نرى في أرضنا، ومنها ما يدل على أنها مجرد طرائق ومدارات تسير فيها الكواكب السيارة».

وقد أورد هذا الحكم الفقهي الحاسم ليكون دستور المفسرين جميعًا قال:

«ولقد نص الأصوليون على أنه إذا وقع التعارض بين ظاهر القرآن أو الحديث وبين القضايا العقلية التي يصيبها الإنسان عن طريق البرهان القاطع أو المشاهدات الواقعة تحت سائر الحواس على شريطها - إذا وقع بينهما هذا التعارض، وجب تأويل تلك العبارات والأحكام بما يطابق هذه القضايا العقلية».

(١) المماحكات: اللجاج في المنازعة.

ولقد اشتد الشيخ في مهاجمة الذين يسمون أنفسهم مصلحين دينيين ويحتمون بالإنجليز، وهو موقف سليم بغير شبهة؛ ذلك لأن الإنجليز لا يسكتون على إصلاح ديني حقيقي فضلاً عن أن يساعدوا القائمين به؛ لأن الإصلاح الديني لا يفضي إلا لإخراجهم وزلزلة قواعد سلطانهم، وإثارة الناس عليهم وتنبيههم إلى حقوقهم، ومن يغفل عن ذلك فهو إما جاهل وإما متجاهل.

ولما احتلت إيطاليا طرابلس (ليبيا) أعان المجاهدين الليبيين لا بالقلم وحده ولكن بجمع المال، وإرسال البعثات الطبية، والعتاد والأسلحة مع القوافل المسافرة بين مصر وليبيا، وقد أعانه في هذه الجهود أخواه أحمد وعبد اللطيف، وقد جمعت هذه الجهود بين الشيخ وبين أنور باشا زعيم زعماء جمعية الاتحاد والترقي التركية التي آلت إلى الحكومة قبيل الحرب العالمية الأولى.

اشتد اضطهاد الحكومة للشيخ عبد العزيز جاويش، ولكل زعماء الحزب الوطني، واتخذوا من قانون المطبوعات سلاحًا يقتلون به الحركة الوطنية فمنعوا صدور جرائد الحزب الواحدة بعد الأخرى، وكانت نذر الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق، ثم كانت الحرب الإيطالية الطرابلسية التي وثقت من العلاقة بين جاويش وأنور الزعيم التركي الكبير، فبدا للشيخ جاويش أن الهجرة إلى تركيا واجبة، لينجو بحريته، وليواصل جهاده بعيدًا عن يد بريطانيا وبطشها، وهاجر فعلاً في أوائل سنة ١٩١٢م.

ما كاد يستقر حتى أخرج مجلة الهلال العثماني في مارس من تلك السنة، وهي وإن كانت تصدر في إستانبول إلا أنها كانت ترسل إلى مصر، وغيرها من البلاد العربية، فيتلقفها الناس، وتنقل عنها صحف الحزب الوطني مقالات الشيخ جاويش، فكأنه بين مواطنيه، وعلى أرض وطنه، لم يهاجر.

ولذلك اتخذت السلطات البريطانية ذريعة من منشورات ضبطت مع طالب مصري يدعى أحمد مختار في ٢٣ من أغسطس سنة ١٩١٢م كان قادمًا من تركيا للإسكندرية، وقيل إن في هذه المنشورات حضًّا على الثورة واللجوء إلى العنف، كما قيل إن الطالب حينما حقق معه ادَّعى أنه تسلم هذه المنشورات من الشيخ جاويش، فطلبت السلطات المصرية (البريطانية) إلى تركيا تسليم الشيخ، ولما كانت الحكومة القائمة في تركيا موالية للإنجليز فقد وافقت على تسليمه فجيء به إلى مصر وبقي مسجونًا من ٩ سبتمبر سنة ١٩١٢م حتى ١٧ من أكتوبر من السنة ذاتها، فعاد إلى تركيا وأخذ يصدر إلى جانب الهلال العثماني منتدى سياسيًّا يؤمه كبار الساسة من الأتراك ومن غيرهم في العالم الإسلامي كله، ولما نفضت تركيا يدها من ليبيا وتركت المجاهدين الليبيين يلاقون مصيرهم وحدهم أمام الغزو الإيطالي، أبى أن يوقف جهاده، وندَّد بموقف الحكومة التركية وهو مجرد لاجئ سياسي لأرضها، وتعاون مع أنور باشا في مساعدة الليبيين، ومدهم بالمال والسلاح.

ولم يكن الشيخ جاويش في تركيا صحفيًّا كبيرًا ولا زعيمًا إسلاميًّا لاجئًا إليها فحسب، بل إن صداقته مع أنور باشا وثقة الأخير به واعتماده عليه، جعل منه واحدًا من كبار الموجهين لسياسة حكومة الاتحاد والترقي ولا سيما في الجانب الشرقي من الإمبراطورية العثمانية، ولاتساع نطاق صلاته بزعماء العالم الإِسلامي استطاع أن يؤسس جمعية خدام الكعبة، وقد اعتبرت جريدة «التيمس» أن هذه الجمعية حزب سياسي، وأنه كان أعظم خطرًا على بريطانيا ومصالحها من الحزب الوطني المصري، وقد قالت في الكتاب الذي وضعته تاريخًا لأحداث الحرب العالمية الأولى: «إن زعماء هذا الحزب هم من مسلمي الهند والصين والأفغان والترك، وإن بعض رسله نفذوا إلى مصر لتحريض المسلمين من الجنود الهنود على ضباطهم فقبض عليهم وأبعدوا».

وفي فبراير سنة ١٩١٤م أسندت الحكومة التركية إلى الشيخ وإلى شكيب أرسلان أمر تأسيس جامعة في المدينة المنورة، وقد أنابه الخليفة محمد الخامس لوضع حجر أساسها في فبراير سنة ١٩١٤م، فقام بإرساء الحجر وأذاع بيانًا جاء فيه أن الجامعة الجديدة ستضم كليات للطب، والهندسة، والمساحات الزراعية يتبعها ما يلزمها من مستشفى، ومعامل للتحليل. ثم دعا المسلمين ليدعموا هذا المشروع بمالهم.

وعهد إليه السلطان محمد في نفس السنة بأمر تجديد كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس، فقال عن هذا المشروع: «إن الكلية ستقوم على تدريس

العلوم الشرعية والحقوق والفنون المختلفة واللغات المتنوعة؛ لتخرِّج أخصائيين في هذه العلوم قادرين على الدفاع عن التعاليم الدينية، ويصلحون للنهوض بأعباء الوظائف الشرعية وتبعات الأعمال العلمية». ثم سافر إلى برلين ولندن لإعداد ما يلزم للجامعة والكلية من معدات. وفي أثناء وجوده في لندن وقع في ٢٥ من يولية سنة ١٩١٤م شروع في قتل الخديو عباس أثناء خروجه من زيارة رئيس وزراء تركيا آنذاك (الصدر الأعظم) سعيد حليم، منافس الخديو الذي لم ينقطع أمله في أن يكون خديو مصر، وكان العرابيون يرشحونه لهذا المنصب العالي، فطاب لخصوم الشيخ جاويش أن يتهموه بأنه كان من وراء هذه الجريمة، وبقي الخديو عباس مؤمنًا إلى آخر يوم في حياته بصحة هذا الاتهام.

ثم أعلنت الحرب العالمية في ٤ من أغسطس سنة ١٩١٤م وبقيت تركيا على الحياد حتى ٥ من نوفمبر، إذ خاضت في هذا اليوم هذه الحرب في صف ألمانيا وضد بريطانيا وفرنسا، والثابت أن الشيخ جاويش كان على علاقة بالساسة الألمان حتى قبل إعلان الحرب، فقد كان يؤمل أن يجد عند ألمانيا ما يعين على إحراج الاحتلال البريطاني في مصر وبالتالي إلى إخراجه. وكان البرنس «هتزتلد» الألماني هو الشخصية الألمانية الكبيرة التي ندبت للتعاون مع الشيخ، فلما نشبت الحرب اتسع نطاق نشاط الشيخ جاويش السياسي، وأصبح يكثر من تردده على ألمانيا، وقد أصدر مجلة «العالم الإسلامي» بالألمانية وبالعربية معًا، وقد صدرت النسخة العربية في السادس من مايو سنة ١٩١٦م، كما صدرت النسخة الألمانية

في أغسطس سنة ١٩١٦م، وقد احتفل بصدور العدد الأول منها بحضور الجنرال إيهوف القائد الألماني وحقي باشا سفير تركيا في برلين، وقد أصبح مكتب هذه المجلة في برلين ناديًا سياسيًّا للمصريين والعرب وللمسلمين والشرقيين، وكان يتردد عليه كبار الساسة أمثال «زولتو» و«برناردي» و«تريبتز» وزير البحرية الألمانية صاحب فكرة الغواصات و «زمرمان» وغيره من الوزراء.

ولما وضعت الحرب أوزارها، وخرجت ألمانيا مهزومة، سدت المسالك في وجه الشيخ. فالدولتان اللتان تعاون معهما سياسيًّا خلال الحرب، غلبتا على أمرهما، وبلاده لا يستطيع العودة إليها ولابد من مال لانتقاله إلى بلاد أخرى، والإقامة فيها، ويداه وأيدي زملائه من رجال وشباب الحزب الوطني صفر من المال؛ لذلك ضاقت به وبهم الأرض، وعانى الفقر والجوع. وقد وصف أحمد وفيق الصحفي هذه الأيام فقال: «إن مأوى الشيخ جاويش في تلك الأيام كان عربة من عربات الحيوانات المكشوفة يأوي إليها في ركن في الشتاء الهاصر[١]».

ثم قامت الثورة الكمالية، بقيادة مصطفى كمال، لرد الزحف اليوناني على الوطن التركي في الأناضول، واستدعى كمال أتاتورك الشيخ جاويش ليرأس هيئة بحث ودراسة وفتوى إسلامية اسمها «تدقيقات وتأليفات إسلامية» ويصل الشيخ إلى أنقرة في ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٢٢م ويأخذ في إعداد ما يلزم

(١) الهاصر: الكاسر.

لهذه الهيئة من المراجع، ويعد لها مكانًا، ويضع لها برنامجًا، ولكنه لا يلبث أن يختلف مع كمال أتاتورك، حينما تتضح نية أتاتورك في إنهاء الخلافة الإسلامية وفي إقامة حكم علماني لا ديني في تركيا، وأدرك الأتراك أن الشيخ لا يقرهم على أفكارهم ولا يؤيد سياستهم فأصبحت حياته في خطر ويعلم أصدقاؤه بذلك فيدبر سليمان حافظ المحامي وزميله محمد عرارجي المحامي بمعاونة أحمد عرارجي التاجر بالإِسكندرية، للشيخ، سبيل العودة سرًّا إلى مصر بعد أن رفضت وزارة يحيى إبراهيم (باشا) أن تأذن له بالعودة إلى بلاده مع أن دستور سنة ١٩٢٣م كان قد أعلن، ونصوص هذا الدستور لا تسمح بمنع دخول المصري إلى بلاده، وقد رفع سليمان حافظ دعوى على الحكومة لهذا المنع، ولكنه آثر وزميله آخر الأمر أن يضعا الحكومة أمام أمر واقع، فسهَّلا للشيخ الذي عاش سنين طويلة مشردًا جائعًا يترصده الأعداء أن يعود إلى بلاده، وأعلنت جريدة الأخبار في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٢م، أنه عاد إلى وطنه، ولكنه عاد ليخوض المعركة الانتخابية فرشح الشيخ نفسه في دائرة من دوائر الإِسكندرية، ورشح الوفديون ضده محمد سعيد (باشا) رئيس الوزراء السابق، وحشد خصوم الشيخ قواهم ليسقطوه، فقد كانت حملاته على زعيم الوفد ومقالاته المعنونة «ظلموك يا سعد» لا تزال ترنُّ في الآذان، وقد أسقط ونجح خصمه بأغلبية ساحقة، فقد كان الشعور وقتذاك مع سعد ومرشحيه مع أن الشيخ كان قد وضع نفسه في خدمة الثورة التي اندلعت سنة ١٩١٩م وكتب لهذا، وهو في أوربا، إلى سعد واقترح أن يتم اتصاله بالثورة عن طريق أشخاص غير متصلين بالنشاط السياسي إذ كان سعد يرى أن اتصاله

بالشيخ ومحمد فريد يسيء إلى الثورة باعتبار أنهما كانا على صلة بالألمان خلال الحرب العالمية الأولى، وقد كررا العرض فلم يتلقيا ردًّا.

وكأنما كتب على الشيخ أن يقضي حياة مضطربة، حتى حينما يعزم على أن يستقر، ففي ١١ من يولية سنة ١٩٢٤م شرع شاب مصري كان يطلب العلم في ألمانيا يدعى عبد الخالق عبد اللطيف في قتل سعد زغلول في داخل محطة القاهرة، وسعد يتهيأ للسفر إلى لندن ليفاوض المستر ماكدونالد زعيم العمال ورئيس الحكومة البريطانية وقتذاك، وفي الثالث عشر من الشهر نفسه أي بعد يومين من وقوع الحادث، قُبِضَ على الشيخ جاويش وبقي معتقلاً حتى ٥ من أغسطس على ذمة التحقيق في هذه القضية، ولم يكد يستنشق نسيم الحرية حتى أعيد القبض عليه في ٧ من أغسطس – أي بعد يومين من الإفراج عنه – وزُجَّ به في سجن الحضرة بالإسكندرية على ذِمَّة قضية لُفِّقَت له، واتُّهِمَ فيها مع آخرين بأنهم عملوا على خلع الملك فؤاد لحساب الخديو عباس، وبقي الشيخ محبوسًا قرابة ثلاثة أشهر بلا دليل يقام ضده ولا حجة تبرر حبسه.

وأفرج عنه، وعاد ليرأس زمنًا تحرير جريدة الحزب الوطني التي كانت قد عادت للصدور في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٣م، ولكنه لم يعد قادرًا على أن يواصل كفاحه السياسي، إذ خرج من السجن مريضًا بعد سنوات من الجوع والتشرد والقلق، وعرض عليه علي ماهر (باشا) وزير المعارف أن يتولى إدارة التعليم الأولي قبل ذلك وكأنما يئوب إلى داره فقد نشأ معلمًا وبدأ حياته مفتشًا للكتاتيب،

وعاش مشغولاً بالتعليم في بلاده، وقد بذل في السنوات القليلة التي أتيح له أن يعمل فيها، في هذا الميدان بعد غيبة طويلة عنه، مجهودًا عظيمًا، ولكنه لم يمهل حتى يرى ثمرة جهاده، فقد وافاه القدر المحتوم في ٢٥ من يناير سنة ١٩٢٩ وهو بعد في الثالثة والخمسين من عمره، وقد كشفت وفاته عن ضخامة العمل الذي قام به في كل ناحية من نواحي الحياة في بلاده، في السياسة والتعليم والإِصلاح الديني والكفاح الاجتماعي، وفي الداخل والخارج، بالقلم واللسان والتحريض والإثارة والتدبير والتنظيم، والتوفيق والتوجيه.

مات وهو يستعد لاستئناف إصدار مجلة الهداية إلى جانب عمله الحكومي بعد أن ساهم في إنشاء جمعية الشبان المسلمين فكانت أحد آثاره الباقية. لقد فاض حزن الناس عليه من كل حزب وهيئة، وعبر شوقي مع كُتَّابٍ وشعراء لاحصر لهم عن هذه المشاعر بقصيدته العظيمة.

أَصَابَ المجاهد عُقبى الشَّهيد وألقى عَصَاه المضَـاف الشَّريد
وأَمسى جمَادًا عَدوَّ الجُمود وبَاتَ على القيد خَصْم القيود

ثم قال:

طَريدُ السياسةِ منذ الشَّباب لَقَد آنَ أن يستريحَ الطَّريد
َلقيتُ الدَّواهيَ من كَيْدِها وما كالسّياسة داء يَكيد
حمَلْتَ على النَّفسِ ما لا يُطَاق وجاوَزْتَ في المستطاعِ الجهُود

لقد صدق شوقي، فقد احتمل الشيخ عبد العزيز جاويش من أجل بلاده وعقيدته، ودينه، ما لم يتحمله إلا الأبرار والصديقون، وراح فذًّا بين مواطنيه ومعاصريه بالميادين التي خاض فيها معاركه وبالهدوء الذي لازمه، والابتسامة على شفتيه ووجهه يفيض دعَةً وطمأنينة وثقة.

ديـن الفطـرة

۞ تمهيد

زارني ذات يوم، وأنا في أكسفورد من بلاد الإنجليز، لفيف من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة، فما كاد يستوي بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث في أمر الشرق والشرقيين، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال، التي تباين في كثير من الوجوه، ما عليه أهل أوربا، حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام في الإِسلام فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإِسلام معنى، سوى أنه الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم، وما زادوني فيهم بصيرة، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفني على مبلغ معظم القوم بهذا الدين الحنيف.

فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل، أصول الدين الإِسلامي وقواعده وحكم بعض تكاليفه، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم، من غير أن يستهوي نفوسهم تعصب، ولا يعمي قلوبهم عناد أو جحود، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص، التي مثلت لهم الإِسلام في أبشع صورة وأقبحها، ولم يكد ينتهي بنا الحديث، حتى انطلق أحدهم قائلاً:

«يخيل إليَّ أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة في شيء». فأجبته إذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء[1] حتى تكونوا تجدعونها». وترجمت لهم هذا الحديث الشريف.

والذي يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الإِنسان بكسب أبويه، كالجدع الذي يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها.

ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الإِسلامي من عدم تكليف القاصرين وألاَّ يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير، حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم، فيؤاخذون إذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم.

فترى الإِسلام قد اعتبر القاصرين، حتى أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس، مسلمين ناجين حتى يكلفوا. فالدين الفطري لكل مولود هو الإسلام إلا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالإرث ونحوه، فإن الأطفال في ذلك تابعون لآبائهم.

---

(١) البهيمة الجدعاء: هي التي قُطع جزء من أذنها.

وبعد، فإنَّا نريد أن نذكر لك وجه كون الإسلام دين الفطرة، وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى يكبر غير مهوّد ولا منصّر لما اختار بفطرته إلا الإِسلام، ولا يمكن توضيح ذلك إلا بالبحث في بعض أصول الإِسلام وقواعده والأغراض التي يرمي إليها الشارع في تكاليفه، فنقول:

الفطرة والتوحيد

كل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدًا قد نظم هذا العالم ودبره، لا يمكن أن يشابه الممكنات في شيء من صفاتها، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز، ولا يستطاع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول.

إلى ذلك اهتدى الأعرابي بفطرته فقال: «البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير. فسماء ذات أبراج. وأرض ذات فجاج[1]، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير». فجاء الإسلام مصدقًا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد في الاستدلال شيئًا سوى أن أيقظ العقول ونبهها إلى النظر في آثار الله تعالى، فما عليك إلا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك في أكثر من آية من آياته.

نَعَمْ، ربما قال إنسان إنه لو كان التوحيد فطريًّا لما اختلف الناس في عقائدهم وتباينوا في تصوير آلهتهم، فذهبوا كما نعلم مذاهب شَتَّى حَتَّى لا تكاد تجد تشابهًا بين آلهتهم، وسنحقق لك بعد أن هذا مباين لمقتضى الفطرة، إذ منشأ

---

(١) فجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.

ذلك أن الإنسان ميال إلى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات وإلى إنكار ما ليس له في ذهنه صورة ولا حدود محصورة.

فمن ذلك ما قصّه الله تعالى في شأن معاندي أهل الكتاب حيث قال: ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [النساء/ ١٥٣].

ومن البَدَهي أن الشيء لا يصح إنكاره إلا إذا ثبت بالبرهان القطعي عدم وجوده، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والإحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهاناً ينفي به وجود الشيء، وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم في هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذي هو آية الجهل ونهاية الحمق.

جاء الإسلام في وصف الحق وإثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة، أفلا تدبرت قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة/ ٢٥٥].

لقد جمعتني المصادفة برجل مسلم من الإنجليز، لم يرجُ من إسلامه شيئًا من حطام الدنيا، ولا أن ينال جاهًا يتخذه عُدَّةً لنيل شيء من الرغائب السياسية، فقال لي:

«إن في القرآن آية لا أَمَلُّ من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها، جاءت في وصف الله تعالى بما ليس في استطاعة أحد من أئمة الأديان الأخرى، على ذكائهم وسعة اطلاعهم، أن يأتوا به» ثم تلا بالإنجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسي. فبأبيك أيها العربي هل مرت تلك الآية مرة على سمعك إلا وأنت لاهٍ عنها تلعب. أو حرَّكت بها لسانك إلا وأنت بها تعجل؟!

هذا وتتميمًا لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكليمات عثرت عليها للُّورد ماكولي الكاتب الإنجليزي الشهير إذ قال ما ترجمته:

«إن علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلي، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الأشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به، بخلاف السواد الأعظم من العامة فإن معظم أفكارهم وقضاياهم إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئًا من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية في كل أمة وفي كل جيل في كل زمن، فاختلفت لذلك صورة الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها».

«ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديمًا في دينهم من البدع، مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إلَه محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال. ويمكن القول بأن معظم الأسباب التي ذكرها (جيبون) وجعلها أساس انتشار الدين النصراني لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين في أطراف الأرض إلا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التي كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة، فإنَّ إلَهًا لم يُخْلَق وكائنًا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به إلا الفلاسفة العالمون، أما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فإنهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة إدراكهم عن أن تصل إلى القول بإلهٍ ليس له صورة محدودة في نفوسهم، فكانوا يتأففون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله أو قصور الذهن».

«طاشت[١] النفوس في الأزمنة القديمة، وضلَّت الصراط السويّ، وقست القلوب، وانتهكت الحرمات، فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم إلى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر».

«ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم في إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم، فتمثل الإله لهم في صورة آدمي مشى بينهم

(١) طاشت: خف عقلها وزلت عن الهدف.

وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال، كما كان يبكي على القبور وينام في الحظائر، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب، فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية، ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان، فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان، وكذلك اتخذوا العذراء وسيسيليا Cicilia وغيرهما آلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزُّهرة وسبع كواكب أخرى the muses آلهات لدى اليونان.. وهلم جرًّا..».

«ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية، ولكنهم لم يفلحوا».

«تجد العامة في هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم في سوق الفضائل والمكرمات، أكثر مما يميلون إلى تعرف وتفهم شيء من قواعد الدين الأساسية».

هذا ما قاله اللورد ماكولي في شأن الدين الذي يعتنقه ويذعن له، وفي الأمم التي شاركته في الأخذ به وبيان أحوالهم وقد ذكَّرني هذا - والحديث ذو شجون - ما أصاب عقول المسلمين من المسّ الذي أصاب عامة غيرهم، أفرأيت الذين يذهبون إلى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون إلى من فيها متوسلين بهم إلى من هو أقرب إليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على إصابتهم وأحق

بعبادتهم وخشوعهم؟ ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد / ١٦] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل / ٦٤] ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف / ٤٠] .

والخلاصة أن السبيل التي جاء بها الشرع الإسلامي في الإيمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هي السبيل التي يصل إليها الإنسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع إلى غير تلك السبيل.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص / ١ - ٤].

النبوة والغرض الفطري منها

ظهر النبي ﷺ في أمة أمية، دينها الوثنية، ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد، ووسائل ارتزاقها السلب والنهب، فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه.

وكان معاندو اليهود والمشركون يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة، فكان ﷺ يرجع بهم إلى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل، إذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شَقِّ الأرض ونحوه من المعجزات، ولقد نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية الخاصة بطلب المعجزات لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة إذ جاءت منفردة؛ لأنها ليست من أفعال الصفة التي سمي بها النبي نبيًّا أو الرسول رسولاً؛ ولذا كان النبي ﷺ يرجع بالقوم إلى ما هو من حدوده وإلى تدبر ما جاء به القرآن الكريم من الهداية، فإن دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الإبراء على الطِّبِّ لمن يدعيه، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ

أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٥٠ – ٥١]. ولطالما تنصَّل النبي ﷺ من إجابة مطالب العرب، وأرشدهم إلى ما قصد من شريعته وهو إصلاح شأن العالم الإنساني والقضاء على ما كان سائدًا فيهم من الضلال المبين قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام/٥٠]، وجاء في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا .أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء/ ٩٠ – ٩٣].

كم حذر النبي ﷺ الناس من اللجاج[1] في طلب المعجزات وبيّن لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء/٥٩] وقال: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ . قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام/٥٧ – ٥٨].

---

(١) اللجاج: ملازمة الأمر وعدم الانصراف عنه.

لم يكن طلب المعجزات من النبي عليه السلام ناشئًا عن تروٍّ من العرب وصدق رأي، وسلامة فطرة، وإصرار منهم على ألا يقبلوا شيئًا إلا ببرهان، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثًا أو عنادًا أو عملاً بما تلقفوه عن الجاهلية الأولى، وما أملت عليهم نفوسهم التي أخذ الضلال بتلابيبها، فكان النبي عليه السلام يدعوهم إلى العمل بمقتضيات الفطرة الإنسانية ويطلب ما لا يخالف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. [الأنعام/ ١٠٩- ١١١]، أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التي يطلبونها لا تصلح مفحمًا لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه، إذ مثلها في ذلك مثل من ادعى أن ٢+٢=٥ وبرهن على ذلك بإبرائه مريضًا من داء عضال، فإن المدعي بها أتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل أحدًا على اعتقاد صحة دعواه التي أتى بها، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم يؤوِّلون ما يأتي به أنبياؤهم من المعجزات، فقائل إنها سحر وقائل إنها من أعمال الجن المُسَخَّرةِ لهم، حتى إذا ضاقت عليهم الأسباب لجئوا إلى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز أفهامهم عن إدراك معنى تلك الآيات مع إصرارهم على الجحود والإنكار،

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة/ ٨٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت/٥] فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات.

طالما كَذَّبَ المشركون النبي ﷺ، كما فعل أسلافهم، وناله من عنائهم ولجاجهم في طلب المعجزات ومغالاتهم في العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء، ولو كانت الخوارق في يد النبي ﷺ، وكانت من البراهين التي تصح لإلزام الخصم وإفحامه، لما قعد بالنبي عليه السلام أمر عن الإتيان بها، ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسنته التي لا تتغير، وفطرته التي فطر الكون عليها ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام/٣٥].

والخلاصة أننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وألا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة إلى ما يريدون من الغايات. ومن البيّن أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التي جاء بها ذلك النبي الأمي عليه الصلاة والسلام حجة

بالغة بين يديه ونورًا مبينًا يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه؛ ولذلك نرى القوم كلما اشرأبَّت نفوسهم إلى نزول إحدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم.

القرآن والفطرة البشرية

نزل القرآن الكريم ليؤدي ما قُصِدَ منه حسب الفطرة البشرية والسنة الإلهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة، ومازال القرآن إمامًا يتبع وفيصلاً يحكم في النوازل، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه، فاستعملوا آيات من القرآن في غير ما وضعت له، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات[1] وتسخير الجن وتوسيع الرزق، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد، بل تراهم تطرفوا واجترءوا على القرآن ومنزله، فأوَّلوا القرآن طبقًا لأهوائهم وأخرجوا كثيرًا من آياته عن معانيها التي تفهم من لغته وأسلوبه وسياقه، أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى:

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق / ٢٢] وقوله:

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس / ٥٧] وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر / ٣٤] وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف / ٨٦] وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا

---

(١) الطلسمات: هو لفظ يوناني لكل ما هو غامض ومبهم.

وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت/ ١١] وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا. وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ/ ٦-٧] إلى نحو ذلك من الآيات. وإن شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات وأمثالها من الإفك المبين والجهل الفاضح فارجع إلى ما كتبوا. ولنضرب لك مثلاً شيئًا مما كتبوه فنقول:

١ – جاء في الجزء الثاني عشر من تفسير الطبري عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود/ ٤٤] حديث موضوع في وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج إنه قال: كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفي أسفلها السباع، وكان طولها في الجو ثلاثين ذراعًا، ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضَيْنَ من رجب، وأرست على الجوديّ يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعًا، وقد رفعه الله من الغرق، ثم جاءت اليمن ثم رجعت... ا هـ.

٢ – وجاء في كثير من التفاسير في تأويل قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [١١] أن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد إلى ذكر اسم الله وأن المعقبات الملائكة تتعقب على العبد، وذلك أن ملائكة الليل إذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل، ورووا في ذلك حديثًا عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان

ابن عفان على رسول الله فقال: أخبرني عن العبد كم معه من ملك. قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذي على الشمال.. وملكان من بين يديك ومن خلفك. يقول الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد/ ١١] وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل إليه، وملكان على يمينك، فهؤلاء عشرة ملائكة على كل آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل... اهـ.

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبي ﷺ، على أنه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها. وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به، مع أن سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجوه، فإن سياق الآية كان في التكلم على علم الله وإحاطته بجميع الكائنات، وعلى عظمته وتعاليه المتناهي الذي يغلب معه كل مغالب ولا يقي الإنسان دونه أي حافظ، إذ قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ. سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ. لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. [الرعد/ ٩ - ١١]. فالمستخفي بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسًا سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفي عن الله ولا الحرس يدفع عن الإنسان ما يقضي به الله على عباده. ثم بينت الآية أن سنة الله في خلقه ربط

الأسباب بمسبباتها، فخفاء الأسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها، فإن الله - الذي جعل ذلك الرباط - رباط السببية - مطّلع على خفايا الأمور محيط بما تخفيه الضمائر، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإذا تحققت أسباب أي قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مَرَّد له ومالهم من دونه من وال، فلا ينفع الإِنسان إذ ذاك حرس كثيف يتعقب عليه دائمًا يقيه شر الحوادث.

هذا ما يفهم من الآية وسياقها، فعجبًا لأولئك المفسرين أرادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا إن الضمير في قوله تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ [الرعد/ ١١] يعود على من ذكر اسم الله تعالى، وهذا لا أثر له أصلاً في الآية.

٣- ومن ذلك ما قاله بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر/٤] حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السماوات السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه في آخر الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفي كل وجه ألف فم.. إلى آخر السلسلة المعروفة، فانظر إلى هذه الخزعبلات التي يحملون عليها كتاب الله تعالى.

٤ - ومن ذلك أيضًا ما أتى به كثير من المفسرين في تأويل قوله تعالى ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد/ ٣٩] اختلف أهل

التأويل في ذلك. فقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران، وزاد بعضهم الحياة والموت، ثم انقسموا فقال بعضهم إن ذلك في ليالي القدر، وقال بعضهم إنه في ليلة النصف من شعبان. وقال آخرون إن ذلك في كل ليلة. ففي تفسير ابن جرير عن أبي الدرداء قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، يفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره أحد غيره يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، وقال أيضًا: إن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل في الساعة الأولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء» وإذا شئت أن تستقصي ما قالوه في أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم.

❁ دعاء نصف شعبان

ولعلك تتطلع نفسك إلى تفهم معنى المحو والإثبات هنا، فنقول: قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد/ ٣٨- ٣٩].

انقسم أهل الكتاب على النبي عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الأحكام، كما كان من الأحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى ﷺ من التزوُّج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان/ ٧]، وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى ﷺ شيئًا من الآيات الخارقة للعادة كإغاضة المياه ونقل الجبال وإحياء الموتى لا يجيبهم إلى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا، فكانوا يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزًا لا ينبغي له أن يدَّعي النبوة، فردَّ الله على أولئك القوم، وبَيَّنَ

لهم أن تلك الأشياء لا تنافي الرسالة في شيء فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد/ ٣٨]، كما بين أن التصرف في الكون والإتيان بخوارق العادات ليس إلا لله تعالى فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد/ ٣٨]، فهو الذي يمحو ما يشاء محوه، ويثبت ما يشاء إثباته، طبقًا لما سبق في علمه القديم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد/ ٣٩]. إذ معنى أم الكتاب أصله، وأصله هو العلم القديم الذي لا تتعلق قدرة ولا إرادة بشيء إلا طبقًا له. وبالجملة إنه لم يقصد من قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد/ ٣٩] إلا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال، ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من أن الله تعالى قد يغير ما سبق في علمه إلا الشقاء والسعادة، فإن هذا يفضي إلى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلاً، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان إذ ورد فيه: «اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًا أو محرومًا أو مطرودًا أو مقترًا علي في الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني.. إلخ»، فإن معنى ذلك أن الداعي يسأل الله أن يغير ما سبق علمه أزلاً إلى ما هو من مشتهيات نفس الداعي، وإن انقلب علم الله بذلك جهلاً.

أعداء القرآن

عاش النبي ﷺ ما عاش، ثم مضى السلف الصالح من بعده، فما سمع أن أحدًا منهم فهم من القرآن إلا ما يدل عليه حيث من هو كتاب عربي مبين، ثم خلف من بعدهم خلف افتأتوا[1] على النبي وصالح أتباعه، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة[2] والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون كتاب الله[3] ممن أنزل عليه ذلك الكتاب، فتجلوا للقرآن أعداء في ثياب أصدقاء، يلزمونه بما ينكره، ويحملونه مالا يحتمله، ويفسرونه طبقًا لأهوائهم، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه عن الغرض الذي أنزل لأجله، والله يقول ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت/٣ - ٤]، ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء/ ١٠٥]، ويقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَّٰكِثِينَ فِيهِ

---

(١) افتأتوا: افتروا عليه بالقول.

(٢) القحة هنا: بمعنى الجفوة والغلظة.

(٣) في غضون كتاب الله: في طيات كتاب الله.

أَبَدًا ﴾ [الكهف / ١-٣] وكذلك يقول: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [المائدة/ ١٥ - ١٦]. ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عن استقصائه من أمثال تلك الآيات التي تنطق ببيان الغرض الذي جاء له القرآن الكريم.

غفل أكثر المفسرين، أو جهلوا الغرض الذي أنزل له هذا الكتاب الكريم، كما كَلَّت أفهامهم عن إدراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمي إليه، فقالوا إن القرآن لم يترك فنًّا من الفنون العلمية إلاَّ أتى بشيء من مسائله، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهَلُمَّ جَرًّا، وادعوا أنه أتى من كل فن بطرف، فحملوا من التأويل ما ينبو عنه، ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم، ووسوست لهم بها شياطينهم، فشوهوه وألبسوه غير لباسه، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه، فكانوا أَضَرّ عليهم من العدو المبين.

لنرجع إلى ما ذكره أولئك المفسرون في شرح إرم ذات العماد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، وإلى ما قالوه في أمر الزلازل والثور الحامل للأرض، ووصف يأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان[1] حينما

---

(١) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى.

يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دمًا، إلى آخر ما قالوا، كما ألفتك إلى ما قالوه في تعليل ما يشعر به الإنسان من سخونة مياه الآبار في الشتاء، وبرودتها في الصيف، إذ عللوا ذلك بأن ليالي الشتاء طويلة، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل في جوف الأرض كان تأثيرها في المياه التي في جوف الأرض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها في أثناء الصيف. هذا بعض ما أتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى، فأضحكوا منهم الصبية والبُلْه، فضلاً عن العقلاء من الناس، كما أنهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم، فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالإنكليزية يأتي واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب، وأولئك أئمته، فيا لله من الصديق الجاهل.

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه، فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن. ألم تر إلى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين: أحدهما باطني، والآخر ظاهري، وادعوا أن الرسول الذي أتى به لم يصل إلى إدراك ما فيه من المعاني الباطنية، مع أنه يقول ما معناه: أنا أعلم بكتاب الله تعالى، ولو علمت بأعلم مني لرحلت إليه، أو كما قال.

أرعِني سمعَك أقُصَّ عليك أن المتدبر للقرآن يرى أن النبي ﷺ ما سئل في شيء مما لم يبعث لأجله إلا صرف السائل عن قصده، وتلقاه بغير ما يترقب تنبيهًا

إلى أنه الأولى والأليق بما هو من حدود الرسل، ووظائفهم من الهداية والإرشاد وتبليغ الشرائع، ينوه إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء/ ٨٥] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة/ ١٨٩] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا. فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ. إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ. إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات/ ٤٢ – ٤٥]، فبين الله في هذه الآيات أن وظيفة الرسل الإنذار وتحذير العالم من تلك الساعة التي هي آتية لا ريب فيها، وليس وظيفتهم تعيين وقتها. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه/ ١٠٥ – ١٠٧]. تدل هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آنفًا من أن النبي ﷺ في إجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم ألاّ يسألوا إلا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها، رجوعًا بهم إلى السنة الفطرية.

هل أُسِّسَ الإسلام على السيف؟

لهج[1] معظم الأوربيين، وضعاف العقول من المسلمين، بأن الإسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه في عالم الوجود إلا لأنه سعى والسيوف أمامَه تُمَهِّدُ له السبيلَ، وتُذَلِّل بين يديه العظماءَ، وتُلْجِئ المستضعفين إلى اعتناقه حقنًا لدمائهم، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم، وقد ضربوا الأمثال بما قام به النبي ﷺ من سراياه[2] ومغازيه، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده، على أنهم لو قرءوا القرآن، وشيئًا من التاريخ، وسيرة النبي ﷺ، وعرفوا شيئًا من أخلاق العرب وعاداتهم في ذلك الوقت، لما تطرق ذلك الخطأ إلى عقولهم، ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم، حتى يرموا النبي ﷺ وصالح سلفه بما هم براء منه. نعم إنه لا يسعني أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الإسلام، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه، ولكنني أريد أن أتكلم هنا في الإسلام من حيث هو، كما أريد أن آتي على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبي ﷺ وحروبه، لترى أنه ﷺ ما بدأ أحدًا بعدوان في جميع ما أقامه من الحروب، وما يتذكر إلا أولو الألباب.

---

(١) لهج: ثابر ولزم واعتاد.

(٢) سراياه: جمع سرية وهي قطعة من الجيش ما بين خمسة إلى ثلاثمائة.

لا حاجة إلى أن أذكر هنا ما كان عليه في بدء الدعوة من الانفراد والضعف، وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى، فإن هذا ما لا يرتاب فيه أحد.

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، فجعل النبي يُسِرُّ بدعوته إلى مَنْ يَثِقُ بِتَوَقُّدِ فِكْرِه، وتَمَكُّنِ الإنصاف من قلبه. فلم يسلّ لتأييد رسالته إلا سيف الهدى والحجة الدامغة، فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفاري، ومن السابقين إلى الإسلام خالد بن الوليد جاء النبي فقال له: «إلام تدعو يا محمد؟» فقال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وألاَّ تقتل ولدك خشية الفقر، وألاَّ تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألاَّ تقتل نفسًا حرم الله قتلها إلا بالحق، وألاَّ تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل في قولك ولو كان على ذوي قرباك، وأن توفي لمن عاهدت» فأسلم، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في الإسلام غير مهددين ولا ملجئين[1]، ولكن طائعين منصفين مدركين الفرق بين ما كانوا عليه من الضلال، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف. ولم يدفعهم إلى الدخول في الإسلام إذ ذاك رغبة في جاه، ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع، فإن أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم جاهًا، وأقوى عصبية، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذي أطاعوه، وتبعوا شرعه، واحتملوا الأذى في تأييده ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر/ ٢١].

(١) ملجئين: مضطرين.

ثم جهر النبي ﷺ بالدعوة، فسخرت منه قريش، وكانوا يضحكون منه في مجالسهم، وهو مع ذلك لا ينثني عزمه، ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم[١]، وتقبيح آلهتهم، فأضمروا له العداء والبغضاء ثم جاءوا إلى أبي طالب عمه وقالوا له: إن لك شأنًا وشرفًا ومنزلة مِنَّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا، فإما أن تكفه أو ننازله[٢] وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا، فعظم على أبي طالب فراق قومه، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه. فقال له: يابن أخي، ابق على نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيقه. فظن الرسول أن عمه خاذله، فقال: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه. ثم بكى وولى. وقد صادف النبي على إثر ذلك من أذى قريش ومناوآتهم[٣] واعتسافهم[٤] ومؤامراتهم ما خُلِّد في التاريخ. ومن ذلك ما رواه البخاري قال: «بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ» وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر/ ٢٨].

(١) تسفيه الأحلام: الاستخفاف بالعقول.

(٢) ننازله: نقاتله.

(٣) مناوآتهم: معاداتهم.

(٤) اعتسافهم: أخذهم بالقوة والعنف والظلم.

ولقد عَمَّ الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد إلا أصابه منه حظ كبير. ذلك أبو بكر الذي كان في الجاهلية سيدًا شريفًا اشتد عليه أذى قريش، حتى أجمع رأيه على الهجرة إلى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله في داره فيصلي فيها ما شاء، ويقرأ ما شاء ولا يؤذي قريشًا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم، فلما ابتنى أبو بكر مسجدًا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت الله عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلى ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنِّي أخفرت[(١)] في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما في البخاري بتصرف).

تفاقم الخطب[(٢)]، وأحدقت[(٣)] الفتن بالمسلمين، حتى عجزوا عن احتمالها، فأشار النبي ﷺ عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة. فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة، فلما أعيت قريشًا الحيل، عزموا على منابذة[(٤)] بني هاشم وبني المطلب وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدًا ﷺ للقتل. وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فأمر النبي ﷺ جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة، فهاجر معظمهم.

---

(١) أخفرت: نقضت عهده وغدرت به.

(٢) تفاقم الخطب: عَظُمَ الأمر.

(٣) أحدقت: أحاطت.

(٤) منابذة: فراق عن خلاف وبغض.

ولما رأى النبي ﷺ من قريش ما رأى جعل يخرج في الأسواق العربية، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه، فكان منهم من يرده ردًّا جميلاً، ومنهم من يلقي عليه قولاً ثقيلاً، حتى إذا جاء رؤساء الأوس إلى مكة ليحالفوا قريشًا على الخزرج جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له، أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئًا» ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض إلا قليل حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به، ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلاً قليلاً، فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون في إيذائهم للنبي، على ما هو في كتب السنة الصحيحة. فلما علموا بما حالف الأنصار عليه النبي ﷺ أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابًّا جلدًا ويجتمعوا أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلها، فألهم الله النبي ﷺ جميع ما دبر له أعداؤه، فخرج هو وصاحبه أبو بكر إلى المدينة لينزل فيمن عزّروه[١] ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.

---

(١) عزروه: أعانوه.

أسباب الغزوات

هكذا كان مجمل بدء الدعوة الإسلامية، وإنني هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئًا من ذلك، أو يدّعي أن سيفًا أعمل في خلال تلك السنين. فما عليَّ إلا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا، مختارًا أشدها وأهمها في إظهار الدين، فأقول: أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج/ ٣٩-٤٠]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ. وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ. فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة/ ١٩٠-١٩٢]. فلم يُبح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم، فلما تمالأ[1] على المسلمين غيرهم

(١) تمالأ: تشايع واجتمع.

من قبائل العرب، أباح الله للنبي أن يقاتل كل معتد عليه فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة/ ٣٦] وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال/ ٥٨]، فانظر إلى ما شرعه الله للمسلمين من القتال، أتجده يخالف في شيء ما يسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس؟ كلا. فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ولم يبح لهم مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم.

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبي ﷺ وهموا بقتله، وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل إضعافِ شوكتِهِم وفَلِّ غُرُورِهِم، حتى لا يتمكَّنُوا من العودة إلى محاولة قضاء مآربهم من النبي ﷺ، فإنه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد، فكانوا يتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء على دينه وشيعته، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم، فكان من الحزم وسداد الرأي أن يقعد النبي ﷺ لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل، فكان يرسل السرايا، ويخرج بنفسه في المغازي، حتى لا تمر عير لقريش إلا صادرها، وحرم المشركين مما فيها من الأمتعة، فكان مرة يصيب منهم، وتارة يخطئهم. فمن أكبر الغزوات التي انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى، خرج النبي ﷺ مترصدًا أعظم عير[1] لقريش آتية من الشام جمع فيها

---

(١) العير: قوافل الإبل والحمير والبغال.

غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية لهما مثقال فصاعدًا إلا بَعَثَا به في تلك العِير.

فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول في رجاله أرسل إلى قريش فنفروا سراعًا لحماية تجارتهم، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً فالتقى الجمعان، وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران / ١٢٣].

وكان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوقون أن يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التي أيّد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول، فبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فلقد قال رؤساؤهم للنبي ﷺ، وقد حذّرهم عاقبة البغي: «لا يَغُرَّنك يا محمد ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقي»، فبنقضهم ميثاقهم، وبدئهم بالعداء سار إليهم النبي ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فلما أنِسُوا[١] من أنفسهم الضعف، واستولى على أفئدتهم الرعب، سألوا الرسول أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة، ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال، فقبل منهم ذلك.

---

(١) أنِسُوا: أحسُّوا.

وقد عزم النبي ﷺ على الذهاب إلى مكة، لتأدية نسك العمرة، فخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدي إيذانًا بأنه لم يذهب إلى مكة محاربًا، فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية، ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش ليعلمهم مقصده، فذهب عثمان وبلّغ ما حُمِّل، فقالت قريش: إن محمدًا لا يدخلها عنوة أبدًا، ثم إنهم حبسوه. فشاع أن عثمان قتل، فقال عليه الصلاة والسلام حينما بلغه ذلك الخبر: «لا نبرح حتى نناجزهم الحرب» وبايع أصحابه على القتال، فخافت لذلك قريش، فأرسلت سهيل بن عمرو في طلب الصلح، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التي منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين.

ثم انصرف النبي والمسلمون قافلين إلى المدينة في تلك السنة، وعادوا لقضاء عمرتهم في العام التالي، ثم عمل النبي ﷺ بمقتضى شروط الصلح، فلم يخفر[1] ذمة، ولم ينقض عهدًا، حتى بدأت قريش بالعدوان.

ذلك أنه قد دخل في عهد النبي ﷺ قبيلة يقال لها خزاعة، كما دخل في عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة، وثارات قديمة، فاتفق أن رجلاً من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي ﷺ على مسمع من رجل خزاعي، فقام هذا فضربه، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر

(١) خفر: هنا بمعنى غدر ونقض عهده.

واستشاطوا غضبًا، فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة، فأمدتهم قريش بالعدة والرجال، ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم، وقتلوا منهم، فأرسلت خزاعة إلى النبي ﷺ تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها.

أما قريش فإنها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذي تم بينها وبين المسلمين، فندمت على هذه الفارطة[١] التي ارتكبتها بلا تروّ ولا تبصر، فأرسلت إذ ذاك أبا سفيان زعيمها إلى المدينة ليوثق عرى الصلح، ويمد في أجله، فخرج حتى جاء إلى النبي ﷺ وعرض عليه ما جاء به إلى المدينة، فقال له عليه الصلاة والسلام: هل كان من حدث بعد؟ قال: لا. فقال الرسول: فنحن على مدتنا الأولى وصلحنا السابق، ولم يزد على ذلك. ومن المعلوم أن قريشًا بفعلتها قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق، وقد شعر زعيمها بما أضمره النبي ﷺ لقريش، فتوسل إليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم فلم يفلح.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر، وأخبر أبا بكر بما عزم عليه، فقال له أبو بكر: أو ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: نعم، ولكن غدروا ونقضوا. ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة، وسار النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل إلى مكة، حتى إذا وصل إليها أمر خالد بن الوليد أن

(١) الفارطة: مجاوزة الحد في القول والفعل.

يدخل من أسفل مكة، ودخل هو من أعلاها، ونادى مناديه: «ألا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». نعم إنه أهدر دم جماعة وإن تعلقوا بأستار الكعبة؛ لأنه اعتبرهم كما يقال في هذا العصر «مجرمين سياسيين».

واعلم أنه لم يقاتل في هذا الفتح إلا جيش خالد بن الوليد، ولكن بعد أن تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلاً، وقتل من جيشه اثنان، فكان دخوله مكة عنوة.

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الأوثان والأدناس، ثم خطب في الناس، فبيّن كثيرًا من الأحكام، ثم ختم خطبته بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات/ ١٣] .

ومن آدابه ﷺ وشيمه الكريمة، ما ورد في كتب السنة الصحيحة من أن رجلاً جاء عقب فتح مكة، ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام، فجاء وهو يرتعد خوفًا، فقال له الرسول: «هوّن عليك فإني لست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد(١)».

(١) القديد من اللحم: ما قُطّع طولاً ومُلّح وجُفف في الهواء والشمس.

وعلى إثر هذا الفتح المبين، وتدمير عصابة الوثنيين، أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، إلا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الأولى، فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف، وقالوا: لقد فرغ محمد ﷺ من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا. أما النبي ﷺ فإنه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه، أجمع رأيه على المسير إليهم، فخرج في اثني عشر ألفًا حتى وصل إلى العدو، فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين إذ أعجب المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئًا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولّوا مدبرين، لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأيدهم بروح منه، فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمته هي العليا، والله عزيز حكيم.

هذه هي جُلُّ الغزوات وأقواها في تأييد الإسلام وإعلاء كلمته وتقوية سلطانه. فهل رأيت في جميع ما قصصته عليك – وإنه لحق – أن النبي بدأ أحدًا بعدوان؟ كيف وهذا كتاب الله يقول: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة/ ١٩٣].

ارجع إلى كتب السير، وجرّد نفسك من شوائب التحيّز، فلن تجد مَغْمَزَ إبرة للشك فيما قَصَصْته عليك.

وخلاصة القول إن البصير بالتاريخ، يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسلّ في حياته سيفًا لإرغام أحد من الناس على الدخول في دينه، ولكن الهدى هدى الله يهدي من يشاء.

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا إلى الله ودينه، سالكين طرق العسف والإرهاب، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة، كما قال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل / ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت / ٤٦].

انظر إلى إبداع كتاب الله في الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجّة؛ حيث يقول: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران / ٧٩].

دعوة النبي ﷺ عامة لجميع المكلَّفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية، فتراهم يتشدقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان، مختلفة باختلاف أهلها، فيراعى في القوانين والشرائع الأماكن، وطبقات العالم، ودرجات ارتقائها في التحضر، والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات، التي تتفاضل فيها الأمم، وتتفاوت طبقاتها باعتبارها، ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم، فحكموا بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبي عربي، لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى إلا قليلاً جدًّا، كما أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من الأمم المختلفة، والأحوال المتباينة، والعصور التي تكاد تكون متباينة في مقتضياتها ومطالبها وأحكامها.

فكأني بأمثال أولئك القوم، قد أقاموا على أنفسهم الحُجَّة، بأنهم لا يفقهون ما يُتلى عليهم من كتاب الله تعالى، يسمعون القرآن، وإنما مثله فيهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، ويرون آياته بأعينهم، وإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

الإسلام صالح لكل زمان

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم، أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الإسلامي، دين الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها في كل زمان ومكان، صالحًا لكل أمة وكل جيل، مصلحًا لكل من استمسك بسببه المتين، وعمل بكتابه المبين.

اعلم أن دين الله في كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها، وإنما الذي يختلف باختلاف ذلك هو الأحكام الفرعية، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٦٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء/ ١٦٣] الآية.

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به، وتذكير الناس أن يتمسكوا به، فما كان له أن يبطل حقًّا، أو ينكر صالحًا، أو يجحد نبيًّا، أو يستقبح حسنًا، ولكنه جاء مؤذنًا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب، وأنه

آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى إليه أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا، وبأن من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدًا. فلم يأت النبي ﷺ ببدع من الشرائع، ولكن بما قرره الله من الحق، وأوحى به إلى أنبيائه من قبل، كما قال عز من قائل: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة/ ٤٨] على أننا نعلم ما تقرر في الإسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، فترى من جميع ما تقدم أن الإسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة في اعتبار ما سبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة، سواء ورد بها دين إبراهيم، أو دين عيسى ابن مريم أو غيرهما. نعم إن الإسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة، التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء/ ١٦٠-١٦١]، فإنهم لم يزالوا كذلك، حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصًا على المؤمنين رؤوفًا بهم رحيمًا لهم، فأباح الطيبات من الرزق، ولم يكلف نفسًا إلا وسعها، فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع والعادات، والقوى البشرية على اختلافها، ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

ربما قيل كيف ذلك؟ مع أن أكثر الأحكام النظامية، والنواميس التعاملية، قد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والأمراء، فلم يُحِطْ الإسلام في بدء نشأته بكل ما يلزم البشر، من القوانين والأحكام. فنقول: إن جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام، إنما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف، من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالأحكام العامة، التي قررها لهم الشرع، على ما سنأتي على تفصيله قريبًا، فكل ما جاء مبنيًّا على قواعد الدين فهو دين، سواء نص عليه الشارع نفسه، أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح، وهذا هو كون الدين الإسلامي دين الأبد وختام الأديان. ولنأت لك الآن بشيء من أصول الإسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفًا فتتدبره، فإن للدين - كما سترى- قواعد أصلية ثابتة، تقدر بها الأحكام، حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة، في الأزمان المختلفة، بين الأمم المختلفة.

أصول الإسلام

١ - الأصل الأول: الاجتهاد، وأعني به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم، والسنة الصحيحة، حسبما تصل إليه الأفهام السليمة، فكل من يعرف لغة القرآن، لا ينبغي له بحال ما أن يقلد غيره تقليدًا متى قدر على فهمه، وفهم الكتب الصحاح في السنة، فلم ينسدّ، ولن ينسدّ باب الاجتهاد، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية، ويقيموا عليها أوصياء من الأولين، حتى تسير كما ساروا، وتقول بما قالوا، فإن السّلف الصالح رضي الله عنه، ما كان مقلدًا ولكن تصدى لكتاب الله، فعمل بما وصل إليه إدراكه، وبلغه جهده، ولو كان بعض ذلك خطأ في الواقع، فإن الله لم يَحْرِم من الأجر أيَّ مجتهد. نعم إنه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجرًا واحدًا، ولمن اجتهد فأصاب أجرين. إن أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الأول منه لأسباب منها: انتشار العجمة في المسلمين، وعدم استطاعة كثير منهم - وكانوا لا يحسنون العربية - أن يفهموا القرآن على وجهه، ومن الأسباب أيضًا فيما أظن، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم، وعدم معرفتهم أحكامه ولغته، وإلا فكيف عموا عن قوله تعالى: «**ولقد يسّرنا** - سهّلنا - **القرآن للذكر** - للتذكر - **فهل**

من مدّكر» [القمر / ١٧]؛ أي فهل من طالب علم منه، ومتفهم له فيعان عليه، أم كيف غفلوا عما قبح الله به القدماء من المشركين، وندد عليهم إذا قلدوا آباءهم، وقَصَروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا، وفيما عملوا حيث قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة/ ١٧٠]، وإذا شئت أن تستقصي ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين، والتشهير بهم، فعليك بقراءة القرآن الكريم، فستجد منه ما فيه مقنع. وما يتذكر إلا أولو الألباب.

٢ – الأصل الثاني: القصد في الأعمال، وإقامة ما لا يشق على النفوس من التكاليف، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فكل ما ليس في وسع الإنسان أن يقوم به، فلا تكليف فيه. والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله، ولا يوقعه في العناء والتعب، فإن هذا هو ما يفهم من التعبير، بكلمة وسع التي معناها السعة، وعدم الضيق. ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو في الدين، فقد ورد في البخاري: «لن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه» وورد فيه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلجة[١] والقصد[٢]»، ومن هنا لا ينبغي لمسلم أن يتغالى في دينه، وأن يتباعد عن المباحات، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها، فإن هذا ليس من الدين في شيء.

---

(١) الدلجة: سير الليل.

(٢) القصد: التوسط في الأمور قولاً وفعلاً.

واعلم أن المتغالين في دينهم، أقرب الناس إلى العجز عن القيام به، واحتمال تكاليفه، ولقد قال النبي ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإنْ قَلّ»، وقال: «إن المنبت[١] لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج/ ٧٨] وقال أيضًا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة/ ١٨٥]. ومما يناسب هذا الموضوع، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم، ومنتحليه في مصر، وذلك لبس القبعة فلقد هاج وماج بعض مدعي العلم من قال بحل لبسها للمسلم. فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه. إن القبعة ليست لباسًا دينيًّا وإنما هي لباس أمم مختلفة الملل والنحل، فمنهم النصراني، ومنهم المجوسي، ومنهم اليهودي، ومنهم العربي المسلم، يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها. نعم إنها تختلف أشكالها وصورها، ولكنها ذات اسم واحد، تندرج تحت نوع واحد.

فإن كان شبهة أولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبي ﷺ ولا لسلفه الصالح، قلنا إن هذا لا يقتضي التحريم، فهل رأى النبي ﷺ العمائم التي فوق رءوسنا أو القفاطين التي تتدلى أكمامها، أو الجبب (الفرجيات).

فليفقه أولئك القوم أنهم يَقْفُون[٢] ما ليس لهم به علم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء/ ٣٦]، إن الطيالسة[٣] التي استعملها

(١) المنبتُّ: هو المسافر الذي لايريح دابته في السفر، فتهلك منه. (٢) يَقْفُون: يَتْبعُون.
(٣) الطيالسة: جمع الطيلسان، وهي ضرب من الثياب المأخوذة عن الفرس.

العلماء في خلافة العباسيين إنما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم، كما أن هذه الجبب الواسعة المستعملة في مصر، إنما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية.

واعلم أن من موضوع هذا الباب، تحرُّج بعض شبيبة المسلمين، أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى إذا سألتهم في ذلك قالوا: إننا لا يمكننا التحرز من النجس، لا سيما قطرات البول، وكثيرًا ما يقضي الإنسان حاجته، فلا يجد من الماء ما يتطهر به. ومنهم من يقول: إن من المشقة أن أخلع نعلي، وألبسهما عند كل صلاة، ولا يمكنني أن أصلي بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين؛ لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة، التي تكون عادة في الطرقات. فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التي هي سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى، وناهيته عن الفحشاء والمنكر، انصياعًا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون.

فمن لي أن يرى أحداث[1] المسلمين ما رواه البيهقي مرفوعًا «إذا جاء أحدكم المسجد، فليقلب نعليه، فلينظر أفيهما خبث، فإن وجد فيهما خبثًا فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما»، وما رواه البيهقي أيضًا عن أم سلمة: «أنها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشي في المكان القذر، فقالت أم سلمة: قال

---

(١) أحداث: شباب.

رسول الله ﷺ يطهره ما بعده» وفي رواية له عن أبي هريرة رضي الله عنه: قلنا يا رسول الله إنا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الطرق يطهر بعضها بعضًا»، وفي حديث البيهقي مرفوعًا: «إذا وطِئَ أحدكم بنعليه في الأذى فإن التراب له طهور»، وقد رأى المالكية أن المعتمد في مذهبهم أن إزالة النجاسة سنة أعني أنها لا تبطل الصلاة بوجودها وإن كانت مكروهة معها. فلم لا يصلي ذلك المسلم في نعليه؟ ولم لا يصلي وفي سراويله قطرات البول؟ ولم لا يسهل عليه التحرز منها؟ ولم لا يصلي المسلم في بلاد لم يستطع أن يستنجي فيها؟ أيظنون أن الله يريد بهم العسر مع أن الله يقول في قرآنه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة/ ١٨٥] .

٣ – الأصل الثالث: من أصول الإسلام أنه لا ضرر ولا ضرار، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله، كما لا يجوز له أن يضارَّ غيره، فيدخل في ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق، وشرب المسكر، والمقامرة، وإيذاء الغير بأي نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم، كقتل النفس، والسرقة، والرشوة، والخداع، والتمويه، والتدليس، وشهادة الزور.. وهلم جرًّا.

لعلك اطّلعت على ما قرره الفقهاء من إباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة. منها أن يكون بالإنسان بخر[١]، أو رائحة ثوم أو بصل، أو به مرض معدٍ كالجذام[٢] والبرص[٣] ونحوهما من كل ما يضرّ، أو تَشمَئِزُّ منه نفوس المصلين، ولا يخفى أن هذا الأصل ينبني عليه كثير من الأحكام الفرعية، والنوازل اليومية في كل عصر.

٤ – الأصل الرابع: سد الذرائع[٤] وإعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات، فكل ما أفضى إلى مباح فهو مباح، وكل ما وصل بك إلى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك في محرم فهو محرم، فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدّرها بمعيار غايتها. ولنضرب لك مثلاً ما جاء به الشرع من إباحة تعدد الزوجات، فإن هذه الإباحة قد قيدها الشرع بقيود منها: العدل، ومنها: أن لا يفضي التزوُّج إلى ضرر أو محرم أو فساد، فإذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على إثر التعدد من الشقاق، وإفساد ذات البين وإغفال الرجل أمر أولاد إحدى الزوجات إرضاء لغيرها، أو قسوته عليهم وإيذائه لهم، وإذا قدرنا تلك الوسيلة وهي تعدد الزوجات بما تفضي إليه من المضارّ، فيمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج غير واحدة.

---

(١) البخر: النتن يكون في الفم.

(٢) الجذام: هو داء معروف يجذم الأصابع ويقطعها.

(٣) البرص: هو بياض يقع في الجسد.

(٤) الذرائع: الوسائل.

٥ – الأصل الخامس: من أصول الدين الحنيف إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به، فإذا غلب على الظن أن العمل مفض إلى محرم أو مكروه فإنه يعطى حكم غايته، فيحرم أو يكره، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق، حتى ينبني عليه تحريم ذلك على الرجال، فإننا على تسليم أنه غير محقق جدلاً، لا يسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينًا.

٦ – الأصل السادس: من أصول الإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض. وأولى بي هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده في مقالات الإسلام والنصرانية إذ قال ما نصه:

«اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا ننظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما يدل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في فهمه. والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل، وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ، كل ذلك مهّد بين يدي العقل والسبيل، وأزيل من أمامه جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد. فماذا عسى يبلغ إليه نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟ وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاّب العلوم،

إذا لم يسعهم هذا الفضاء؟ إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها[١]، ولا سماء بأجرامها وأبعادها».

ولا يخفى أن تقرير هذا الأصل في الإسلام، يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدي لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه، بل إنه فوق ذلك قدمه في العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول.

٧ – الأصل السابع: وجوب امتثال ما قاله النبي ﷺ شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

وقد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل إرشاد العالم إلى طريق النجاح والاستقامة، وإقامة العدل فيهم، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة. وبَيَّنَّا أيضًا أن الإسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض. وقد علمنا النبي ﷺ أن نمتثل كل ما جاء به عن الله وأنه لا يجب الأخذ بما ورد عنه في أمور الدنيا، ولنأتك بشيء مما ورد في ذلك:

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحون، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح، فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئًا. قالوا: فأخبروا

---

(١) وهاد: ما انخفض من الأرض كالحفر.

بذلك فتركوه، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنًّا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل.

وروى مسلم أيضًا عن رافع بن خديج قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون[١] النخل، فقال ما تصنعون؟ قالوا: كنا نلقحه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا. فتركوه فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر.

وروى أيضًا عن أنس أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقحون، فقال لو لم تفعلوا لصلح. قال فخرج شيصًا [٢]، فمرّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال أنتم أعلم بأمور دنياكم.

كأني بك ترى ما حكم به النبي ﷺ على نفسه، وهو سيد المنصفين، صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر، وأن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم، وأن عصمة الرسل إنما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئًا من شرائعه ونواميسه. ومن هنا نعلم أنه لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي ﷺ من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبعها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به إليه من الشرائع.

---

(١) يأبرون: يصلحون. (٢) الشيص: رديء التمر؛ لأنه لم يُلَقَّح.

٨ – الأصل الثامن: المساواة بين المسلمين في الأحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد، فإن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فلا يَفْضُل أَحَدٌ أحدًا في اعتبار الشرع إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]، فقد جعل الله الغني والفقير، والمأمور والأمير، والعزيز والحقير، سواء في أحكامه، سواء في ذلك الأحكام الدنيوية والأخروية، واعتبر ذلك بصيغ العموم، التي تراها في غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة/ ٧-٨]. ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم، طالما حابوا الملوك والأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصًا منهم على استرضاء من لا يضرون ولا ينفعون راضين بما سخط الله عليهم، إذ فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الأقوال، وخالفوا أمر القرآن كما في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران/ ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام/ ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال/ ٤٦]، وإذا أردت أن تأتي على ما ورد عن النبي ﷺ في الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة.

٩ – الأصل التاسع: أن لا تزر وازرة وزر أخرى، ففي سورة الطور ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [٢١] وفي سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [٣٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام / ١٦٤] وفي سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [٣٨-٤١].

ولا يقال إن من أحكام الشريعة ما لا يقتصر على الجاني كما في دية القتيل فإنها على عائلة القاتل، وكما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال / ٢٥]؛ لأنا نقول في أمر الدية إنما ألزمت بها العائلة في الشعوب التي لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث إنهم يكونون يدًا واحدة على من سواهم. فإذا أصاب أحدهم شيء تعاهد الباقي على الأخذ بثأره أو المطالبة بديته، كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن؛ ولذلك نجد الفقهاء ينصّون على أنه لا عاقلة[١] في الأمم التي لاتتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الأمم التي لا أثر فيها لتلك اللحمة[٢] التي تجعل الحي أو البطن أو القبيلة كأنها رجل واحد فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم، وهذا من الوجوه التي تبين لك كيف جاء الإسلام مطابقًا للأحوال البشرية، ملائمًا لها على اختلافها.

---

(١) العاقلة: الدية.

(٢) اللُّحمة بالضم: القرابة التي تصل بين شيئين.

١٠ – الأصل العاشر: أن جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الإمام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقًا لما يقتضيه العرف العام كما أن من أصوله جواز التحكيم.

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهي قليلة جدًّا بالنسبة لما ترك الشارع أمر تحديده إلى الحكام ونوابهم، فقد أجمع الأئمة على أن التعزير مشروع في كل جناية لا حد فيها ولا كفارة، وجوّز الإمام مالك للإمام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة.

أما التحكيم فقد أجازه الشارع في الأصول المالية، وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلاً من أهل النظر والرأي فيما شجر بينهما، وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار قول الحكم أمرًا مقتضيًا لا يتوقف في تقريره وثبوته على أن يقرره قاض شرعي ولا أمير ولا حاكم.

١١ – الأصل الحادي عشر: تقدير كثير من الأحكام بما تعورف بين الناس. ولا يخفى أن هذا الأصل قد وَسَّعَ دائرة الأحكام الشرعية حتى وسعت تقريبًا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فإنه يراعى في تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين، فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى، وقد كثر التعبير بكلمتي «المعروف» و«العرف» في القرآن العزيز، وعلّق عليهما تقرير كثير من الأحكام، ومن البَدَهِي

أنه لا معنى للمعروف والعرف إلا ما كان متعارفًا مألوفًا غير مستنكر، كما أن المنكر هو ما لا يجري به عرف وألفة من الآيات المحتوية عليهما قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد/ ٢١]، وقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة/ ٢٢٩]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء/ ١١٤]، وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء/ ١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة/ ٢٣١]، وقوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق/٦]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة/ ٢٣٣]، وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان/ ١٥]، وقوله في شأن الأوصياء: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء/ ٦]، فترى في هذه الآيات، وفي كثير غيرها، أن الله تعالى فوض أمر تقدير كثير من المعاملات، إلى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما، بل أطلق الأمر إطلاقًا، ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان، وإذن كان من القصور تعرض بعض الفقهاء إلى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة، وتقدير كثير من الأحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبي ﷺ، كما أن من جمود القريحة[1] وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير

(١) القريحة: ملكة الإبداع.

ما يتبادر منها، فإن هذا تخريج للكتاب العربي المبين على غير ما أريد منه. ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال. فمن ذلك كلمات «الصالحين» و «الصالحات» و«صالحًا» في كثير من الآيات، فإن المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سيئًا، كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة/ ١٠٢]، فإن هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيِّئ فهو غير صالح وأن كل سيِّئ فهو غير صالح وأنه لا صلاح في سوء، فيدخل في ذلك الملك الجائر، والحاكم الذي أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد في عروقها وتمشّى الخلل في أطرافها حتى أصبحت لا تزداد إلا نقصًا ولا تعظم إلا فسادًا، فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه، ولو قطع الليل تسبيحًا وقرآنًا. ومن هنا فسّر أستاذنا قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٥] بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لأنفسهم ما استطاعوا من القوة وأحسنوا إلى أنفسهم فكاتفوا الأمم في الأخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات إلا من أسبابها، ولم يأتوا البيوت إلاَّ من أبوابها.



التوكل غير التقاعد

ومما ينخرط في هذا الباب خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذي حضّ عليه القرآن غير مرة، إذ قالوا إنَّ التوكل هو تفويض الأمر إلى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة، ثم إن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة[1] من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات. ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجته، ومن قرأ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق / ٣] كفاه الله مئونة السعي لطلب الرزق من معاهده العاديَّة. ولقد كثر هؤلاء في المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيرًا من النعم وأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

نَدَّدت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالإسلام والمسلمين، لما نزل بهم من الضعف، وانحلال العقدة والفشل، وزعموا أن منشأ ذلك هو أصول الدين الإسلامي، محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين، وبما كذبوا على الله

---

(١) البُلغة: ما يُكتفى به من العيش.

في تأويل آياته الكريمة نحو: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم/ ١٢]، ونحو: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود/ ٥٦]، ونحو: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق/ ٣]، ونحو ما ورد في الصحيح من قوله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا[(١)] وتروح بطانًا[(٢)]».

إنني لا يسعني هنا أن أفنّد جميع ما قيل في هذا المقام لضيقه، ولكن حسبي أن أنبهك إلى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة، وبرهان واهن، فإن نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الإسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد، لم يصبهم إلا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما أرشدهم إليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية، فإنه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات، وخلق ما بينهما من لحمة السببية. فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء، بل إنه نفس التوكل، وما تفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق، والتقاعد عن الكسب والتحصيل، مما أفضى بهم إلى الاضمحلال، إنما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم.

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه، وبجميع أعماله إلى أن لكل شيء سببًا لا يمكن الحصول عليه إلا باتخاذ ذلك السبب. أو ما سمعت

---

(١) خماصًا: جياعًا ضامري البطن.

(٢) بطانًا: ممتلئة البطون.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ [النساء/ ٧١]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ [الأنفال/٦٠]، ونحو: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى/ ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات.

على أنك لو تأملت قليلاً في قوله ﷺ: لرزقكم كما يرزق الطير.. الحديث، لتجلى لك الأمر واضحًا لا لبس فيه، فإن النبي ﷺ لم يقل - لرزقكم كما يرزق الطير تمكث في أوكارها والله يرسل إليها أغذيتها - بل قال: تغدو خماصًا وتروح بطانًا.

وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت به الأرض وقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقال رجل من القوم: ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ [الليل / ٥- ٧] .

على أن الله سبحانه وتعالى بَيّن لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة، وأنها من الأمور الفطرية التي فطرت الممكنات عليها، فقال في الكتاب العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد/ ١١] .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ﴾ – أي أكثرنا– ﴿مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء/ ١٦]. فليتق الله المسلمون في دينهم، وليتباعدوا به عن النقائص التي شوهوه بها، وعرضوه بسببها إلى طعن الطاعنين وغلو الأفكين[١].

والخلاصة أن الدين الإسلامي، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة وأشباهها، جاء صالحًا لأن يبتغي بواسطته كل خير في كل زمان ومكان. ومن هنا يتضح لك جليًّا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، وأن شرعه خاتم الشرائع الإلهية، كما أنه لم يخالف في شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التي فطر العالم عليها؛ ولذلك لا حرج علينا في تسميته «دين الفطرة».

(١) الأفكين: المكذبين والمحدثين بالباطل.

صفــات المؤمنـين

وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الأمم قصار النظر، فرأينا أن نأتي عليها هنا تتميمًا للغرض الذي وضعنا له هذه العجالة، إلا أننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد في القرآن الكريم من صفات المؤمنين، وما يجب أن يكونوا عليه، وأَكِلُ إليك بعد ذلك الحكم في اعتبار مؤمني هذا الزمان، والله يوفقك إلى سبيل الرشاد:

١ – قال تعالى في سورة المائدة خطابًا للمؤمنين:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة/ ٢]؛ أي لا يَحْمِلَنَّكُم بغض قوم صدوكم عن الدخول في المسجد الحرام، على أن تعتدوا عليهم، بل يجب عليكم العدل، كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الإحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة أوامره، وفي معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة/ ٨]، فإن الله يأمرنا هنا ألاَّ نطيع ما تكنُّه صدورنا من بغض أحد

على الاعتداء عليه، بل يجب أن يوفى كل ذي حق حقه، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل، فإنه أقرب للتقوى.

٢ – وجاء في سورة النور ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ. وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ. وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ. إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٤٧-٥١]. نزلت هذه الآيات في قوم ادّعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه، حتى إذا دُعوا إلى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان في ضمائرهم أنهم ربما ظُلموا فأخذتهم العزة بالإثم، فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون، ولكن إذا كان لهم الحق جاءوا إلى المحاكم سراعًا مذعنين، وقد بيّن الله تعالى هنا أن تلك ليست من صفات المؤمنين في شيء، وما كان للمؤمنين إلا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا إلى قضاء الله وأحكامه سواء أكانوا ظالمين أم مظلومين.

٣ – وجاء في افتتاح سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ. ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [١-٥]، إلى أن قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٨ – ٩]. فليت شعري كيف يكون مؤمنو هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم في اعتبار الشرع مؤمنون، مع أن الله

تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهُون، والذين هم على اللغو مقبلون، والذين هم للزكاة مانعون، والذين هم لشهواتهم مرضون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون.

٤ - وجاء في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [٢] إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [٤].

٥ - وفي سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [١٤] إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [١٥]. فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف، وانظر إلى استعمال الحصر هنا في قوله ﴿إِنَّمَا﴾ ثم تأكيده ذلك بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٦ - وجاء في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ﴾[١٢]، يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الإيمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمدًا رسول الله، فإن هذا لا يكفي، ولقد بيّن الله في هذه الآية البيعة التي يكون بها

المؤمن مؤمنًا، فتدبرها حتى تعلم مبلغ إيمان الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين: اتخاذ المسابح، وإطالة اللحى، واختضاب الشعر، وتحديب الظهر، وملازمة الزوايا؟ ألا إن الويل كل الويل لمن حرَّفُوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذكّروا به.

الخلاصة: إن من آثار الإيمان القلبي الصادق إقامة ما وقع الإيمان به، وملازمة حدوده، ومخالفة وساوس الصدور، فمتى رأيت من ينقاد إلى شيطانه، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته، فاعلم أنه غير مؤمن. أو ما رأيت ما قاله تعالى في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّهُۥ - أي الشيطان - لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل / ٩٩]، فكل من وجدت للشيطان سبيلاً عليه فاعلم أنه غير مؤمن. أفيحسب أولئك الضالُّون أنهم على شيء. وقد جاء في البخاري عن سفيان بن عُيَيْنَة قال: ما في القرآن أشدّ عليّ من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [المائدة/ ٦٨] - أي القرآن - ومعنى إقامة هذه الكتب امتثال جميع ما فيها، والإتيان به على وجهه، فإن جاء العمل دون ذلك، فإنه لا يسمى إقامة، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الأحكام، فكيف لأحد بعد ذلك أن يدّعي أنه على شيء من الإيمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل ما فيها.

ومن هنا يتضح أن الإيمان الصادق يستدعي الانقياد والعمل، وهذا والله أعلم سر ما رواه البخاري في صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن».

قال القسطلاني: الإيمان هو التصديق بالقلب، والاعتراف باللسان - وتقرره الأعمال الصالحة واجتناب المناهي - فإذا زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، ذهب نوره وبقي في الظلمة فإن تاب رجع إليه..اهـ. ومثال ذلك في الكتاب الكريم والسنة كثير، ولكنها لا تعمى الأبصار.

هذا والمستقرئ لعبارات القرآن الكريم، قلّما يجد فعلاً أو وصفًا مشتقًّا من الإيمان إلا وهو مشفوع بعمل الصالحات، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت / ٩]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ [التغابن / ٩] وهلم جرًّا. يريد الله بذلك - وهو أعلم - أن يوقظ العقول إلى أن مجرد معنى الإيمان في اللغة، أي الاعتقاد، لا يكفي في إلحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الأعمال. وقد ضمن الله تعالى الأمن والهداية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جَوْر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام / ٨٢] .

الرق في الإسلام

كانت القوانين في الأزمان السالفة من الأوضاع البشرية، فكان الفرد أو الأفراد يسنّون ما شاءوا من النواميس[1] التي لم يُراعُوا فيها عدلاً ولا نَصَفَةً ولا مساواة بين أفراد الإنسان فيما لهم وما عليهم.

كان محض إرادة القوي وسلطانه هو القانون والسنن التي يسار على مقتضاها، فكان عدم تساوي الأفراد في القوى الجسمية والعقلية، الذي اقتضته سنة الكائنات الحية، هو منشأ تسخير القوي للضعيف، وغلبته عليه، حتى أفضى ذلك بعد إلى وجود ناموس عادي اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك، وقاهر ومقهور.

إن استخدام شخص لآخر، واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر، هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذي نشأ مع نشأة الإنسان، فإن من استقرأ التاريخ وجد أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده في أهله، وُجِدَت أَجْرامه، في كل

(١) النواميس: جمع الناموس وهو القانون أو الشريعة.

جاهلية، ثم تَعَدَّتها إلى ما كان معها من الأمم المتحضرة، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة إليه وزوالها أصلاً، فلقد عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومانيين، كما عرف بين قدماء الألمان ولقد أفرط الأخيرون في استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل في ذلك.

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق: أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعًا أو في دين عليه، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضي ست سنوات عليه في خدمة من هو في ملكه إلا أنه فضّل البقاء رقيقًا. والنوع الآخر: استرقاق غير اليهود ممن قضي عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التي كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وإرضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع، ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوانات العجم، سواء في ذلك العبيد المستخدمة في المنازل، وعبيد الحقول والمزارع، فإنهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين، مهانين، معزولين، محقرين، مسخرين ثم جاء المسيح عليه السلام، فلم يمنع الاسترقاق، ولم يضع حدودًا تراعى ولا وسيلة تؤدي يومًا إلى نسخه أو تقليله، نعم إنه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق، وببعض نصائح للسادة، ليمكنوا الرقيق من تلقي ما جاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينية، على أن كثيرًا من الأمم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق، وأقساهم في معاملته.

وانتشر الاسترقاق بين الرومان، منذ نشأتهم الأولى، من غير تفريق بين من كان رومانيًّا أو أجنبيًّا، فكانوا يملكونهم إما بحرب أو شراء أو اختطاف، فلقد كانوا يعتبرونهم متاعًا، وتغالوا في السيطرة عليهم، فكان للسيد أن يتصرف في عبده حتى كان له أن يقتله، نعم، إنه قد هذب هذا القانون بعد، حتى خفف في الجملة عن الأرقاء أعباء ما كانوا يحتملون، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة، وكان لأمراء الرومان وأشرافهم الألوف من الأرقاء، يستخدمونهم فيما شاءوا، ويوقعون بهم من الآلام ما شاءوا غير مسئولين عما فعلوا.

إن دخول الدين المسيحي في أوربا لم يقلل من الاسترقاق إلا من جهة واحدة، ذلك أن الرقيق كان يصير حرًّا بالرهبانية، وانقطاعه إلى خدمة الدين، على شرط ألاَّ يظهر له سيد يدّعيه في خلال ثلاث سنوات، أما من الجهات الأخرى فإن الاسترقاق بين مسيحيي أوربا لم يكن بأخف بطشًا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس، ولقد جاء في جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الأمور الطبيعية، كما أنها قدرت أثمان العبيد، واعتبرت في تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والأعمال، ومنها عدم إباحة التزاوج بين الأرقاء، ولا بينهم وبين الأحرار، وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة فيما إذا تزوج الرقيق حرة، فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل، وقضى على الزوج أن يحرق حيًّا. كان ذلك حال الاسترقاق في أوربا في القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام.

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية، وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية، لم يقف أمر الاسترقاق عند الحد الذي كان مألوفًا عند سلفهم، بل كان لأشراف الأُمَّتين وأمرائهما القول الفصل، والرأي الأعلى والكلمة النافذة في الفلاحين الذين تحت أيديهم، فكانوا ملاّكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم. فلم يكن في ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانًا سوى نفس الحكومة التي قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئًا من الحدود.

على أن الكنائس في أوربا قد اتخذت الأرقاء، وأباحت لغيرها اتخاذهم، كما أن كثيرًا من الناس كانوا يذهبون إلى استحسان ذلك، واعتباره من أحسن الوسائل ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق. (واعلم) أن أقبح أنواع الاسترقاق ما كان في أمريكا الشمالية، ولم يزل فاشيًا فيها، حتى كانت الحروب الدينية، التي تأججت نارها في سنة ١٨٦٥ الميلادية.

نحا كثير من الأمريكيين نحو ما كان عند الأمم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم الغزير، والتحضر الذي لم يسبقوا إليه، فكان الأمريكي الأبيض النصراني يملك الأَمَة السوداء، ويولدها البنين على أنه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الإسلام، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم إخوته من صلب أبيه.

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصراني لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه، كما أن الأمم المسيحية، على اختلافها وتباين مشاربها، كانت لا تبالي أن تسترقّ من شاءت، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم، فهذّب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الإنسان، والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض إلا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية.

وإذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية، فدونك ما فعل الإسلام في الرقيق والاسترقاق:

سوَّى الإسلام بين الأمم من غير اعتبار لاختلاف أصنافها وألوانها، فسوَّى بين الأبيض والأسود، والبدوي والمتحضر، والرعاية والمرعيين، والرجال والنساء، والمسلمين واليهود والنصارى، ما داموا في سلم.

انظر إلى المسلمين وهم في المسجد يؤدون فريضة الصلاة، أو في مكة وهم يحجون البيت الكريم، أو في المحاكم الشرعية في صدر الإسلام، أفتجد فيهم من مقدم أو مؤخر، أو من فاضل ومفضول؟ كيف والله تعالى جعل المؤمنين إخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتًا إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق، فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع:

«أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس، فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما لو تمسكتم به - كتاب الله وسنتي - لن تضلوا بعدي. أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى».

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا، وهم في مقدمة الأمم حضارة وعلمًا؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم، وتجنبوهم وحرموهم كثيرًا من المزايا التي استمتع بها البيض، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافي عن مخالطتهم، حتى لقد خصصوا لهم في مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها.

زعم كثير من الناس، ولا سيما من غير المسلمين، أن الإسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض، مستدلين على ذلك بما كان يفعله النخّاسون من أهل البادية، وأهل السودان، وكثير من الأتراك، وقد تقدم لنا أنه لا ينبغي الاستدلال على صحة الدين أو فساده، بما يفعله أهله، فإن هذا من العبث الذي ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه.

إن الشرع لا يبيح أن يُسْتَرَقَّ مسلم أصلاً، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية، لم تقم إلا لإعلاء كلمة الله تعالى، مراع فيها أن

تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم. فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب، التي أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم، لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش، مع العدوان على الغير، لا يجوز استرقاقهم بحال، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم، كتابيين أو وثنيين أو مجوسًا.

أما استرقاق غير المحاربين، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب، كعبدة الأوثان، فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى روايتيه أن ذلك لا يجوز مطلقًا. فماذا ترى فيمن يذهبون إلى الصحاري ويختطفون من وصلت إليه أيديهم من السودان وغيرهم، ثم يجلبونهم، كما يجلبون المتاع، فيعرضونهم في الأسواق، عرض الحيوانات العجم، وكثير منهم مسلمون، وماذا ترى في كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين، يجيئون إليهم ويسومونهم كما يسوم[١] المتاع، ثم يسوقونهم إلى بيوتهم إما للخدمة وإما للافتراش؟ وماذا ترى في الذرية التي ينتجها افتراش بُنِيَ على هذا الاسترقاق الفاسد؟ إن الدين لبريء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة، وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس، وقد سوّلت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسوّل، فافتأتوا على الله ونسبوا إليه ما نسبوا، متقوّلين عليه، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم.

(واعلم) أن هناك نوعًا من الاسترقاق، فشا في المسلمين أيضًا، وهو لا يبيحه الشرع أيضًا، ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم، قد يحدو بهم الفقر المدقع،

---

(١) يسوم: يعرضها للبيع كالسلع.

إلى جلب بناتهم بأيديهم إلى أسواق بعض المدن الإسلامية وهن صغار جدًّا ليبيعوهن إلى الأمراء والمثرين من الرجال، ولقد يكون منهن المراهقات والنساء، حتى إذا صارت إحداهن في ملك أحد استباح منها واتخذها فراشًا، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة، وما يخدع إلا نفسه من حيث لا يشعر، فيظل طول حياته مستبيحًا ما حرمه الإسلام، ويدخل في دينه ما أملته عليه وساوس الأوهام.

وقد كرم الإسلام الأسرى فشرع أن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله، وأن مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبي عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل.

وأن للرقيق في الإسلام أن يتزوج بنت سيده، فيقلب بذلك سيد البيت.

أين هذا مما سبق لنا نقله من قوانين أوربا في القرن الثالث عشر، من تحريم التزاوج بين الأرقاء، وكذا بينهم وبين الأحرار وأنه يجب قتل المرأة التي يتزوجها عبد، كما يجب إحراقه حيًّا.

وقد وضع الإسلام من الأصول والنواميس، ما كاد يقضي على الاسترقاق، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك على ما نعلم في أمر الاسترقاق، وبدهِي أنه لا يمكن أن يزيل النبي ﷺ في بضع سنين أمرًا ألفته النفوس، واستولى عليها ذلك الاستيلاء. لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يرغب الناس في العتق،

كما جعل هناك أحوالاً يلزم فيها السيد بالإعتاق. فمن ذلك:

١ –إخبار النبي ﷺ أصحابه غير مرة بأن العتق من أَجَلّ العبادة، وأقربها قبولاً عند الله.

٢ – أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الأَيْمَان.

٣ –أن مكاتبة العبد مستحبة بالإجماع، وللإمام أحمد في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر، وأن للعبد الاستقلال؛ ليحصل على ما يدفعه لسيده نظير الكتابة، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء.

٤ – إذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقي، فالحنفية تجبره على الأداء. وإذا لم يكن معه مال، ولكنه قادر على الكسب، فالمالكية تجبره على الكسب؛ لأنه ليس له تعجيز نفسه عنه ما دام قادرًا عليه.

٥ – يراعى في عقد الكتابة حالة الرقيق، فأقل وعد من السيد، أو أقل احتمال للوعد بالتحرير، يجعل التحرير ضروريًّا.

٦ – اتفق الأئمة على أنه لو كان في يد إنسان غلام بالغ عاقل وادّعى عليه أنه عبده فكذَّبه الغلام، فالقول قول المكذِّب مع يمينه أنه حر.

فترى في هذه الصورة أن قاعدة «البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر» قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق، فلم يطلب الشرع من المدعي البينة أولاً بل جعل القول للمنكر بيمينه، ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب، ما وجد لذلك سبيلاً.

٧ –قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطي الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته، أو أن يشتري الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم.

٨ –إن من افترش أَمَة، وأتى منها بأولاد، فهي أم ولده لا يجوز له أن يبيعها، ولكنها لا تتحرر تمامًا إلا بعد موته.

٩ – استوصى النبي ﷺ بالأرِقّاء خيرًا، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين، فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل، أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير، كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في المأكل والملبس ونحوهما.

المرأة في نظر الإسلام

شذرات

قبل التكلم عن المرأة في الإِسلام، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف في الأمم المختلفة، ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة في الإِسلام، غير معوّلين في جميع ذلك إلا على كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة.

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة، كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل، حتى ضربت بهم الأمثال. أفأدلُّك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء من غير وقوف عند حد، ولا تقيد بشرط، ولا سؤال عن حق، ولقد كان له أيضًا أن يتخذ من الأخدان[1] من شاء.

فإذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي ﷺ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع، فلقد كانت المرأة بين وثنيي العرب معتبرة سلعة محضة، فإذا مات رجلها

(١) الأخدان: الأصدقاء.

ورثت فيما يورث، حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أَمَته، كما كان له أن يهبها لمن شاء، وأن يبيعها لمن شاء، هذا عند وثنيي العرب.

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنًا من ملك اليمين، فلقد كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها، كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك.

وقد كانت العرب تئد البنات، إما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن، حتى قال قائلهم «دفن البنات من المكرمات».

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم، فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالاً ولا أعز شأنًا ولا أكثر حرمة منها بين العرب.

ومن المعلوم أن أحسن القوانين ما لا يشتمل على التضييق، ويلائم فريقًا دون فريق، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة المحمدية بتلك النواميس التي تلائم، بلا ريب، أرقى الأمم تحضرًا وأصدقهم فكرًا، كما تلائم وتنطبق على الأمم الذين لا يزالون في مهد الفطرة الأولى.

۞ المساواة

ساوى الإسلام بين الذكران والإناث في جميع التكاليف الشرعية، إلا في أحوال خاصة قليلة، كما ساوى بين الصنفين في الحقوق المدنية، وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر، وأن يبيع ويشتري ويعقد ما شاء من العقود، ما دام عاقلاً رشيدًا.

جاء بذلك الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، فتمتعت النساء بما ملكت أيمانهم من أموال وأعيان من غير توقف على إذن زوج أو تقرير مسيطر، مع أن معظم أمم أوربا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها، اللهم إلا ما أدخلته الحكومة الإنجليزية، وقليل غيرها من أهل أوربا، منذ خمسين سنة، من القوانين التي خوّلت للمرأة فيها شيئًا من ذلك، ولم يكن هذا معروفًا فيهم من قبل.

وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم، لا تقرأ، ولا تفهم، ولا تستفتى في أمر، ولا تقضي ولا تأمر ولا تنهى، فهلاّ علمت ما فعل الإسلام؟ جاء النبي فكان في بيته أحسن أسوة للمسلمين، وما زال ﷺ تنزّل عليه الآيات في شأن النساء حتى أصبحن ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة/ ٢٢٨].

أوجب الله تعالى تعلُّم العلم على كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وإناثهم ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب/ ٣٤] فكان الرجل - وكان ما كان في الجاهلية - يأتي إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الأخلاق، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع إلى رشدها، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف، أو الشعوب أو الأمم، في التفاضل. فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعًا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء/ ٣٤]، لم يقل الله إنَّ الرجال قوامون على النساء، مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية، أو لأن عقولهم تخالف عقولهن، ولكن الله جعل إنفاق الرجل على المرأة من علل الفضل، كما جعل من العلل أيضًا ما قد يمنح الله القوّامين على النساء من المزايا، ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة، ومن ذا الذي يستطيع أن يعتقد فضل بدوي عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التي وصلت الليالي بالأيام في طلب العلم، حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها؟ كلا إن الله لم يجعل التفاضل إلا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر/٩] وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [الرعد/ ١٦].

أباح الشرع للمرأة، ما دامت من أهل التصرف في مالها، أن تتزوج بنفسها، وأن توكل غيرها في زواجها، ولا اعتراض عليها إلا أن تضع المرأة نفسها في يد غير كفء، فهناك يعترض الولي عليها ويطلب إلى القاضي فسخ زواجها.

جعل الشارع للمرأة أن تشترط في صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت.

ففي الدرّ «إن تزوجها على أن أمرها بيدها صح» قال ابن عابدين: «هذا مقيد بما إذا ابتدأت المرأة فقالت: «زوجتك نفسي على أن أمري بيدي، فقال الزوج: قبلت».

ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر، إذ قضي للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن في هذا إجحافًا بحقوقها، ولكنا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها، وذلك أن المرأة كما سيأتي عالة على الرجل في معظم أدوار حياتها، فيجب عليه شرعًا أن ينفق عليها، ويأتي إليها بمطالبها، كما يقتضيه عرف القبيل الذي هما فيه. فإذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف، فتقدير الشارع لها حظًّا من المواريث غاية في الرأفة بها، ورعي جانبها، والعناية بشأنها.

فأين حجْر الإسلام على المرأة؟ وأين التضييق عليها من هذه المسامحة؟

تعدد الزوجات في الإسلام

تقدم لنا التلميح إلى ما حشا به الأوربيون كتبهم من الطعن في الإسلام، متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة، ولو كانوا يعرفون العربية، ويفقهون كتاب الله وقواعده، ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه.

إن النقائص التي مثلت بالإسلام في أعين غير أهله، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح، ميزانًا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه، فمن قائل بسد باب الاجتهاد، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه في شيء، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعًا إلى الزلفى منه، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده فشطَّ بالناس واعْتَسَفَ بهم، حتى ضاقت نفوسُهم، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون.

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الإنسان مثنى وثلاث ورباع، ولكن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء/ ٣]، فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببًا كافيًا في تحريم التعدد، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عند العدل بين النساء ولو حرصوا. فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيرًا من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض؟

عجبًا أغفل الناس كثيرًا من القواعد الإسلامية التي يجب تقدير الأعمال بها وزنة التصرفات الإنسانية بميزانها.

واعلم أن المعتزلة، وهم كما تعلم من المسلمين، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية ما دامت الأولى في عصمته، كما ذكره الأمير علي في كتابه «سر الإسلام» وما ذلك إلا لأنهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارّة، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إِعطاء الوسائل ما للغايات من الأحكام، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه.

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتًا؛ وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، ولا ريب أن ثمّة أحوالاً يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التي تقتضي ذلك. ولأضرب لك مثلاً: رجلاً تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن،

ورجلاً تزوج امرأة فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يومًا، ورجلاً تكره امرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل، وهلم جرا. فأمثال هؤلاء الرجال إما أن يصبروا مع العنت والشقة، وقليل الصابرون، وإما أن يأتوا الفاحشة، وأولئك هم الخاطئون.

إنني لأرى – كما يرى أيّ عاقل – أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت، أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة، ومن الشواهد التي يحسن ذكرها ما نقله الأمير علي في كتابه «سر الإسلام» عن السيدة غوردون الإنجليزية: أنها تأملت في أحوال كثير من البلاد الإسلامية أو الشرقية إجمالاً، فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة، وتقل فيها المرافق، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل المرافق والأخذ بأسباب العيش، وقد رأت تلك السيدة أن هذه إحدى الضرورات التي يخوّل معها التعدد.

جمعتني المصادفات برجل إسباني قابلته في لندن، فمكثنا نتحادث في كثير من مسائل الدين الإسلامي، فمما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات، فقال: إنه يتمنى لو كان مسلمًا فيتزوج امرأة غير زوجته. فسألته في ذلك فقال: إن امرأتي قد أصيبت بجنون، وها هي تلك تعالج في بيمارستان «مجريط» ولها على ذلك سنون كثيرة. ولقد اضطرني الأمر أن أتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتي التزوج بأخرى، فلو أن هذا كان مباحًا لنا لكان لي عقب شرعي يرثني فيما لديَّ من المال الكثير، ويكون لي قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن إليه.

ثم تقابلت في أكسفورد مع دكتور فاضل، وقد جرت عادة الإنجليز أنهم متى رأوا غريبًا سألوه في جميع ما يلج في صدورهم. سألني ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات في الإسلام، وذكر أنه يستقبحه، فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الأسباب، ثم قال: إنني أكاد أرى وجه ما تقوله، ولكن لي كلمة في نبيكم ﷺ، فقلت: ما هي؟ قال: إن منزلة النبوة التي ادّعاها كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من تعدد الزوجات. فعند ذلك قلت له: إنني يا سيدي كثير التجارب، وقد رأيت في الإنجليز وفي المصريين والأتراك والفرنسيين وغيرهم من الأمم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله ما دام يملك شيئًا من المال، وهذا أيها السيد أحد الأسباب في قلة ذراري الأغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين، ولو ملكت أيديهم فضلاً عن المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا. أفتنكر بعد ذلك أن تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة، وأضمن لنمو بني الإنسان؟ فما كان من ذلك الفاضل إلا أن قال: إن معظم ما قلته حق لا مراء فيه. ثم ذكرت له أسباب إكثار النبي من النساء مما سنأتي عليه بعد، وإنما لم أبدأ بذكر تلك الأسباب لأنني قصدت إلزامه من أول الأمر بضرورة تعدد الزوجات في بعض الأوقات أخذًا بما عليه الناس في أحوالهم الدنيوية، التي لا يسعه إنكار شيء منها، فلما أضعفت من قوة تعصبه، وقللت من حدته، أخذت أسرد له الأسباب التي لم يجد لإنكار شيء منها سبيلاً.

والخلاصة أن اعتبار كون تعدد الزوجات مصدرًا لكثير من المفاسد، إنما هو أمر إضافي، ولا يمكن اتخاذه حكمًا عامًّا، فإن ذلك يختلف باختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة والأحوال، انظر إلى ما كان معروفًا في بدء النصرانية من استقباح الزواج رأسًا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية.

ولقد قضت الرهبانية في الأعصر الخالية أن يقبر في الديور كثير من العقول الذكية، التي لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة، أما منشأ ذلك فقد كان إما تقليدًا للمسيح عليه السلام، أو لبعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق إلى عبادة الحق تعالى، ولا يزال قساوسة الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية، قالوا: إن المسيح عليه السلام روح الله، فكان أقدر الناس على غلبة شهواته، قارنوا بينه وبين محمد ﷺ القائل: «لا رهبانية في الإسلام»، ثم انتهى بهم القياس إلى الحطِّ من كرامة الأخير. وقالوا: شتان بين من غلب نفسه، وبين من استرسل مع هواها فأرضاها، ولا يخفى بطلان هذه القضية فإنه لا تنافي بين الصلاح والزواج، على أن تقليد المسيح في رهبانيته لا يبلغ غايته إلا بخراب البيوت وتلاشي الأمم وانقراض النوع الإنساني، ولا يخفى أن هذا ينافي مقتضيات العمران، ومطالب نظام الأكوان.

لم يكن محمد ﷺ فيما أتاه بدعًا من الرسل، فإن موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرًا من النساء، وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيًّا ولا يهوديًّا إنكار نبوتهما، أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الأولى.

زوجات النبي

هذا ونذكر لك في زوجات المصطفى ﷺ ما فيه غناء إن شاء الله تعالى، فنقول: اعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبي ﷺ من الخصائص، ما لم يكن لغيره من أمته، وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه، ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفي لإقناع غير المسلمين، الذين نددوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم، اللهم إلا قليلاً ممن أيده الله بروح منه، فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله.

فاعلم أن أول أزواج النبي ﷺ خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة.

قضى النبي ﷺ شبيبته، وطائفة من كهولته، ولا زوج له إلا خديجة، ماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات، بعد أن مكثت مع النبي ﷺ خمسًا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع أولاده، ما عدا إبراهيم، فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء، وهو في ريعان شبابه، وقد كانت العرب، على ما علمت،

يكثرون من الزوجات حتى أن منهم من كان تحته العشرون في وقت واحد، فلو كان هناك سلطان للهوى، على قلب المصطفى ﷺ، لاتخذ من الزوجات من شاء، وهو في مقتبل شبابه، واستكمال قواه الطبيعية، لا شرع يحول بينه وبين بغيته، ولا عادة تمنعه مراعاتها، من قضاء مآربه، لا سيما وقد كان مرغوبًا فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم أخلاقه، وجميل خصاله.

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر، تزوج النبي ﷺ سودة، وكانت أيِّمًا مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكانت قد أسلمت رضي الله عنها وخالفت بني عمها وأقاربها، فما أجمل ما عمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيرًا مما فقدت، فقد مات عنها زوجها ولا حامي لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنوفهم، فكان تزوجه بها حماية لها أن تصل إليها يد الأذى، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد زوجها.

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة، ففقد النبي بموته رجلاً كان يناضل عنه، ويدفع عنه أعداءه ما استطاع، فأخذ الأمر إذ ذاك يشتد على النبي ﷺ، فرأى أن يوثِّق الرباط بينه وبين قريش، فعقد على عائشة، وهي إذ ذاك بنت سبع، فإن أباها الصديق رضي الله عنه كان صدرًا وجيهًا في قريش، واسع المال، عزيز الجانب، يدلك على ذلك مسارعة النبي ﷺ بالعقد عليها، مع أنها قاصر وأنه لم يبن بها إلا بعد ذلك بنحو سنتين، فلم تكن وقت ذاك مطمعًا لقضاء شيء من المآرب الشهوية، حتى يطمح إليها نظر النبي أو غيره.

ومن هذا القبيل تزوجه ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت ببلاد الحبشة في الهجرة الثانية. مات عنها زوجها هناك، وما هو إلا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشي أنه قد كتب إليه رسول الله ﷺ ليزوجه إياها.

كل من اطّلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بني أمية من العداء، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألدّ بني أمية عداوة لرسول الله والمسلمين، فإنه لم يدخل في الإسلام إلا بعد أن نال المسلمون ما نالهم من أذاه الشديد، فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب، تكون له في الجملة وسيلة إلى حملهم على تقليل الأذى عنه، كما أنه ﷺ اختارها لنفسه، لأنها خرجت من ديارها فارّة بدينها، ففي عدم حمايتها ووقايتها – وقد مات زوجها – تعريض لها إلى مقاساة المصاعب والأهوال، وإنما اختارها النبي لنفسه لمكانتها في قومها، فلو أنها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم، ويحرشونهم بالمسلمين على قلّتهم وضعفهم.

وكانت الأسرى من النساء يُتَّخذن إماء لا يسوَّى بينهن وبين الحرائر في شيء، كما أنهن قلما أعتقن، فأراد النبي أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغي أن يصنعوا بما في أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة، وأن يجعلن سيدات البيوت، فمن ذلك تزوجه بجويرية. قالت عائشة رضي الله عنها: أصاب رسول الله ﷺ سبي بني المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس

فأعطى الفارس سهمين والراجل سهمًا، فوقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس، فجاءت إلى الرسول فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، وقد كاتبني ثابت على تسع أوراق فأعني على فكاكي، فقال: أوخير من ذلك؟ فقالت: ما هو؟ فقال: أؤدِّي عنك كتابتك وأتزوجك، فقالت: نعم يا رسول الله، فقال: قد فعلت، وخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله يُسْتَرَقُّون، فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام إياها. فانظر إلى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها.

ومن ذلك أيضًا تزوجه بصفية بنت حيي، وكانت من أشراف بيوت اليهود، ثم صارت سبيًا بعد وقعة خيبر، وكانت مما اصطفاه ﷺ من الغنائم.

وعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: لما دخلت صفية على النبي ﷺ قال لها: لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله. فقالت يا رسول الله: إن الله يقول في كتابه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر / ١٨]، فقال لها رسول الله: «اختاري فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك». فقالت: «يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني؛ حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها ولد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إليَّ من

العتق، وأن أرجع إلى قومي». قال فأمسكها رسول الله لنفسه، وقد رضيته بعلاً، مع أنه كان لها أن ترجع إلى أهلها بعد العتق.

هذا واعلم أن أمر الثأر في الجاهلية معروف، وقد حاول كثير من الأنبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء، ونسخ تلك العادة القبيحة، فلم يفلحوا، لأن ذلك كان أمرًا راسخًا في نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجح فيهم دواء، حتى أتى النبي فجعل من عقود أنكحته ما ربط كثيرًا من القبائل بعضها إلى بعض، فبذا قرب ما بينها، وأزال كثيرًا من أحقادها، وأطفأ ثورة ما في صدورها من الغل والضغائن، حتى قَلَّتْ في أيامه ﷺ الغارات، وكاد يتناسى أمر الثارات.

زواج النبي بامرأة زيد

هذا وتتميمًا لهذا الموضوع نريد أن نذكر كلمة في تزوج النبي ﷺ بزينب امرأة مولاه زيد:

قال الشيخ محمد عبده إن زينب كانت بنت عمة النبي ﷺ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر، حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها، وعدَّ هذا عصيانًا، وما زال كذلك حتى نزل في شأنها آية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب / ٣٦].

ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصًا إذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الأقرباء

بعضهم في بعض متى تعاشروا، فكيف نظن أو نتوهم أن النبي الذي يقول الله له ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [طه/ ١٣١] يخالف مألوف العادة؟ ثم يخالف أمر الله في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟

«إن النبي لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة، وتفسد به شئون المعيشة، فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين، لولا أن النبي يجد من نفسه أن هذا القرآن مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي، ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت، واتصالهم بأنسابها كان أمرًا تدين به العرب، فكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الأحكام، التي يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب، فأراد الله محو ذلك بالإسلام، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾[الأحزاب/ ٤]، ثم قال: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب/ ٥]، فبين الله أن ليس للمتبنى إلا حق المولى والأخ في الدين.

«وكان من عادة المصطفى أن يبادر في كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه؛ ليكون قدوة حسنة، ومثلاً صالحًا تحاكيه النفوس، وتحتذيه الهمم، وحتى يخف وزر العادة، وتخلص العقول من ريب الشبهة. وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب، إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه، لتسقط العادة بالفعل، كما ألغى حكمها بالقول الفصل. فبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلن إباؤها الأول، ولم يسلس قيادها، بل شمخت بأنفها، وذهبت تؤذي زوجها، وتفخر عليه بنسبها، وبأنها أكرم منه عرقًا، وأصرح منه حرية؛ لأنه لم يجرِ عليها رِقّ، كما جرى عليه. فشكا ذلك إلى النبي غير مرة وهو ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» إلا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها، ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة، كما قال تعالى ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب/ ٣٧]، وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب/ ٤٠]، وقد قال العرب إذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه.

«قال أبو بكر بن العربي: فأما قولهم إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه فباطل، فإنه كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن ثمة حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله، فكيف يتجدد هوى لم يكن..» ا هـ. ملخصًا.

وهكذا كانت سنة النبي ﷺ في جميع زيجاته فلم يكن النبي ﷺ في هذه السنوات التي أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتيًّا لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة، ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله، لولا أن جعله الله من الصابرين، هذا كله على فرض أن أنكحة النبي ﷺ كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء/ ٣]، أما إذا كانت قبل ذلك كما حققه الأمير علي في كتابه «سر الإسلام» فلا حاجة إلى التماس شيء من تلك الأسباب. قال الأمير علي: إن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي ﷺ، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد، ثم إن الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبي أن يتزوج على من عنده، كما فرض عليه ألاَّ يتبدل بهن أزواجًا أخريات فقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب/ ٥٢]؛ أي إلا من سبق لك التزوج بهن.

وهنا مسألة أولع بإيرادها كثير من أحداث هذا الزمان، قالوا: لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الأزواج؟

فاعلم أن ذلك يفضي بداهة إلى اختلاط الأنساب، فيقع اللبس في نسبة النسل، ولا يخفى أن ذلك يفضي إلى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية، كالنفقة والإرث وغيرهما.

وهنا مسألة أخرى وهي أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس؟ وجوابها أن الإسلام جعل لكل كتابي أن يبقى على دينه، فالكتابية في يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس، فإن المسلمة في يد الكتابي لا تؤمن أن تفتتن في دينها، فإنه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره، ولاسيَّما من له عليه سلطان كزوجته، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في العصر الحاضر يرى جليًّا وجه ما قلناه، ومن هنا يعلم أن المرأة لم تبخس شيئًا مما منحه الرجل.

الطــلاق

مما عد وصمة في الإسلام إباحة الطلاق؛ ولذا ينبغي لنا أن نأتي ببيان ما سيكشف لك إن شاء الله وجه الصواب فيه، فنقول:

اعلم أن الطلاق أباحه الله للمسلمين؛ لأنه قد تدعو إليه الضرورة، أما حيث لا ضرورة فسماه النبي ﷺ أبغض الحلال إلى الله، كما أن المسلمين اتفقوا على النهي عنه عند استقامة الزوجين، فمنهم من قال إنه نهي كراهة، ومنهم من قال: نهي تحريم وقد رأى الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب، ويؤيد ذلك أنه إضرار، وقد نهى النبي ﷺ عنه في قوله: «لا ضرر ولا ضرار» ولقد كره النبي ﷺ أن يطلق زيد زوجته زينب، مع أنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفًا، أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد، ولكن اختلفوا في بيان الأسباب، قال ابن عابدين: وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أي الحرمة، والإباحة للحاجة إلى الخلاص، فإذا كان بلا سبب أصلاً، لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقًا وسفاهة رأي ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الإيذاء بها وبأهلها وأولادها؛ ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء

الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى؛ فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعًا يبقى على أصله من الحظر، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء/ ٣٤]؛ أي لا تطلبوا الفراق .. اهـ.

أما غير المسلمين، فمنهم من لم يجوِّز الطلاق أصلاً إلا للزنا، كالأمة الإنكليزية، فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الأمر إلى المحكمة ليفصل القاضي بينهما. أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة، ثم وجدوا أن هناك أسبابًا أخرى يتحتم معها الطلاق، ولكن لا فرقة عندهم إلا بقضاء قاض، ولابد لجميعهم أن يرجعوا إلى ما قرره الإسلام من الأسباب.

نعم إن الشريعة الإسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم، وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل، لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد. ولكن دين الإسلام أقوى ركنًا وأحكم وضعًا وأبعد مرمى، فلم يفعل ذلك إلا لحكمة صالحة، ذلك أن في تطبيق الطلاق على حكم القاضي بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب، وتشوه سمعته في العالم، ولا سيما في مثل هذا العصر الذي تطوف جرائده في الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع، وتنتقل من أرض إلى أخرى ومن يد إلى غيرها، مشحونة بتفاصيل ما يعرض في المحاكم من هذه القضايا، آتية على ما قلَّ منها وما جلَّ، فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب؟ يقضي ذلك الرجل

وتلك المرأة ما بقي من العصر مَرذولَين[١] مَجْفُوين[٢] مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا، أما الإسلام فإنه جعل للقاضي فسخ الأنكحة في أمور لا بأس في إعلانها، بل إن إعلانها هو المصلحة الكبرى، من ذلك: العنة[٣] والجنون والبرص والجذام والإعسار بالنفقة والكسوة والمسكن، مما تراه مبسوطًا في كتب الفقه متى رجعت إليها. أما غير هذه الأسباب مما قد يزول أو لا كبير خطر في بقائه، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانًا فيه. فما أجمل ستار الشرع الذي يخفي كثيرًا من النقائص، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد، وما أرأفه بالإنسان الذي قد يهفو ثم يبدو له فينيب.

هذا، واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلاً، وغاية ما ورد في الإنجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان، وهذا لا تعرّض فيه لحكم الطلاق أصلاً.

واعلم أن الطلاق في الإسلام، كما هو معلوم، حق من حقوق الزوج ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء/ ٣٤]، ولكن الإسلام مع ذلك قد جعل للمرأة، كما تقدم، أن تشترط في العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية، فإذا لم تشترط ذلك أو

---

(١) مرذولين: بهما خسة ورداءة. (٢) مجفوين: مُبعدين.
(٣) العنة: عجز يصيب الرجل فيمنعه عن الجماع.

وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذي خوّله له الشرع، ولكن مع ذلك لا يجوز له أن يوقعه إلا حيث يراه الشرع حسنًا صالحًا.

هذا ولم يعتبر الإسلام زنا الرجل من الأسباب التي تطلب بها المرأة فسخ الزواج، ولا العكس، إلا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها، ولا بينة له، فإن له أن يلاعن[١] زوجته وتلاعنه، ثم يفرق القاضي بينهما، والسبب في أن هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الأولاد، ولذا كان رمي المرأة الرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل إن لهذا حكمًا آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه.

فمما تقدم لنا هنا نرى أن الإسلام لم يجر في جميع ما سردناه عليك هنا إلا على مقتضى أصل الفطرة. فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق، ثم لم يبخسهن شيئًا، كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونًا بما وضعه من الشروط - ولكن لو أنصف الناس لاستراح القاضي - حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم، فكان أكثرهم إباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون.

---

(١) اللعان: أن يقسم الرجل أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنا، ويقسم مرة خامسة بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

كان الطلاق قبل الإسلام منتشرًا في جميع أمم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها، وكذا بين الرومانيين، فلقد اعتبر قانون «الموائد الاثنتي عشرة» الطلاق جائزًا. أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم يعملوا بهذا القانون إلا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم «رومة» فلم يكن سببه ما يدّعون من بغضهم للطلاق، ولكن لأن الرجل في تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقابًا لها على بعض الجرائم كالسكر، فكانت عند الرجل كالرقيق، كما أنها إذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزًا يخول له عقوبتها. نعم إن الرومانيين في أخريات أمرهم أصلحوا كثيرًا من شأن المرأة وأنصفوها، إذ ساووا بينها وبين الرجال في كثير من الأشياء.

يقول الأمير علي: إن المعتزلة لا يجوّزون وقوع الطلاق إلاّ بحكم القاضي الشرعي العادل، فلابد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحًا. ومن هنا يظهر أن من طوائف الإسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضي، فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج إلا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة.

تعدد الطـلاق

واعلم أن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية، لأنه ربما كان التطليق لثورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر، فرجا الشرع أن يرجع إليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأي ضعيف العزم، ولا يخفى ما في هذا الشرط من السر الحكيم، وإذا أردت بزيادة بيان فتدبر قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء/ ٣٥]، أيقول الله إن يريدا طلاقًا يفرِّق الله بينهما، أم إن يريدا إصلاحًا يوفِّق الله بينهما؟

وتفهم قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم/ ٢١]، فقال لتسكنوا إليها ولم يقل لتطلقوها، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة، ولم يقل بُغضًا وقسوة، وقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب/ ٣٧]، أمر النبي عليه السلام زيدًا بأن يمسك زوجته

فلا يطلقها، مع أنها كما تقدم كانت تكثر من مضارته وإساءته، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء/ ٣٤]؛ أي فلا تطلقوهن، ومن هنا استنتج أن الأصل في الطلاق التحريم، إلا لسبب كما تقدم لنا.

خاتمـة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام:

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة/ ٧-٨]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩]، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشربًا ولباسًا وزينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارًّا لنفسه أو لمن يدخل في ولايته أو ما تعدى ضرره إلى غيره وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، اللهم إلا حقًّا محترمًا تصطدم به. أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عند القدر، فبدت فيالقه[1] المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المَدَارِك،

(١) الفيلق: الجماعة من الجيش أو الكتيبة.

ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيمنة من سدنة[1] هياكل الوهم «نم فإنَّ الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة».

علا صوت الإسلام على وساوس الطغاة، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون.

صرَّح في وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا مما علموا أحسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبّه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميًا لعقول على عقول ولا لأذهان

---

(١) السدنة: الخَدَم.

على أذهان، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاّحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام/ ١١]، وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب.

عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اخْتَطَّتْهُ لهم سير أسلافهم وقولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان/ ٢١]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف/ ٢٢].

أثر القرآن في تحرير الفكر البشري

حرية الفكر قبل الإسلام

لعل من المستحسن - قبل أن أتكلم في أثر القرآن الكريم في حركة الفكر البشري وتحريره - أن ألم بنبذة تاريخية فيما كانت عليه الأمم الكبرى في طائفة من القرون التي سبقت ظهور الإسلام من التطورات، وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر، والتحرير والاستعباد، فإن في ذلك ما يعيننا على إدراك مدى ما فعل القرآن في إنصاف العقل الإنساني وإحلاله المقام الذي خوله خالقه منذ فطره وأوجده.

كان أساس القانون العام السياسي في الإمبراطورية الرومانية إباحة عَلَنيَّة الأديان وجميع العقائد والأفكار، وما زال الأمر هنالك كذلك حتى دخلت بأوربا الديانة المسيحية التي ابتدأ بها عهد الحجْر والحظر على ما سيأتي تفصيله.

لقد كان من أهم الدعاة إلى تحرير الأفكار من قيود الخرافات والتقاليد، والقصص المزعجة التي كان يستعملها بعض شعراء اليونان، ورجال الأديان فيهم: «هرقليتوس» و «ديمقراط» ولقد تناول هذان بالبحث - بعد المادة الطبيعية - أحوال النفس البشرية والشئون السياسية، وكان هدفهما ورائدهما في جهودهما

العنيفة امتحان كل شيء بالعقل والفكر. وكذلك ظهر «أنكساجوراس» فجعل يعلم الناس أن الشمس التي يصلون لها صباح مساء إنما هي كتلة من النار ملتهبة لا إله يعبد.

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة في سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المعروفين بالصوفية أو السفسطائية، الذين أخذوا يظهرون في القرن الخامس للميلاد، والذين وضعوا في النصف الثاني من هذا القرن قواعد وأصولاً للحياة الاجتماعية من ناحيتي «الأخلاق والسياسة» وبحثوا في الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الأقلية المطلقة التي هي طبقة المفكرين والعلماء أما الدهماء والعامة، فكانوا في كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة، على أنه لا ينبغي أن نغفل ما كان لأثينا في ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة في الشئون السياسية وبخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة «بريكل» الذي كان يحمي أرباب التفكير الحر، حتى لقد كان حصنًا للفيلسوف الجاحد لآلهة آثينا، «أنكساجوراس» من المحاكمة.

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع إلى الخروج على الأديان كان آونة لا ينجو من العقوبة، وإن ما كان ينشر من الكتب في ذلك كان يجمع ويحرق أو يحرم بيعه علنًا، ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التي كانت تقام في أوجه المنطقيين Rationalists اللادينيين كادت في أواخر

ذلك القرن تختفي، وذلك لوفرة عدد هؤلاء واطّراد نموهم وتكاثرهم، ولقد كان من القضايا المسلّمة لدى الإغريق، ثم الرومان حتى في أرقى عصورهم علمًا ومدنية ومادّية أن الدين نافع وضروري لعامة الشعوب مطلقًا؛ ولذلك كان يقول بفائدتها، كركن للسياسة العامة، حتى من لا يدينون بها، كما أن فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر أية عقيدة أو نظرية، من شأنها إحداث اضطراب ما في الحياة الاجتماعية. ومن الأفراد البارزين في هذا الميدان من الإغريق سقراط، الذي يعتبر بحق أجلّ أولئك المربين فكان مما امتاز به وتفرد، شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد، واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون إليه، إلى طريق استعراض العقائد المعروفة المألوفة، وامتحانها بمحك الفكر، مع إفساح صدر العقل لكل بحث واحتمال دون تقيد بشيء من التقاليد، ولا وقوف عند رغبات الجماهير، وإنما سلك سقراط هذا الطريق في نشره للعلم، واقتياده شباب زمانه إلى وجوه الحقيقة، ومناهج التفكير الصحيح؛ لأن بلاد اليونان منذ حوالي نصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسَويّ، كانت ميدان حركة فكرية، ابتدعها أفراد من اليونان، كانوا في أول هذه الحركة، إما مسترزقين أو طلاب شهرة وسمعة، ثم أخذوا يسرفون في أساليبهم الجدلية وطرائقهم التشكيكية، غير مبالين ما يصيب العقول من التضليل، ولا حاسبين حسابًا لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها.

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود، حتى التبس الأمر على العقول وخفيت عن

بصائرها معالم العلم الصحيح وحدوده. ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميدانًا من ميادين المعرفة حتى أعملوا في أساسها وأركانها معاول التشكيك لا لعلم يبلغونه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضلالاً وتضليلاً، وجهلاً وتجهيلاً، فلما جاء سقراط، بما أوتي من العقل الراجح والرأي السديد والعلم الصحيح، لم يجد بُدًّا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويسلك في هدايتهم تلك السبل التي سلكها أولئك في تشكيكهم وتضليلهم، ولو أنه انتهج في تعليمهم وإرشادهم غير هذه المناهج التي فتنوا وأغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم إلى طريقه، أو يبلغ بهم شيئًا من مقاصده، وإلى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان.

ومع كون أثينا في ذلك العصر كانت أشهر البلاد في الديمقراطية وأكثرها تسامحًا وحريَّة، نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التي كانت تنال المتصدين للدعوة إلى حرية الفكر والاحتكام إلى العقل.

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية، وبالجدل والتشكيك، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس إذ ذاك من التقاليد والأفكار، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المُعادي لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى إلى محاربة الفلاسفة (وفي مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل، ولا سيما الروايات التي وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم، وتصوير مثل سقراط زنديقًا غير تقي وداعيًا مضرًّا، حتى لقد ثارت عليه الأمة اليونانية آخر الأمر، واعتبرته ملحدًا ومفسدًا لعقائد الشباب

وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد، لهذه الأسباب، كما تدل عليه محاكمته، وما قدمه في الدفاع عن نفسه، وقد علمنا من التاريخ أنه قدم لدرء[١] ما اتهم به من إفساده لعقائد الشباب هذين الدافعين:

١- يجب على كل فرد مهما تكن النتيجة أن يقاوم كل ما يرد عليه مما يراه ظلمًا، سواء صدر عن شخص صاحب نفوذ أم عن محكمة.

٢- ألاَّ ينزل مطلقًا عن القول بأن في المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة، وضمانًا للعلم الصحيح.

وبعد ذلك بسبعين عامًا، اضطر أرسطو أن يفارق أثينا أيضًا، حذر أن يساق إلى ذلك المصير لاعتباره فيها ملحدًا أيضًا.

ولقد جاءنا أفلاطون، أنجب تلاميذ سقراط، في آخر أيامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء، فإنه يرينا في «المدينة المثالية» أنه لابد لأهل المدينة من قبول الدين الذي رسمه هو وصوَّره، وأن من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن، وأن حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذي وضعه ... إلخ. على أن تعاليم سقراط في محادثاته ظلت ينبوعًا غزير المادة، ترعرعت به عدة مذاهب في الفلسفة، وصدر عن مرتواه جملة من

---

(١) لدرء: لدفع.

الفلاسفة المعدودين كأفلاطون وأرسطو وإستويقس وأمثالهم ممن انبثت مذاهبهم في أطراف بلاد الإغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد، وفتحوا لهذه البلاد مصاريع أبواب الحياة العقلية، وأنعشوا في أهليها حركة التفكير والتدبر.

ولقد سبقت لنا إلمامة بما ترك أفلاطون وأرسطو من الأثر في تحرير عقول الأثينيين، ولكن من المفيد أيضًا أن نورد هذا أن أبيقور – على رغم جحوده قيام السلطان الإلهي في هذا الوجود للتدبير والتعريف ونُبوّ[١] بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات – قد تخطى بالعقول الخاملة في إقدامه المدهش السريع عقبات استعصى تخطيها على الأجيال والقرون. ولقد وجد أحد الشعراء من الرومانيين في فلسفته وحيًا وإلهامًا مستطابًا أودعه قصيدته المسماة «في طبيعة الدنيا».

ولم تكن فلسفة إستويقس في تحرير العقل الإنساني بأقل حظًّا من المذاهب المذكورة آنفًا، بل الحقيقة أنها جاءت منظمة ومفصّلة لجملة من القوانين الاجتماعية التي لم يأت سقراط على بيان شيء منها أيًّا كان يقرر أن القوانين قد تكون غير عدل وأن الناس يجرمون. ولقد كان لفلسفة إستويقس أثرها في الشرائع الرومانية فإن أساس القانون المدني في الإمبراطورية الرومانية، كان – كما قدمنا سابقًا – إباحة علنية جميع الأديان والجهر بسائر الأفكار.

(١) نُبُوّ: ارتفاع البصر في الشيء عن غيره.

قدمنا أن حرية الدين، وحرية الجهر بالفكر، لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية في أوربا، فضربت هنالك حولها نطاق الحجْر والحظر، لما كانت عليه من التقاليد الوثنية.

ابتدأ بها الحجْر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التي تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية، والتي ما كانت تتمثل لأبصارهم سهلة سمحة.

ولشدة نفور الرومانيين منها، وبغضهم لها، واعتقادهم ابتعادها عن روح التسامح، أصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية، وقد أحاطه بقيود لم تيسر السبيل إلى الإسراف في القتل، ولكن الإمبراطور بيو كلتيان أراد تأييد دين الحكومة، وتثبيت قدم الحرية التي ألغوها قديمًا، فكان ما قرره من تنظيم المذابح في المسيحيين بكل فظاعة وقسوة. وفي الحق أن الذي دفع ذلك الإمبراطور إلى هذه الجرائم أن المسيحية كانت تُقَبِّح ما اعتيد من عبادة الرومانيين أباطرتهم، على حين أن ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة، توحيدًا لكلمتهم، وتعلقًا خالصًا بعروشهم التي تمثل الإمبراطورية جميعها. ولكن بدخول قسطنطين الكبير في النصرانية دارت الدائرة على العقل، فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق. وبعد أن كان رجال المسيحية في القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الديني واجب، وأن العقائد ليست مما يلزم به الإنسان جبرًا، فُتِنوا بدخول قسطنطين في النصرانية، وانقلب الأمر رأسًا على

عقب، فكان الحكام والملوك، لأسباب سياسية غالبًا، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية، يوقدون نيران الفتن، ويقيمون المذابح المروعة هنا وهناك، حتى سلب من الدنيا الأمن والسلام، وفقدت الأنفس الراحة والطمأنينة. ولقد كان من تعاليمهم أن النجاة لا تكون إلا بقبول المسيحية، وأن من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا، ولا عذاب الآخرة، مهما بلغت من الفضائل، ومهما يقدم من الخيرات والحسنات، وأنه إذا مات الطفل قبل التعميد فإنه في الآخرة يمشي على بطنه في أرض جهنم أبد الآبدين.

ومن أقدس رجالهم (سانت أوغسطين) الذي مات سنة ٤٣٠ ميلادية، فإنه وضع نظام اضطهاده من لا يقبل النصرانية، واستمر ذلك من بعده متبعًا إلى القرن الثاني عشر، وكلما حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل من دخل الكنيسة، اشتد القساوسة على أصحابها وغَلَوْا في إيذائهم والتنكيل(١) بهم.

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث «كونت تولوز»، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية، فلما لم يطع أمره أقام عليه حربًا صليبية كادت تفني قومه، وفيها صودرت أملاك ذلك الكونت، وكسرت شوكته، ولم يصالحه البابا إلا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه.

(١) التنكيل: العقاب بما يَرْدَع ويُروِّع.

كذلك أقيم نظام التفتيش في المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية، وتم تنظيمه لعهد أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٢م وأدخل في سائر المدن والممالك النصرانية، وعين لذلك المفتشون من القساوسة، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شيء يفعلونه، وساعدهم على ذلك ما وضعه الأباطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة.

ومع كون فريدريك الثاني الكبير كان حرَّ الفكر، أصدر أمرًا يقضي بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئًا في النصرانية يعتبر خارجًا، ويحرق منهم من لم يتب، ويحبس من تاب، ومن ارتد قتل، وتصادر أملاك الجميع وتدمر بيوتهم، وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمة، لا هُمْ ولا أنسالهم، إلا إذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم. وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الإلحاد والابتداع، وطبق ذلك الأمر في إيطاليا وألمانيا خلال ١٥ عامًا (١٢٢٠ – ١٢٣٥م) ثم عَمَّمَ نظام التفتيش في غرب أوربا. ولعهد هنري الرابع والخامس عوقب الإلحاد بالخازوق في إنجلترا بقانون أصدر سنة ١٤٠٠م، ونسخ سنة ١٥٣٣م، ثم أعيد لعهد الملك ماري، ونسخ نهائيًّا عام ١٦٧٦م.

واستمر تطبيق هذه القوانين على المسلمين واليهود، بأفظع الطرق الوحشية، ولم تنسخ إلا في القرن التاسع عشر، وكانت خلال ذلك تطبق بوحشية على من حملتهم على الردة من البيوتات الإسلامية واليهودية. وبالجملة فقد كانت القاعدة التي بني عليها نظام التفتيش «خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد

واحد»، وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ولا كان لمحكمة أن تقبل في حال ما شاهد نفي.

وكما فعل بمخالفي العقيدة النصرانية، كذلك فعل بطوائف السحرة، فمن ذلك أن البابا (أنوسنت الثامن) نشر في سنة ١٨٨٤م بلاغًا يؤكد فيه أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة، فتتبعوهم في كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع، وبخاصة في إنجلترا وإسكوتلانده.

وفي أواخر القرن الثاني عشر جاء للعقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها، إذ أخذت فلسفة أرسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها في غرب أوربا، ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير في تحرير عقول أهل أوربا، كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم، فإننا نجد البابا يوحنا الحادي عشر، يُقَبِّح تعاليم ابن رشد، ويحكم بضرر وجودها ونشرها، كما أن القس توماس قسيس أكوينو بجنوب إيطاليا سنة ١٢٧٤م، قام فأسس للكنيسة فلسفة إزاء فلسفة أرسطو والعرب، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية. والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار، بل إنها في أغلب المواطن كانت تتركها كَرِيشةٍ في مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق.

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية، والنهضة العلمية، دخلتا أوربا فيما حول القرن الثاني عشر الميلادي من طريقين: أحدهما الاحتكاك الذي ظل نحو قرنين مستمرًّا بين أمم أوربا والشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية، والآخر طريق المعاهد العلمية التي أقامها العرب في الأندلس ونابولي وجزيرة صقلية. والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بُدِئَ بهم تاريخ النهضة العلمية في أوربا - كروجر بيكون وأمثاله - كانوا من الواقفين على اللغة العربية وعلى اللغة اللاتينية التي كانت تنقل إليها علوم العرب ومباحثهم في كل فن. وإذا انتحل هؤلاء أو عُزي إليهم بعض الابتكارات، فإنما سبب ذلك ما تعمدوه غالبًا من إغفال المصادر التي أخذوا عنها، حتى لقد رجَّح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الإنجليزي الذي يعزو إليه الفرنجة ابتكار العدسات والنظارات، إنما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم، صاحب المباحث العظيمة في الطبيعيات، ولا سيما الضوء والبصريات. فمجاورة أهل أوربا لأهل القرآن الذي حرر العقول، وأقام صروح العلوم، وزين الدنيا بجميل الفنون، هي التي فتقت بصائرهم، وكشفت عن حديد أبصارهم أغشية الجهالة، التي حجبتهم عن أنوار الهداية أدهارًا طويلة. ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الإنساني موقف أهل القرآن من كل وجه، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذي اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الإسلامية، ولكن كان لسلطان رجال الدين في تلك العصور، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها، ما قاوم تقدمهما وأضعف تأثيرهما. فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم إلى المناحي الدينية، وقصروها على

المباحث الكنسية ، وبذلك صرفوها عن وجوهها الأصلية، وقصدوا بها إلى غير غاياتها الطبيعية.

ومع أن المرسوم الذي أصدرته الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩م، قضى بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات، وألا تفسر التوراة والأناجيل إلا بما تقرره الكنيسة، قد أغضب كثيرًا من الأمم النصرانية، وبرغم أن هذا القرار في الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروتستنتي، فإن لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث أن قرر أن للحكومة حق إجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة، وأن لها استئصال الملحدين المنكرين لها.

بذلك الكيد المبيد للعقل الإنساني والغدر الأثيم به، لم تقو الحركة الفكرية على المضي في سبيل حريتها، والظهور على ما كان يُبَيِّت لها رجال الدين من الحروب الشعواء، حتى كانت أواخر القرن السادس عشر، حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الإنجليزي بحملاته العنيفة، على الفلسفة الدينية، مصدعًا بمعاوله صروحها الشامخة الرهيبة، داعيًا الناس إلى تحرير العقول، ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التي وضعها، واقتاد الباحثين إليها، فبدأ بذلك عهد التجديد العلمي، والتحرير العقلي، الذي لا تزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهِيِّ ثماره الدانية القطوف.

عهد التحرير العقلي

يبتدئ تاريخ العهد الجديد بأوربا، كما هو معلوم، عام ١٥٤٣م، ذلك حينما نشر كتاب كوبر نيقوس الذي يثبت به دورة الأرض حول الشمس، ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه إثبات أقمار المريخ، وإثبات دورة الأرض حول نفسها، مستدلاً على ذلك بالبقع المظلمة التي رآها في جسم الشمس، فبماذا قابلته الكنيسة؟ لقد قرر المجمع المقدس في فبراير سنة ١٦١٦م أن مذهب كوبر نيقوس سخيف، وبمقارنته بما جاء في الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة[١]. ولقد حرَّمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر. وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية في إيطاليا. وكذلك أقام البابا ألكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠؛ كيلا تنشر ما لا ترضاه البابوية من الأفكار الحرة، ولو كانت حقائق علمية ثابتة. وفي فرنسا كان الملك هنري الثاني يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئًا بدون ترخيص. والحقيقة أن الطبع لم يَصِرْ حُرًّا في القرن التاسع عشر، وهو العصر الذي ضعفت فيه سيطرة الكنيسة،

---

(١) الهرطقة: هي البدعة المخالفة للدين.

وقويت شوكة الملوك والأمراء المدنية، وسادت النظم والقوانين الدستورية، ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية في فرنسا (١٧٩٢م) أُعِيدَ وأُيِّدَ القانون القاضي بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية، ولكن وجدت بجانب ذلك حركة شديدة ضد الكنائس، إذ أمرت حكومة باريس بإغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء، مستعملة في ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية، ولكن حينما جاء روبسبيير على رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة عبادة العليّ الكبير (إبريل سنة ١٧٩٥م)، وبعد قليل أحدث دين وضعي جديد، يسمى دين الفطر، وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه، مثل فولتير، وقواعده هي القول بالله، وخلود النفس، والأخوة الإنسانية (الرحمة)، وألا تهاجم هذه الديانة غيرها من الأديان والمذاهب، ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله Theophilanthropy. ولما كان عام ١٨٠١م جاء نابليون فقلب هذا الدين رأسًا على عقب، وأظهر البابوية ثانية في الميدان، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الانتفاع بالسلطة الروحانية والاستفادة منها في حروبه المستقبلة، وتوسيع إمبراطوريته في عالم الكثلكة.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين، لما كان يذاع إذ ذاك من أن في التوراة والأناجيل من التضارب والتنافر ما لا تقوى العقول على قبوله. فتفشى بذلك إنكار الوحي، وسادت المناقشات العلمية هنا وهناك. وفي القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة، فاجتثت كثيرًا من أصولها، وإن يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما

بينهم بعض الشيء، فمنهم من أنكرها بتاتًا واعتبرها غير معقولة وسخيفة، ومنهم من لم يصل إلى هذا الحد الغشوم[1]. فبسكال الفرنسي من المؤمنين بها، وبيكون الإنجليزي كان يعلن اللاهوتية[2] وإن يكن مضمرًا الإلحاد. وهناك ديكارت كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة.

ولقد نقتفي في بعض الأونة أثر تغلب العقل على الكنيسة، في معاملة السحرة، فإننا بعد أن رأينا كيف كان جيمس الأول، عملاً بآية الإنجيل «لا تبقوا على حياة السحرة» That shalt not suffer them to live يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلظة، نشهد في أواخر أحداث عام ١٧١٢م كيف اعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالي هرتفورد شير مجرمة تستحق عقوبة القتل، فرفض القاضي قولهم وبرّأها غير متأثر بتعاليم الكنيسة، ولا متقيد بالتقاليد السائدة إذ ذاك.

ولقد نسخ هذا القانون نسخًا سنة ١٧٣٥م، ولكن في سنة ١٧٥٢م، حكمت محاكم إسكتلاندا بإحراق امرأة ساحرة.

ومن المذاهب الجديرة بالذكر، ما أحدثه في هولندا فيلسوف يهودي اسمه (سبينوزا) وأعلنه إلى الناس عندما حل عقال الفكر، وألقى حبله على غاربه. وعقيدته أن هناك إلهًا ليس قائمًا بذاته، وأنه ليس للإنسان إرادة حرة، وأن القول

---

(١) الغشوم: هو الظلوم الغاضب.

(٢) اللاهوتية: العلم بالعقائد المتعلقة بالله.

بالعلة الأولى أو علة العلل خرافة، وبعبارة أخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود، أو وحدة الوجود، ولابد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزًا إلى صاحب الفكر الحر، فكانت عبارة مقت وتكفير إلا فيما ورد منها في بعض الكتب الدقيقة، ولكن الحقيقة أن الذين سموا إذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا إلاَّ إِلَهِيِّين، بيد أنهم ينكرون الوحي فقط.

ومن معاصريه (لوك)، ومغزى كتابه الذي وضعه سنة ١٦٩٠م أن العلم جميعه ليس إلا نتيجة التجارب، وقد أخضع الاعتقاد في جميع أحواله للحكم العقلي، وقرر رفض ما يخالف الحكم العقلي من الوحي، لأن الوحي لا يعطي علمًا صحيحًا كالذي يعطيه النظر العقلي، وقد وضع كتابًا في موافقة النصرانية للعقل، ولقد حذا هذا الحذو معاصره «بايل» الذي وضع بعد نفيه من فرنسا إلى هولندا كتابه «القاموس الفلسفي Phylosophical Dictionary» ومن كلامه أن فضيلة الاعتقاد تنحصر في الإيمان بقدرة الله وسلطانه وحده، ويقول إنه يستحيل أن يتصور الإِلَهِيُّون تطبيق صفات الأرثوذكس على الإله الذي ثبت بالعقل وجوده. ولما قبل فريق من الأرثوذكس تحكيم العقل ضلوا، وسقط منهم كثير في هاوية الإلحاد. وقد تطابق الإِلَهِيُّون و(سبينوزا) في القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب.

ولقد ظلَّت أفكار الإلَهِيِّين خَفِيَّة مكتومة إلى سنة ١٦٨٥م حين أبطلت قوانين المطبوعات، فابتدأت إذ ذاك تظهر بعض الظهور، برغم ما كان أمامها من العقبات الإدارية الأخرى، وهي:

١- أنه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن في المسيحية، أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها، أو يأتي بإلحاد، أو سبٍّ للمسيح.

٢- ترجمة القانون العام ١٦٧٦م (ترجمة قاضي القضاة هيل في قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أي عمل أو قول أو رأي يخالف تعاليم الكنيسة، يعتبر مخالفًا للقانون العام، إذ النصرانية ركن من أركان القانون العام الإنجليزي.

٣- صدر قانون عام ١٦٩٨م يقضي بأن كل نابت في النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها، ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة في الوظائف العمومية، وفي الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة وحبسه ثلاث سنوات.

ولقد تولى فولتير، وروسو، في القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر. وللأخير يُعزى كتاب «أميل» الذي أُحْرِقَ علنًا في باريس وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه فما وسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا، ولكن رجال الدين هناك مازالوا يضيقون الأرض عليه حتى اضطروه إلى مفارقة بروسيا. ولقد كان

لروسو أعظم تأثير في الحياة الاجتماعية، بعد الذي نشر من نظرياته الاشتراكية في كتابه «العقد الاجتماعي» Social Contract الذي أُحْرِقَ علنًا في جنيف.

وفي سنة ١٧٧٠م فوجئ القرّاء الفرنسيون بالدهشة يوم ظهر كتاب البارون دي هولباخ «نظام الطبيعة» System of nature الذي أنكر فيه وجود الله وخلود الروح، وقد انتشرت في القرن الثامن عشر حركة الإلحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم. على أن ذلك استمر إلى ما بعد هذا القرن، فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩م، وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل age of reason) ثم قدمت امرأته وابنته وكثير من بائعي الكتب للمحاكمة بسبب ذلك الكتاب.

وفي أواسط القرن الثامن عشر، ابتدأت حركة الحرية الفكرية، بعد إذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة، وبعد أن رأينا كيف نفى أبو فردريك ملك بروسيا الفيلسوف وولف، لمجرد أنه مدح ديانة كونفشيوس الصينية، وما كان لأحد في رأيه أن يمدح دينًا غير النصرانية. وبعد ذلك جاء ابنه على إثره بالتسامح الذي جعل أرضه موئلاً ومعاذًا لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الأخرى. ثم جاء شكسبير وغوته بما قدما لعالم الأدب، فخطوا بالعالم في حرية الفكر خطواتهما الواسعة. وقد زلزل الثقلين (كانْت الفيلسوف) إذ بيّن في كتابه (نقد العقل الصحيح critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات، وبطلان الأدلة التي أقيمت على خلود الروح، وادعى أن لا مصدر

للعلم سوى التجارب، ولكن في آخر الأمر وضع كتابًا آخر روحه إلهية، وذلك حرصًا منه على الأخلاق في الشعب التي هي ميزان الحياة الاجتماعية، والتي لاسبيل إلى إصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ بصبغة روحانية، وتسند إلى مصادر سماوية.

مما تقدم يفهم أن العلوم العصرية في البلاد الغربية ترجع إلى القرن السادس عشر، الذي شهدت ثبوت نظرية كوبرنيقوس، وشهد القوة المركزية الجاذبة، ونظام الدورة الدموية، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة، كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها. ولكن هذه المكتشفات ظلت إلى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة، التي وردت في كتب العهدين إلا بدرجة محدودة، بيد أنها مع ذلك قادت الأفكار إلى البحث في الروايات التاريخية، التي جاءت بها، كطوفان نوح وسفر التكوين. فلقد جاء لابلاس في أوائله كما قدمنا، فقرر أن أبحاثه تقضي إلى رفض نظرية وجود الخالق ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض في الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان.

وفي عام ١٨٦٣م أوضح الأستاذ ليبل الفرنسي Lyell في كتابه «قِدَم الإنسان» أن الإنسان سكن الأرض قبل العصر الذي عينته التوراة بأزمان مترامية في القدم، ولكنه رأى إمكان الجمع بينهما باعتبار اليوم الذي جاء في

التوراة طويلاً جدًّا، لا كأيامنا المألوفة، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الأيام التي خلق فيها الإنسان، فإن التوراة تفيد بأنها كانت كأيامنا.

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زعزع أركان الأناجيل، ولكنها تركت بابًا للقول بوجود النوع البشري «قبل التاريخ»، ومازالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان، مبينًا أصل الإنسان، فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء، وسائر النواميس الطبيعية، وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الأجناس Origin of Species عام ١٨٩٥م.

وازدادت الثورة الفكرية، وتأججت نيران الجدل عندما ظهر في عام ١٨٧١م كتاب دارون The Descent of man بين الدينيين وغير الدينيين، حتى لقد يؤثر عن غلادستون في تلك الآونة قوله: «إذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الإله باعتباره خالقًا قد انتهت، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية، وأنها قارة خالدة على حالة واحدة لأصبحت حكومة الرب في العالم مما لا حاجة إليه». وإذا أردنا أن نعرف مركز العقل، ومدى حرية الفكر في البلاد الغربية، غير الإسلامية، حتى في أواسط القرن الأخير، فحسبي أن أقتبس كيف صور المؤرخون بلاغًا أذاعه أحد الكرادلة من الأنجليز إذ يقولون:

«في سنة ١٨٦٤م أدهش الكردينال مانتج الإنجليزي عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه: إن لكل إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحًا، وإنه ليس للكنيسة

حق الإكراه على العقائد، وإن علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب ألا يتقيد بالوحي، ولا برغائب الكنيسة، وإن للكاثوليكيين حق دعوة من يشاءون من مهاجري الملل الأخرى، وإن لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة، وإنه يجب على البابا أن يقيم في سلام مع الرقي العلمي والحرية والمدنية».

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الأحداث الكبرى التي أدهشت عالم النصرانية، مع أنه عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الإسلامي، وأَلِفَه منذ أشرق نور القرآن على القلوب، وتجلت تعاليمه الفطرية على العالم الإنساني، تفرض التفكير، وتقبح التقليد، وترفع الحجر على العقول.

مما أسلفنا نعلم ما كان بين الفكر البشري، وبين ملل الغرب، من الجدل العنيف، والصراع الدائم في العصور العديدة، حتى كاد ينتهي النصر في العاقبة للعقل، ويكتب الغلب لحرية الفكر.

وإنما قلنا (كاد) لأننا لا نزال نرى في بعض ممالك أوربا، وفي أمريكا الجديدة، أقوامًا لا ينفكون ينصرون القديم، ويفضلون الجمود على ما كان عليه الأولون، ولو عارض المشهودات العينية، وناقض الحجج المنطقية. وهل نسيَ أحد منا كيف عاملت في العام الفارط إحدى جامعات أمريكا كبيرًا من أساتذتها، لترويجه مذهب دارونِ، يوم قامت من حوله ضجة وعجة[١]، لم يخفت لها صوت، حتى انتهت بفصله عن كرسيّه في تلك الجامعة.

(١) عجة: صياح وجَلَبَة.

الحرية في الشرق الأقصى

حسبنا تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشري في الغرب، من الأزمات التي احتمل ما لا يوصف من آلامها وشرورها أدهارًا طوالاً في سبيل حريته واستقلاله. والآن ألمّ إلمامة خفيفة بما كان عليه العقل في الشرق الأقصى في ذلك الوقت الذي انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الإغريق؛ أي فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فأقول: بينما قام في الشرق الأدنى إكسينوفانيس فهاجم آلهة اليونان ممطرًا إياها وابلاً من التهكم والسخرية، داعيًا الناس إلى ترك عبادتها والزراية بسخافاتها، وبينما كان هيركيلتوس وديموقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من أسر التقليد الجاهلي، واجتذابها إلى حظيرة التفكير في ملكوت السماوات والأرض، نجد في الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية، تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجاهلة، في سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية: ففي الهند يظهر بوذا بتعاليمه، وفي الصين يحارب كونفشيوس ما كان في قومه وحكام عصره من التفاوت في الطبقات، والنزوع إلى الفوضى السياسية والاجتماعية ، ويهذب ما كان يرى في أمراء زمنه من القسوة والغلظة والجور واستعباد الناس.

ومما يلاحظ هنا أن الشرقين، وإن اتحدا أو تقاربا في زمن نهوضهما ذلك، فقد تشابها في كنه تلك النهضة وطبيعتها، إلا أنها كانت في الهند أشد عناية بتهذيب النفس، وتطهيرها من أدران الأخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشئون العامة المادية، كما أن النهضة الكنفوشيوسية في الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية.

كما جاء رجال الدين في الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفًا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العبادية، والعقائد التي أرهقت العباد، وأزهقت الأرواح واستعادت استعباد العقول، وجعلت القرون الوسطى شر القرون وأشقاها، كذلك فعل زملاؤهم في الصين والهند وما حولهما مثل ما فعلوا، فكان من حكمة العليم الحكيم، ورحمة الرفيق الرحيم، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين في ظلمات الضلالة، الهائمين في أودية الجهالة، ليفك أغلال عقولهم، ويرفع منزلة نفوسهم، ويكلهم إلى وحيه المنقذ لا إلى تجاربهم العاثرة، وأن يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التي فنيت فيها الملايين من طلّاب الحرية والمساواة والعدل من أصحاب الملل والنحل الأخرى.

القرآن والحرية

شاء - جلَّت حكمته - ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة، ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة، وينجي من معاثر الجهالة العقول الضالة.

وسيتبين مما أقصُّه كيف سار القرآن الكريم بالعقل البشري في سبيل الحرية، وأين حلّ بالعقل من المنازل العلية. بيد أنه يجمل أن ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من أنه إذا كان دين القرآن هو دين الفطرة، وإذا كان مقياس صحة الأحكام في نظر القرآن هو العقل والمنطق. فماذا عسى أن تكون فائدة الدين؟ ولماذا لا يترك العقل البشري يجاهد وحده في سبيل الحق والحقائق، حتى يبلغهما، وينقِّب عن الخير والشرّ والنافع والضارّ، حتى يفقه كنهها، ويدرك حدودها، ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات؟

إلى أمثال هؤلاء نقول إنه من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب إلى ما تصبو إليه النفس الإنسانية، من مراتب الكمال في الأحكام، والتصورات والنظم الاجتماعية، والمسائل العلمية والآداب الخلقية،

ولكن في سبيل ذلك عقبتين لابد من ذكرهما حتى تتحقق مثل تلك الأمنية: إحداهما عاديَّة والأخرى طبيعيَّة.

فأما الأولى فهي ضروريَّة انسلاخ عدة من القرون في التجارب والبحوث التي يقتضيها الوصول إلى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة.

وأما الثانية فهي ناموس النشوء والارتقاء، أو التطور التدرجي الذي بالاعتماد عليه وحده في عالم المعقولات والمعنويات، لا يمكن أن يصل العقل البشري إلى مرحلة، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل.

على أن ثمة عوامل تكتنف سير العقل في أحكامه وأبحاثه، وكثيرًا ما تقوم منها العواثير التي قلَّما ينجو معها من السقوط والزلل. وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية، والاضطرابات العصبية، التي لا يجهل أحد منا آثارها في شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية. ومن المغالطة أن نبرِّئ أنفسنا أو ندّعي بلوغ الكمال في شيء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنا، ما دمنا نجمع بين جُنُوبنِا نفوسًا جامحة، إلى قلوب متقلبة، إلى شهوات مطاعة، إلى هوى متّبع.

فالدين فيما أراد منزله جلّ شأنه ضروري لأصحاب تلك الأهواء المتقلبة والنفوس الجامحة.

لذلك، وللسلوك بالناس أقصر طريق وأقومه وأسلمه، يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن تزِلَّ أقدامُهُم، وتضلّ أحلامهم، وتفتنهم أهواؤهم، وتضيع مئات السنين أو آلافها في البحث عما تصبو إليه نفوسهم من العلم والحرية والمساواة والعدل، وسائر الفضائل والكمالات.

جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء، فطابقت قواعد أحكامه وأصول آدابه وشرائعه، مقتضيات الفطرة البشرية، حتى لقد كان من أمهات أصوله فيما هو خاضع لتأثير المؤثرات، وعرضة لتعاقب التطورات، أن يكون العرف في كل أمة مقياس تقديرها، ومن هنا كان لابد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الأزمنة والأمكنة والعرف الخاص في الشعوب والأقوام المختلفة، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل، غير متنكر لما فطرت عليه طبيعته، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره في الحياة الاجتماعية بجميع شعبها.

عرف القرآن أن الإنسان مفطور، منذ بدأ إحساسه وشعوره، على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الأحداث والكائنات، فزاد تلك الغريزة تنشيطًا وإنعاشًا، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات، المحصورين في مضايق التقليد، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة إلى تدبر وتفكير، ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم، أو برهان يحاكمه به إليه.

لم يكن من منافرات العقل أن يأتي القرآن فيدعو الناس إلى الإيمان بالرسل والأنبياء، والأخذ بما كُلِّفُوا تبليغه من الأحكام والشرائع والآداب والفضائل، فإن ذلك للمتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته. فمن ذلك أن العقل مفطور على الشعور بالحاجة إلى ما يدفع عادية الأفراد والجماعات بعضهم على بعض ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[البقرة/ ٢٥١]، كذلك هو مسوق بغريزته إلى أن يضع أو يقبل كل ما يرى فيه ضماناً لنظام الحياة الاجتماعية في العالم الإنساني، وبما أن عقل الإنسان معرض للإفلاس والزلل في معالجة الشعب التشريعية والأدبية والعلمية، على ما بسطناه في محاضرة أخرى، كان بطبيعة الحال ميالاً إلى الطمأنينة، والسكون إلى من يثق به، وإلى قبول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب، ويقيه المغامرات التي تستلزمها الظنون والتجاريب، شاخصًا إلى وحي ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطباع، العليم بما فيه صلاح شأنه وإسعاد حياته، وأن حرص الإنسان بفطرته على التماس أقصى الطرق المؤدية إلى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفعه إلى طلب القدرة التي تسكن إليها نفسه، وتقبل ما يصدر عنها من الأقوال الحكيمة، والنصائح القويمة، وهذا هو سر اندفاع العامة، وأكثر الخاصة، إلى الاعتقاد في أفراد من الناس يرجون أن يبلغوا بهم منازل الكمال، ويعيشوا بهديهم في سعادة وسلام من الأنبياء والرسل، وممن على قدمهم من الدعاة. وإنما طبع الإنسان على ذلك لأنه يكره أن يتدرج في تعرف الفضائل وطلابها تدرجًا قد لا يدرك في غضونه صواب أمره أو لا يضمن سلامة سبيله، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من

شتى الأعمال والتصرفات والأحكام يميل بفطرته إلى الإصاخة[١] والاستماع إلى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعونه إليه ضالته المنشودة التي يصبو إليها، وقلَّما عرف لها سبيلاً إذا ترك هو وشأنه.

فالإنسان بفطرته السليمة وعقله الحر، مدفوع إلى الطمأنينة، والاعتقاد فيمن يسلك به سبل السلامة، من الخطأ والخطل والزلل، حذر أن يفوت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو إليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب، وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب الناس عليها من جميع الطبقات، ومختلف الأسنان في سائر الأزمان.

---

(١) الإصاخة: الإنصات والاستماع.

القرآن يخاطب العقل

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرّع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل، وإذا حاج فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطّلي العقل، وإذا رضي فعن أولي العقل.

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل، والماديين والدهريين، فما قارعهم إلا بالبرهان، ولا دعاهم إلا إلى البحث والنظر... من ذلك آية ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٧٩]، وكم من آية قرع فيها أولئك الضالين لإلغائهم عقولهم أو لاحتباسهم إياها على ما وجدوا عليه آباءهم، ولو جيئوا بأهدى منه كما في آية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة/ ١٧٠].

ومن الآيات التي هزمت أشياع التقليد، المعطلين لعقولهم في كل زمان ومكان شر هزيمة، قوله تعالى في الآيات ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ

﴿وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء/ ٣٦] و ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس/ ٤٣].

ولا تكاد تمر بك آية في المجادلات إلا وهي مختومة بمثل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل/ ٧٥]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف/ ٣]. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة/ ١١١]. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون/ ٤] ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء/ ١١٣]. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص/ ٧١]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد/ ١٩] وهلم جرًّا.

وقف القرآن الكريم في جميع مقاماته، لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذي جاء به، فإذا دعا إلى عقيدة، أو ركن من أركان الدين، تجافى عن الإلزامات التي لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفهام. وكلما هم بتلقين أصل من أصوله، بدأ بالمقدمات النظرية، ثم ينتهي بالتحذير من جحودها عنادًا وكفرًا، وذلك كما يقول في آية ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال/ ٤٢] وآية ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء/ ١٦٥].

ولم يكن منزل القرآن جلّت حكمته، وهو خالق الإنسان ومالك القلوب والأسماع والأبصار، لم يكن في شيء مما أوحى من آياته إلا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التي منها العدل والحق والخبير، فهو الذي لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين، ولكن مبشرين ومنذرين ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ

مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية/ ٢١-٢٢]. ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل / ٣٥]. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس / ٩٩]. ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف /٥٦]. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق / ٤٥].

إن أول ما بدأ به القرآن في التحاكم إلى العقل الإيمان بوجود الله، فإن القرآن، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال، حتى إنَّ منهم من لم يقبل الإيمان التقليدي بالله وإن أفتى الغزالي وأمثاله بقبول الإيمان التقليدي من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر إما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه، فاكتفوا من هؤلاء بالإيمان الثابت رحمة بهم، ووقوفًا معهم عند مدى موسوعاتهم، وإن كان تقليدًا لم يقم على شيء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظري.

فأما دعوة القرآن الكريم الناس إلى البحث والنظر والتحاكم معهم إلى التفكير والعقل، فإنهما لا تكاد تخلو منهما سورة من السور، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا المقام، فلنجتزئ هنا باقتباس شيء من هذا فيما يلي من الآيات:

١- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد/ ٣ - ٤].

٢- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/ ١٦٤].

٣- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية/ ١٧-٢٠].

٤- ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات/ ٢١].

٥- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت/ ٥٣].

٦- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف/ ١٨٥].

ولا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك في القرآن الكريم، فلنكتف بما اقتبسناه هنا، منتقلين إلى البحث في مسألة تخبّط فيها كثير من الباحثين. تلك هي: ما مصير من لم يقصِّر في النظر والبحث، ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول إلى العقيدة الحقّة في الدين؟

للعلماء في هذا المقام آراء مبسوطة في الكتب المختصة بها، ولا يعنيني هنا إلا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه، فأستفتيها في حكم ذلك الفريق من الناس، إلا أنني قبل ذلك أسترعي ذهن القارئ إلى المسلَّمات الأولية التالية:

١- أنه ليس في استطاعة العقل البشري، إذا قام عنده الدليل الصحيح على حكم، أن يرتاب فيه.

٢- أنه ليس في مقدور العقل البشري أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معًا.

٣- إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة، كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب على سواه.

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية، وجاء كتابه السماوي مصدقًا لها، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ولكنهم إن اختلفوا بعض الشيء

فما عَنَّ[١] لهم من الآراء، تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يئول إلى حكم العقل من الشرعيات، ما ظاهره يخالف العقل.

وهل هذا إلا وقوف عند حدود المسلمات العقلية، ونزول على حكم الفطرة البشرية، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والإرغام؟ أم هل كان لدين الفطرة، دين البحث والنظر، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن إدراكها، أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات، حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين، الذي قوَّض دعائم الإيمان بغير المعقولات، وأقام على أنقاضها عقيدة الإيمان اليقيني المتحصل من طريق العقل والنظر؟.

إن الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلّف الناس ما ليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدهم إلى حجته وبرهانه، يفقه ذلك من يتدبّر قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء/ ١٦٥].

إذن فلنعد الآن إلى سرد آي القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلي:

---

(١) عنَّ الأمر: ظهرَ وعَرَضَ.

١- ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود / ٢٨].

٢- ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق / ٤٥].

٣- ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ . إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة / ١١٨-١١٩].

٤- ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى / ٤٨].

٥- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [النازعات / ٤٥].

وخلاصة القول إنَّ القرآن الذي هو كتاب دين الفطرة، ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة، أو تغم حكمته على العقول السليمة، ولم يكن ليكلف العقل الإيمان بما لا يعقل، أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به، أو أن يفترض على الإنسان ما ليس من موسوعات فطرته. إذن فوظيفته في البشر رسم أقرب الطرق إلى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلك التي يغشاها طلاب الحق والحقيقة، لا من طريق الوحي بل من طرائق التجارب، ومصارعة شياطين الإنس من الحكام الجائرين، وعصابات رجال الدين المضلِّلين. ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشواهد، لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية إزاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار،

وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية، أو أبيحت حرية التفكير والنشر، وتقررت بينهم حقوق الإنسان، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء، وأزهق في سبيلها من الأرواح. سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها، وما أصاب الأمم من شرورها ونكباتها.

موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات

لست هنا في مقام المتعرض للبحث في أمر وجوب المعجزات وخوارق العادات إثباتًا أو نفيًا، ولا أنا في مقام المعرف بكنهها[1] المحصي لأنواعها وأقسامها، فإن شيئًا من ذلك ليس مما نقصد إليه هنا، ولكن الغرض الذي نرمي إليه في بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات والخوارق. ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رأته الأديان الأخرى من اعتبارها أسسًا للعقائد الدينية، وآيات قاطعة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والأنبياء في إفحام المتحدين لهم من الأمم التي يرسلون إليها؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها —مع دعوته إلى التعقل وحضه على النظر والتدبر - ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج؟

فلا يلتَبِسَنَّ الأمر على القُرَّاء ولا يغيبَنَّ عن أفكارهم هذا المقصد.

امتاز الإسلام من بين الأديان، كما أسلفنا غير مرة، بأنه دين الفطرة والعقل، كما امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسول الفطري الذي أُرسل بالحق

---

(١) كنهها: قدرها ونهايتها وغايتها.

والهدى بشيرًا ونذيرًا. فميزان صحة هذا الشرع الحنيف وقسطاسه[1] المستقيم، هو أن جميع ما جاء به من الأحكام والمراسم، وضروب المواعظ والإرشاد، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح، ولا تأباه النفوس السليمة. إذن فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته.

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين، دين العلم والحكمة، دين البيان والبرهان، ولكن الأقوام الذين أنزل فيهم كانوا أهل جهالة وعناد، وعباد أهواء وشهوات جهلوا سر الإسلام وروحه، فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الأولون من طلاب المعجزات والخوارق. ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجمًا عن تَرَوٍّ وصدق رأي، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثًا أو عنادًا، أو التزامًا لما أرضعتهم الجاهلية الأولى من الضلالات والأباطيل، وفقدان العلم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ . وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة/ ١١٨-١٢٠].

ظل النبي عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم إلى العمل بمقتضيات الفطرة، ويرشدهم إلى كنه وظيفته النبوية، وما هي سوى الهداية

---

(١) قسطاس: أعدل الموازين وأقومها.

إلى السبيل القويم وإرشاد الناس قاطبة إلى ما فيه الخير والسلامة في معاشهم ومعادهم ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام/ ٥٠].

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذّب بها الأولون بعد إذ ألحُّوا في طلبها، وأجيبوا إليها، فرأتها أبصارهم رأي العين. ولكن عدم وجود صلة بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلاّبها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طِلابها واللجاج في استنزافها، فمنهم من يراها من أنواع السحر، ومنهم من يكذب بها بغيًا وعدوانًا ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام/ ١٠٩-١١١].

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدي، لما أصرّوا على طلب ما قد طلبه أسلافهم ملحفين[1]، ثم تولوا عنه بعد إذ جاءهم مدبرين مكذبين. لكن كان ذلك منهم جهل عناد وإعنات؛ ولهذا لم تفدهم هدايات

(١) الإلحاف: الإلحاح.

القرآن الكريم، ولم تزدهم بيّناته إلا عتوًّا واستكبارًا ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا . نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء/ ٩٠-٩٣]، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام / ٧].

يقص علينا القرآن في غير موضع أنه طالما كذّب المشركون وأهل الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمعنوا في إعناته وإيذائه، ولَجُّوا في زعمهم أنه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها. كما يقص علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفرّ المعاند من الخنوع له لأمدّ الله بها رسوله، ولأيّده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها. ولكن علّمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها، واستنكرتها أنفسهم بغيًا وعلوًّا. ولهذايبيّن لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أَبَى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته، ولا يقوى معاند على معارضتها. تلك هي القرآن الكريم نفسه ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت / ٥١].

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سُئِلَ معجزة من المعجزات إلا تلطف بطلاّبها وأرشدهم فيها إلى الأخذ بأسباب العلم والهدى وسمَّاهم تارة بالجاهلين، وأخرى بالذين لا يعلمون. ولا ترى في القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جارى أولئك الحمقى في سبيل مطالبهم، وجاءهم بشيء من المعجزات التي سألوها، وقد جاء هذا صريحًا في قوله ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء/ ٥٩]، قال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية: «قول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا عنه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجِلُوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات لأنّا لو أرسلنا بها إليهم فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم».

وما كان مبعث الإضراب عن إجابة مطالبهم وإلحافهم في سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شيء من ظواهره الكونية العادية ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الأولين لجاجًا في الطلب وجنوحًا عن التصديق، وجهلاً بمكانة دين الفطرة، وضلاً عن ركنه المتين، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام/ ٣٧]، وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية إقناعية، لما أمعن المعاندون في تأويلها

تارة وإنكارها أخرى، وما قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام / ٧] إلا لبيان هذه الحقيقة. ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتَّى. فمنها ما يظهر على أيدي المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله، ومنها ما يظهر على أيدي غيرهم من السحرة والمشعوذة ومنها ما يظهر على أيدي أرباب الرياضات الروحانية، حتى من المجوس والمشركين.

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيم يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التي يراد منها إقناع المدعوين إلى صحة الرسالة، وإثبات أن الرسل صادقون في دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه في تبليغ أحكامه وآدابه، ولا يكفي في التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التي تظهر على أيدي غير الأنبياء أنهم مبعوثون من قبل الله إلى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته. فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد إذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلهم، فتارة يقولون هي سحر مبين، وأخرى ينكرونها معاندين.

فالإسلام فيما يصوّره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الأخرى بأنه دين اليقين والنظر، لا دين خوارق العادات، وما وراء العقل من الآيات. ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة/ ١١٨- ١١٩].

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم أوهامهم ووساوسهم، وتعطّلت في حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم، فسبحوا في لجج من الوهم، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، وأن معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوي، وضمان ذلك لسعادة الإنسان في حياتيه الدنيا والأخرى.

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حدًّا كان يكبر عليه فيه إعراضهم عن دعوته، وإصرارهم على مخالفته، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلا مراء مسئول عنهم، وحامل لأوزارهم، فأنزل الله في تسليته وإراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة/ ١١٩]. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى/ ٤٨]. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود/ ١٢].

وَلَكَمْ شقَّ على المصطفى ﷺ انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات، فكانت نفسه الشريفة تطمح آونة في أن ينزل الله شيئًا من آياته مجاراة لأولئك الضالين المعاندين، ولكن الله الذي أدَّب رسوله وأكمل عقله أراه في آية ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام/ ٣٥]. أراه في هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين، وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الإنسان.

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام، بعد إذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره بما كانوا يعرضون، وأن يحزنه الذي يقولون، أو مصيرهم الذي يوعدون، فإنهم ما كانوا يكذّبونه، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، فما عليه إذن من حسابهم من شيء، بعد إذ قام بما حمله من التبليغ المبين: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد/ ٤٠].

۞ لا إكراه في الدين

وهنا مبحث يجب أن نعجل الإلمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون، ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه في الدين، وأن الرسول غير مكلَّف بشيء سوى التبليغ المبين، والتذكير بآيات الذكر الحكيم ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ. لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية/ ٢١-٢٢] وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم في قومه مقام الجبارين، فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد إعراضهم عن دينه بعد آية: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق/ ٤٥].

فالإسلام الذي هو دين الفطرة، ومجموع الكمالات القدسية، والآداب الإلهية، ليس بذلك الذي يتذرَّع إليه بالقسوة والغلظة، ويروج في العالم بالسيوف والنيران.

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، فمنها البرهان العقلي، والخطابة والشعر والتقليد، ولكن من هذه الأنواع تأثيرًا في نفوس الناس، بمقدار ما

فيهم من العقول، والتجارب والذكاء والتحصيل، وإنما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين، لما نعلمه من أن العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التي ورثها بمحض التقليد والاقتداء، ولو كانت غير معقولة، ومنافرة للعقل السليم، وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث، وقولهم إن عيسى صلب ليفتدي أتباعه بدمه، وليكفِّر عن العالم جميعه ما ورثوه كرهًا من سيئات آدم أبي البشر، وهكذا من العقائد غير البينة.

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الرَّيْب والمِرْيَة إلى عقيدته على جهله، وعدم تحصيله وقصور عقله، وما هي سوى قول تلقفه ممن يثق به، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم.

ما كان للعقائد أن تتكون بالإرغام والقهر، ولا للإسلام الذي هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن إدراكه، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدِّها ومدافعتها.

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اكتفى منهم في حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية إذا أبوا الإسلام، يدفعونها في سبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم، فهم إذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق، وعليهم منها ما عليهم.

۞ أهل الرِّدَّة

أما أهل الرِّدَّة الذين دانوا لله، والتزموا الإسلام، ثم ارتدوا عنه - إما إلى غيره من الأديان لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدَّتهم عن البقاء على شيء من أصوله، ويسمي الفقهاء جميع هؤلاء بالمرتدين ويفتون فيهم بالقتل، إمَّا بعد الاستتابة أو دونها على خلاف لهم في ذلك - أما هؤلاء فإن علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول :

إن ذكر الرِّدَّة جاءنا في موضعين من القرآن الكريم، ففي سورة البقرة جاءت آية: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة/ ٢١٧].

وفي سورة المائدة جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة/ ٥٤].

وظاهر أن هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الرِّدَّة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين، وكل ما دلت عليه آية البقرة –المذكورة آنفًا– أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى، ومعنى الرِّدَّة هنا – على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة – أن معناها الارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتئون يقاتلون الرسول وأتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفارًا بعد إذ آمنوا.

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة/ ٢١٦-٢١٧].

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت في قوم من المسلمين كانوا يهمّون بالكفّ عن القتال، ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم، وأن يبذلوا مُهَجَهُمْ وأرواحهم في نصرته وتأييده، بغضًا للقتال، وضنًّا بالأرواح، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء إخلادهم إلى العدو وإعراضهم عن صدّه سوى أن يستذلّهم ذلك العدو ويتعبّدهم، وأن الموت الذي يفرون منه لا ريب ملاقيهم، إلى ذلك

يشير قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة/٢١٦].

ولو أن أولئك النفر أدركوا بسهولة، ما وراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البالغة، والمنافع العظيمة، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال في سبيل الله خلال الأشهر الحرم، ولكن وهنت قلوبهم، وتمكّن حب الحياة من نفوسهم، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الذل الخالد والمسكنة الأبدية، واستهانوا بأمر الفتنة في الدين، فجنحوا إلى التسليم، وإغماد السيوف، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خلال الشهر الحرام، كأنهم يريدون بذلك أن يجد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الأعداء، وحماية دين الله من الأذى والمكر السيئ.

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح إلى النزول على حكم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب، جاء في استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة/ ٢١٧].

ذلك حكم الله في المسلمين، إذا ما فتنوا عن دينهم، وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوّه، ويرغب عن بذل روحه في

سبيل حماية دينه وملّته ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة/ ٨٥].

فالرِّدَّة في هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الإسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين، ولكنها رِدّتهم عن نصرة الإسلام، وتخلّفهم بأنفسهم عن تأييده، وحماية ذماره[١]، بينما أعداؤه لا يفتئون يناوئونه[٢] ويكيدون له، ولا يزالون يحاربون رسوله والقوّامين عليه.

وهذه الآية وإن لم تنصّ على قتل أولئك المرتدين، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفتاه أبو بكر وعمر من بعده، وكيف نكّلوا بهم إذ كفوا عن الدفاع عنه، ثم انقلبوا خوارج عليه، يحاربونه ويقتلون أهله تأييدًا للمشركين من أقوامهم وتوهينًا لبنيانه، بعد إذ ظهروا على عورات المسلمين، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم. ذكر صاحب الكشاف أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدّت عن الإسلام، ثلاث في زمن الرسول عليه السلام، وسبع في خلافة أبي بكر، وواحدة في عهد عمر، وقد كفى الله الإسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه ونقض أركانه.

ذلك قولنا في آية البقرة. أما آية المائدة فإن المتدبر للآيات السابقة لها في القرآن الكريم، يتبين أنها لا تكاد تخرج عن المعنى الذي نزلت فيه آية البقرة،

(١) حماية ذماره: حماية ما ينبغي حياطته والذود عنه كالأهل والعرض.

(٢) يناوئونه: يعادونه.

ذلك أن قومًا من منافقي المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم، فجعلوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب، هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يدًا عندهم، حتى إذا كان ما حسبوا وخشوا، سلموا من بطشهم وأذاهم. وفي هؤلاء نزلت الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ . وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة/٥١ – ٥٣].

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين، ليكونوا لهم شفعاء إذا وقع ما خشوا وحسبوا، وأسرعوا خفية إلى الاندماج في سلك أهل الكتاب لتوقعهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبي عليه الصلاة والسلام وأشياعه، فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى، ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين ﴿بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة/ ٥٤] لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيئ الذي بيَّتَه أولئك المنافقون، ومن تخلفهم وارتدادهم، وتوليهم عمدًا عن نصرة دين الإسلام ومناصرة أهله، ما قد كان يمحو آثار التوحيد، ويرفع منار الشرك في الأرض.

فالارتداد في آية المائدة –كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها– إنما أريد به تولي أولئك المرتدين عن نصرة الإسلام، والتخلف عن درء الأذى عن إخوانهم المسلمين، تاركيهم لغارات أعدائهم.

ومن الآيات التي جاءت في هذا الموضوع، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء/ ٨٨ – ٩١] .

أي ما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فئتين والله ردّهم إلى أحكام أهل الشرك المحاربين في إباحة دمائهم.

نزلت هذه الآيات على رأي فيمن تخلفوا عن الحرب في وقعة أحد، وانصرفوا إلى المدينة قائلين: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٦٧]، وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية في كل زمان ومكان ودولة دماءهم. على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما: من يصلون إلى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة[١] وميثاق وعهد. ومن جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أي ضاقت عن الميل إلى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة أقوامهم، فلم يجعل الله بذلك سبيلاً للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونسائهم.

وقال آخرون: بل كان اختلاف المؤمنين في قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس.

فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت في منافقين غير مسالمين ولكنهم خونة غدارون.

والقول السديد الذي ارتضاه الطبري في تفسيره - وهو الذي أراه - إنها نزلت في قوم من مكة لا المدينة ارتدّوا بعد إسلامهم فكانوا حربًا على المسلمين مع قومه ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [النساء/ ٨٩]،

(١) الموادعة: المصالحة والمهادَنة.

فإن الهجرة لم تكن فرضًا على أهل المدينة ومع ذلك فهي مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء/ ٩٠].

ومن هنا يتبين أنه لا علاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الإسلام لمجرد شبهة لم يستطع صاحبها ردّها، وفكرة عجز عن دفعها.

ذلك ما جاء في القرآن الكريم، فلننتقل إلى ما ورد في السنة في هذا الباب، فنقول:

إن الأحاديث التي وردت في هذا الباب كثيرة، وجُلّها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين وعلي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم. أما ما عُزي إلى الرسول عليه السلام في ذلك وصحَّ سنده، فقليل جدًّا، ومنه أن قد أمر النبي ﷺ بقتل المرتدّين المحاربين.

روى في ذلك البخاري حديث النفر عن عكل، إذ قدموا على الرسول عليه السلام، فأسلموا فاجتووا[١] المدينة، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها ففعلوا،

(١) اجتوى الشيء: كرهه، والمعنى هنا: ساءت صحتهم في المدينة.

فصحّوا ثم ارتدّوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم، فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم، ثم لم يحسمهم[(١)] حتى ماتوا.

وورد هذا الحديث لغير البخاري مع بعض تغيير زهيد.

ولا مراء أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن، ولكن ذلك النفر من عكل - فضلاً عن رِدَّتهم - كانوا من أولئك الخائنين المحاربين، الذين يسعون في الأرض فسادًا، المنطبق عليهم آية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة/ ٣٣].

فلم يكن منشأ ما فعل ﷺ لهم طروء شبهة لهم أوهنت فيه عقيدة الإسلام، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الأوثان، ولكن لما رأينا من ارتدادهم إلى محاربة المسلمين وإيذائهم ومحاولة اللحاق بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم، فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد في الأرض تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروي آنفًا عن البخاري في شأنهم.

أما غير المحاربين من المرتدين، فللعلماء كلام طويل في جزائهم، فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة، عملاً بعموم حديث «من بدل دينه

(١) من معاني الحسم كي الجرح لوقف النزيف.

فاقتلوه». وخَصَّه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهي الرسول عن قتل الإناث. وأما جميع ما ورد من الأحاديث في قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة. بل لقد قال ابن الطلاّع في الإحكام إنه لم ينقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة.

وجمهور الفقهاء، وإن قالوا بقتل المرتد، اختلفوا في أمر استتابته قبل القتل، فمنهم من أوجب أن يستتاب أولاً فإن لم يتب قتل، وذهب الحسن وأهل الظاهر وكثير غيرهم إلى القتل في الحال. قال الشوكاني في نيل الأوطار، وعليه يدل تصرف البخاري، فإنه استظهر بالآيات التي لا ذكر فيها للاستتابة والتي فيها أن التوبة لا تنفع، وبعموم قوله «من بدل دينه فاقتلوه». ويرى النخعي أن المرتد يستتاب أبدًا (أي فلا يقتل).

تلك أقوالهم في هذا الباب، ولهم تفصيلات كثيرة لا حاجة إلى استيعابها، والذي نراه في ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه، ولكن لا حرج علينا فيما نرجو ما دام عمدتنا في ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام.

وخلاصة رأينا في ذلك أن القرآن الكريم لم ينصّ في آية ما على قتل المرتدين عن دين الإسلام إلى دين آخر على النحو الذي شرحناه في تفسير آيتي الارتداد السابقتي الذكر. وأما الأحاديث التي سردها البخاري واستدل بها على وجوب قتل المرتد فورًا، فليس منها شيء فيما نرى جاء نصًّا في القول بالقتل،

ولا في بيان حدود الرِّدَّة وكنهها والتعريف بها، ولقد نستوفي الكلام فيها فيما بعد بما لا غبار عليه، بيد أنه يجعل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع في هذا الباب.

أولاً - إن القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذي يريده الفقهاء يقتل.

ثانيًا - إن لبدء ظهور الإسلام من الأحكام ما ليس لغيره، ذلك أن المرتدين عن الإسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة إلى التوحيد كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية، وكانوا إذ ذاك يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين في صفوفهم أو يظهرونهم على عوراتهم، فارتداد من كانوا يرتدّون إذ ذاك عن الإسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين، ولكن كان دائمًا مشفوعًا بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم.

والمستقرئ لأحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا، فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين. وإننا لنرى اليوم أن الفارّ من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنًا ويقتل من فوره، ولو لم يرتدّ عن دينه، فما بالنا لا ندرك سرّ قتل الرسول وخلفائه للمرتدّين عن الإسلام.

الذين لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء، ودلّوهم على مواطن الوهم فيهم.

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلّهم يرجعون، فالمرتدون في صدر الإسلام كانوا في الغالب ممن دخلوا في الإسلام نفاقًا، وخرجوا منه للفتنة وكشف الأسرار.

ثالثًا – إن الردة التي جاءت في آيات البقرة وغيرها كانت ارتدادًا عن نصرة المسلمين والاشتراك معهم في محاربة أهل الكتاب، لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين، وظفرهم بهم يومًا، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الأيادي ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم.

رابعًا – إن رسول الله ﷺ علمنا كيف نتصرَّف في الحوادث، ونقف عند حدود مقتضيات الأحوال. ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات، ولكننا ابتلينا بالجمود، وضعفنا عن إدراك أسرار سيرته ودينه الفطري، ووقفنا عند حدود الألفاظ، وأخذنا نتقيد ببعض الروايات. ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الإلهي ما يرشدنا إلى أيسر السبل وأقومها لو كنّا نعقل. ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر في ذلك بعض الآيات والشواهد.

بدأ النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام، وهم على ما نعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالأقوام رويدًا

رويدًا، كما يلين لهم من جانبه، ويتساهل في مطالبهم، تأليفًا لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد. ومن ذلك ما روي عن نضر بن الليث عن رجل منهم، أنه أتى النبي ﷺ، فأسلم على أن يصلي صلاتين لا خمسًا فقبل منه، رواه الإمام أحمد. وفي لفظ آخر له على ألاَّ يصلي صلاة فقبل. وعن وهب قال: سألت جابرًا عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال: اشترطت على النبي أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون» رواه أبو داود.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: «أجدني كارهًا». قال: «أسلم وإن كنت كارهًا» رواه أحمد. قال الشوكاني - بعد أن سرد هذه الأحاديث: فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه وإن شرط شرطًا باطلاً، وأنه يصح إسلام من كان كافرًا.

فعل ذلك الرسول الكريم، لما يعلمه من أن من المنفّرات تكليف المدعوّ جميع أحكام الله في آن واحد، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط، ولو باطلة، فإن دخوله في الإسلام على أي وجه جدير أن يوجد في نفسه من الميل للإسلام والعطف على إخوانه المسلمين ما يدفعه إلى بذل ما ضنَّ به ونقض ما قدم في بيعته من الشرائط. ينبئ بذلك قوله ﷺ في حديث جابر المذكور آنفًا: «سيتصدقون ويجاهدون».

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم، فراعى مقتضيات الأحوال، وأتى بما هو الأصلح للإسلام والمسلمين.

وناهيك بما فعله في صلح الحديبية، من قبوله شروط قريش الأربعة، ورضاه أن يردَّ إلى المشركين من يجيئه منهم مسلمًا، على ألا يردُّوا هم من فرَّ إليهم من المسلمين، فعل ذلك رسول الله ﷺ لما فيه من الأسرار والحكم البالغة، مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة إلا بعد أمد غير قصير.

لقد كان الإسلام يوم بدأ غريبًا ضعيفًا، فكان لابد من اتخاذ كل ما يمكن من ضروب التحوطات والشدة، حتى يشتد ويقوى، ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والأذى. ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم، أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام، في ذلك من الأحكام ما يضمن سلامة الإسلام، فلما أيَّد الله دينه ورفع منار كلمته، كان لابد أن تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار إليه المسلمون من القوة والمنعة، وما أصبح فيه الإسلام من السلامة والأمان، من ذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن عمر أن رجلاً جاءه، فقال: يا أبا عبد الله ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات/ ٩] (الآية) فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا بن أخي: أُعَيَّرُ بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إليَّ من أن أُعَيَّرَ بآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء/ ٩٣]. قال فإن الله يقول ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال/ ٣٩] قال عبد الله بن عمر: قد فعلنا على عهد

رسول الله ﷺ، إذ كان الإسلام ضعيفًا، وكان الرجل يفتن في دينه إمَّا أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة.

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة، ويفرق في الأحكام بين عهد الإسلام بالقلة والضعف، وما صار إليه لعهده من العِزَّة والمنعة، ولعل ما ذكرناه هنا هو سرّ قول الإمام النخعي بأن المرتد يستتاب أبدًا ولا يقتل. ذلك أن الإسلام على عهده ما كان لتضرّه رِدَّة المرتدّين، بعد إذ أصبح في مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين، ومن يرتدون إليهم من منافقي المسلمين.

ولو كان حديث «من بدل دينه فاقتلوه»، الذي رواه البخاري وغيره على نصه غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة، ما وسع النخعي ولا غيره مخالفته.

وإذ مهّدنا أمامك السبيل، بتلك المقدمات التي أسلفنا، فاعلم أن الذي نراه، أن المرتد إما أن يرتد عن دينه، فلا ينضم إلى المدافعين عنه من المسلمين، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن، كما كان يفعل أولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة، فهذا لا جرم يقتل. وأصرح ما نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء/ ٩١].

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون، كما سبق في حديث النفر من عكل. ولا ريب أن المرتد من أحد هذين القسمين منافق خائن أو محارب، فلابد أن يقتل من فوره.

وكذلك تفعل الممالك جميعها في الوقت الحاضر، مع أمثال هؤلاء من أفراد شعوبهم ورعاياهم.

الزنادقـة

ويلحق بهذا النوع الزنادقة، الذين كانوا على عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقد روي من طريق عبد الله بن شريك العامري عن أبيه، قوله لعلي: إن هنا قومًا على باب المسجد يدّعون أنك ربّهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربّنا وخالقنا ورازقنا! . فقال: ويلكم إنما أنا عبد مثلكم، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا. فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام. فقال: أدخلهم. فقالوا كذلك. فلما كان الثالث، قال: فإن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك فقال: يا قنبر أعنّي بفعلة معهم. فخَدَّ لهم أخدودًا بين باب المسجد والقبر، وقال احفروا وابعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا. فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها.

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية، نسبة إلى كبيرهم عبد الله بن سبأ الذي أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة. وإنما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم؛ لأنهم ظهروا والإسلام غَضٌّ العهد بالوجود كثير الأعداء والمحاربين.

فلو أن عليًّ بن أبي طالب، ابن عم الرسول وختنه، وأصل العترة[1] النبوية، أبقى عليهم، أو خفف العقوبة عنهم، لانمحت آيات التوحيد من ظهر الأرض، ولما وجد في العالم أحد من المسلمين، ولكان للناس من علي بن أبي طالب، ما كان لليهود من عزير.

أما أمثال هذه الفرق اليوم، وقد اشتد ساعد الإسلام، وقويت شوكته وتبينت للناس حقائقه، وأصوله، فلا خوف عليه منهم، ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم، اللهم إلا إذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو السجن أو التنكيل، فهناك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم أينما ثقفوهم.

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الإسلام، ولم يخرجوا عليه، ولم ينضموا إلى صفوف أعدائه، ولم يخونوه في شيء، ولكن أضلتهم بعض الشبهات، التي لم يستطيعوا لها ردًّا، والشكوك التي لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان، فإن سبيلهم فيما نرى ألا يعتبروا كالمرتدين، ما داموا لم يهتدوا إلى الصواب، ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبيّن لهم فيها الرشد من الغيّ.

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلّف الناس ما ليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه. يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء/ ١٦٥]، فإن الرسل

(١) العترة: نسل الرجل وعشيرته.

قد بعثهم الله لخليفته وكلّفهم البلاغ المبين، إذن فلا تكليف إلا حيث البلاغ المبين. فإذا ابتلي العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسلمين، فكيف يؤاخذون إذا ضلَّت أحلامهم بعد إذ فقدوا أركان الإسلام، وأساطين[١] علمائه الذين يقتدرون أن يدرءوا الشبهات، ويهدوا الهائمين، في أودية الضلالات.

---

(١) أساطين العلم: العلماء العظماء.

جمود المتصدين للفتوى

أقول ذلك بعد إذ رأيت من الشبان المسلمين، من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء، ويغشون مجالس أئمة الإسلام، لا لغرض سوى استفتائهم في بعض أصول الإسلام، والفرار إلى معاقل علمهم وهدايتهم، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام، حتى إذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة في ذلك، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم، ما كان يصدّ أولئك الحائرين عن مجالسهم، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة، ودفعتهم معاملة الشيوخ إلى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم.

ونحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية، وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات، فكيف لنا - مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والإرشاد - أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم، ممن لم يستوعبوا أصول الدين، ولم يهتدوا إلى صواب اليقين، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قِبَلَ لهم به من غارات الشكوك والشبهات.

إنه قد تعرض لنفس المسلم شبهة لا يستطيع دفعها، على حين لم يقصّر في التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها، فهل هناك دين غير الإسلام، يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة، ويقول ما قال القرآن: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة/ ٢٨٦] . ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق/ ٧]. ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة/ ٢٥٦] ؟ أفلم يعتبر القرآن التفكّر في ملكوت الله من كبريات العبادات، يزدلف بها إلى الله؟ أو لم يقل رسوله ﷺ: «تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة» إلى نحو ذلك مما علم المسلمين، إن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الإنسان على معرفة حكم الله في خلائقه، وإدراك البدائع من صنعته، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس وأشباهها؟ أليس ذلك يخول المسلم، متى أحسن النية، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم، وإعماله للفكر، عبادة الله تعالى وتعرفًا إليه، بما يفهم من بدائع آثاره وما يدرك من دقائق صنعته؟ إذن فالإنسان في نظر القرآن كلما ازداد علمًا وبحثًا، ازداد عند الله تعالى اقترابًا وحظًّا.

مقام القرآن الحكيم إزاء العلوم والمعارف الكونية

كثيرًا ما نسمع من خطبائنا العصريين، ونقرأ في صحفنا ومجلاّتنا الحديثة، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين في حرب قائمة دائمة، لا يستقر لها صلح، ولا تتخلّلها مهادنة.

يلهج بذلك أشباه المحصلين، وتلاميذ آثار الغربيين، ممن يطيرون لكل هَيْعَة[1]، ويفتنون بكل بدعة، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير.

ليت شعري، أفما كان الأجدر بمن منحوا فطرة الإنسان، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا إلى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات؟ بلى، ولكنهم أبوا إلا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والأقوال الغريبة دون سبر لأغوارها ولا تفكر في مبلغها من الصدق، وما يتبع أكثرهم في ذلك إلا الظن وما تهوى الأنفس. وليت هؤلاء يكتفون بخزي الجمود أمام الحديث فيقفون إزاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكًا ولا ينتحلون فهمًا، بل

---

(١) الهيعة: الصيحة المفزعة من العدو.

نراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملئون الفضاء بالدعاوى الجوفاء، ويدَّعون لأنفسهم علوم الأرض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضُّون أبصارهم حتى عن آياتها البينات.

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين[١] تاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التي تعاقبت فيهم، جهلوا ما انبعث عنه أحكامهم وأقوالهم في مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية، جهلوا جميع ذلك، كما جهلوا، اللباب من أمر دينهم وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا الطائفتين فسوّوا بينهما حبًّا أو كرهًا، وانتظموهما في سلك واحد من المعاملة الحرة البريئة من شوائب التحيز، ولكنا نجدهم إذا عرض لهم شيء ليس بغربي لوّوا رءوسهم وثنوا أعطافهم، وقالوا في عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء: «لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوربا، ولا نولي ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها».

وإنه لحسب أحدهم إذا ما شئت إقناعه أن تقول له «بذلك يقول المستر فلان الإنجليزي، أو المسيو فلان الفرنسي، أو الهر فلان الألماني». فليكفينك هذا وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين، وليسلسن لك ذلك مجردًا ما شئت من أعنّة كل عصي شموس[٢].

---

(١) المتفيهقون: المتكبرون المتفاصحون.

(٢)شَموس: صعب المراس.

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدوا لزعامة الحركة الفكرية والنهضة العلمية، كانوا طلقاء العقول، أحرار التفكير، لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية إلا ما أمنوا غشّه، واستوثقوا من نقاء معدنه، وكمال صلاحه بعد إذ عرضوه على محكّ الاختيار، وناقشوا أصحابه دقيق الحساب، وميزوا ما فيه من النافع والضارّ، ذلك كيلا يقبلوا قولاً ولا يرفضوا رأيًا إلا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. ولكنها فيما نرى نوبات عصبية، وغضبات جاهلية، ملكت أعنّة قلوبهم، ولعبت بموازين أفهامهم، فأطلقت ألسنتهم بالأراجيف، وسوّلت لهم كل رأي سخيف.

زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف في سبيل الرقي العلمي، وأنه إذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره.

كذلكم يقولون أيضًا فيما يرجفون إنه لا بد من فصل الدولة عن الدين وإنَّ حرية الفكر الإنساني تستلزم انقلابه ماديًّا طليقًا لا يتقيد بشيء من قيود الأديان.

هذه هي الدعائم التي يقيم عليها أولئك الحائرون والإباحيون في هذه البلاد وأشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم، ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم في تلك المقالات، وخيبة ما بيتوا من الكيد السيِّئ لأهل القرآن، كما أوضحنا أن هؤلاء المستخِفِّين والطاعنين، لو كان لهم علم بأصول القرآن

ووقوف على ما مكّن للعقل والوجدان، وأرسى من قواعد الحرية الصادقة في سائر شعب الحياة، لما زلّت لهم قدم في مزالق التقليد، ولفقهوا جلال ذلك الكتاب الذي يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء/ ٣٦] والذي يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل / ٤٣].

معلوم أن الحكمة في ظهور الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إنما هي دعوة أممهم الضالة إلى إصلاح ما فسد من أمرها، ومعالجة ما مرض من أخلاقها، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها.

ولقد جاء أكثر الأنبياء والمرسلين برسالات خاصة، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة في أقوامهم، جلها فيما يحدثنا القصص اجتماعي وخلقي ولم يكن في موسوعات رسالات أكثرهم البحث في العلوم الكونية والظواهر الطبيعية، بل ولا النظم والقوانين المدنية.

وإذا كانت رسالات أكثر الأنبياء انقطعت بانقطاعهم، ودرست معالمها بفنائهم، حتى لم يبق سبيل إلى ضبط ما جاء منها، ضبط إحصاء واستيعاب، فإن لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنها مرآة غيرها من سائر الرسالات التي سبقتها.

ظهر المسيح عليه السلام في جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والدساتير السياسية، بيد أنه ظهر في أمة اليهود، بعد أن انصرفوا إلى

عبادة أحبارهم، وتقطَّعت فيه أواصر الأرحام، وتفسَّخت الأخلاق عن النفوس، وتفشت المنكرات، وأعوز الناس الرحمة والحنان، حتى لم يكد يبقى لهم في الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية.

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا، وتزهيدهم في باطل متاعها، وعندما ضرب لهم الأمثال والقصص؛ ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التي كانت مالكة لأعنّة قلوبهم، ومضللة لعقولهم ونفوسهم.

ولقد كان من تعاليم أولئك الأنبياء والمرسلين، ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجرًا لهم عن رجس الشهوات التي عكفوا على مرضاتها، وأسلموا مقاليدهم لها، حتى أنستهم أنفسهم، وهبطت بهم إلى مراتب سائر الحيوان الأعجم. فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحضّ على الرهبانية، والترغيب في الخصاء، والحث على إفناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرّج عن أكثر مطالب الحياة. وما كانت أمثال هذه التعاليم في سبيل المصلحة العامة العمرانية، ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشهوات، وإلا فهي منقصة للنسل، مذهبة للعمران، سبيل إلى الخراب والزوال. ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح، وأكثر من تقدمه من الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة السلام، كانت في جوهرها مقصورة على قسم الجهاد النفسي، والتربية الخلقية، كما أنها جاءت

لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت في شدتها وفداحتها مثل الذي بلغه هؤلاء من الفساد والفجور.

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس في الأخلاق بدساتير تبين الخير من الشر، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون، بل لم يكادوا يأتون بشيء كبير في باب العقائد الإلهية. أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالأمر، وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الإنساني، وكيف وضعوا (طقوس) العبادات، وحرّموا على الناس حق تفسير كتب العهدين، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة، ولو كان من غير المعقولات، إلى أشباه ذلك مما ضجّت الأمم النصرانية من هوله، وثارت للتخلُّص منه ثوراتها الدموية التاريخية، سياسية كانت أو دينية.

لم نر فيما سجّل لنا تاريخ الأديان السماوية، دينًا تجاوز تلك الحدود التي وصفنا، فتناول شيئًا من الشرائع المدنية أو علمًا بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وذلك لم يكن فيما يخيل إلينا خروجًا عن الحدود العادية للرسالات السماوية، إلا أنه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثًا، ولم يرسله الحكيم العليم اعتباطًا ولا فضولاً، ولكن كان فيمن بعث إليهم هذان الرسولان الكريمان من الشئون والأطوار ما اقتضى أن يمدّا من قِبَل القويّ العزيز بما لابدَّ منه في مصارعة أفكارهم الضالة، وهداية عقولهم الهائمة، وإصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة.

كان بنو إسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية، فكانوا يعبدون الأوثان والصوَر ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفًا بين الناس في هذه الديار، فلما خرجوا إلى سيناء، ولم يكفهم تأديبًا ولا عقابًا ما لاقوه في التيه(١) من صنوف العذاب والشدة، جاءهم موسى، بعد مناجاة الطور، بالألواح يدعوهم فيها إلى توحيد الله، والنهي عن عبادة غيره، ويحرِّم عليهم أن يشركوا به شيئًا. ولقد كان لابدَّ أن يأتيهم بشيء من العلوم الكونية لما كان لهم من الإلمام بها والوقوف على نتف(٢) من غثها(٣) وسمينها وفاسدها وصحيحها، فإذا جاءهم موسى مع هذا بشيء من الشرائع والأحكام التعاملية؛ فإنما جاءهم بسفر التكوين فإنما ذلك لتبديد ما تزاحم في صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التي أبعدتهم عن العلوم بقيّوم الأرض والسماوات، وسوّلت لهم عبادة الصور والأوثان، وما في الفضاء من الثوابت والسيارات، وإذا جاءهم بما كان ضروريًّا لهم في تدبير وسياسة أرض كنعان، التي كتب الله لهم. ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين، واندمج في نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان، لكن في توراته اليوم من الأحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشيء الكثير.

---

(١) التيه: الصلف والكبر.

(٢) نتف: بعض منه.

(٣) غثها: رديئها وفاسدها.

وهل كان في استطاعة موسى عليه السلام، لولا ما أمدّه الله به من ذلك العلم والشرع، أن يعيد أقوامه الهائمين في أودية الجهالة إلى حظيرة القدس الربانية، أو يشرق على نفوسهم الضالّة بالأنوار الإلهية؟ كذلكم جاءت رسالة موسى عليه السلام للبلاد. أما محمد عبد الله ورسوله إلى الناس كافّة، فإن لرسالته التي دامت عشرين عامًا ونيفًا، ولدعوته التي ستبقى ما بقي الإنسان في الأرض، من الشئون والخصائص والمقاصد ما لا يشاكلها فيه دين ولا تشبهها شريعة.

وسيكون بحثنا في هذا المقام خاصة بموقف القرآن إزاء المسائل الكونية والعلوم العقلية. ولا نعني بهذا أنه جاءنا في هذه المقاصد بما تجيء به الكتب الفنية، تبويبًا وتفصيلاً وتدليلاً وتعليلاً، فإن هذا كما هو معلوم ما كان يومًا ما من المقاصد الأولى للكتب الإلهية، ولا من أغراض الرسالات السماوية، وإنما يعنينا فيما يلي مدى ما بين القرآن الكريم والعلوم الكونية من الصلات، وهل وقف كتاب الإسلام يومًا ما في سبيل رقي العلم وحرية الفكر، كما يتشدق الخرَّاصون![1] أم أنه على العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة، ومنير البصائر المظلمة، ومثبت الأفكار القلقة، ومنعش الهمم الخامدة، ومحرك الأفهام الجامدة؟!. كذلك يعنينا أن نصف مقامه في هذه الأغراض، وأن نأتي على بعض آياته التي لم يفسرها إلا الزمان، ولم يكشف دفائنها سوى ما أحدثته الحركة

(١) الخراصون: الكذابون.

العقلية الجريئة التي انهزمت أمامها ظلمات التقليد، صحيحة، ونظريات ثابتة، وما كان أكثرها سوى ظنِّيّات اخترعها الخيال والتخمين، أو أساطير خرافيّة توارثها الأخلاف عن آبائهم الأولين.

جاء القرآن بما جاءت به سائر الرسالات السماوية من التعريف بالخالق، وتقرير العقائد، وأمّهات الشرائع، وأساس الأدب والأخلاق، جاء بجميع ذلك، قصدًا إلى هداية العالم الإنساني، وإرشاده إلى ما يضمن له السعادة والنعيم في حياته. إلا أن القرآن حينما جاء كان الناس في جميع الأرض، كما هو معلوم للمؤرخين، نهبًا مقسمًا بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين.

كذلك كان شأن الناس في تلك القرون الوسطى يوم هبط وحي الله في مكة بالقرآن. فإذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التي نزلت بها الرسالات السماوية الأخرى، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رقّ التقليد وإخراج الوجدان الإنساني من نطاق الحجر الذي ضربه من حوله رجال الدين، جاء لإنهاض العقل الآدمي واستحثاثه في سبيل التفكير والنظر. جاء يحفّز النفس البشرية ويسوقها، لتقرأ صحف الطبيعة وتتدبر آيات صنعتها البديعة. بغَّض القرآن إلى الإنسان، كما أسلفنا، رذيلة التقليد، ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الأولون، أو شاءه الأحبار والربانيون، حتى لقد سمَّى القرآن هؤلاء أربابًا لمقلديهم في آية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة/ ٣١].

ولكم عيَّر القرآن الغافلين من معطلي العيون عن الإِبصار والآذان عن حسن الاستماع والأفئدة عن الفهم والتدبر بأنهم كالأنعام بل هم أضلّ.

عهد البحث والنظر

جاء القرآن والناس في الأرض بين أمّي لا يعلم الكتاب إلا ظنونًا وأمانيّ، ومقلِّد ملكت فؤاده تعاليم الأحبار والرهبانيين وأساطير الآباء الأولين، وإباحيّون حيث لا قيود، استرقتهم الشهوات والأهواء، فهو عدوّ لكل وازع، وخصم لكل مصلح، ودهريّ يقول: إن هي إلا أرحام تدلع[1] وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر في أن تستنير البصائر، وتتحرر العقول، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن يعلموا أنه لا تغني نفس عن نفس شيئًا وأن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون.

جاء القرآن والناس في كل أرض كما وصفت لكم، فكان لابد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس، وبين فرائسهم المسكينة الصرعى، تلك التي تزعجهم يقظتها، ويهولهم انتعاشها، ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها.

---

(١) دلع الشيء: أخرجه، والمقصود هنا: أرحام تلد.

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين في الأرض، فإن البعثة المحمدية لم تختم إلاَّ والناس كافة طلقاء عقلاً وضميرًا، أحرار قولاً وفعلاً.

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بُدِئَ عهد البحث والنظر وولَّت دولة الجمود، فوطئت بذلك الأكناف[١] للفلسفة الإغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت. فهي بأهل القرآن عاشت، وفي أرض القرآن نمت، وفي ظل القرآن عزّت وسادت.

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس وديمقريط وأنكساجوراس ما لقيته هي نفسها في بلاد الإغريق التي هي مهد الفلسفة ومنبتها؟ .. أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو وأرسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الأساطين، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة؟.. وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو، وأمعنوا فيهم تنكيلاً وتحريقًا لغير علّة سوى أنهم بعد إذ اعتمدوا على الحسّ والمعاينة وتسلّحوا بالآلات المكبرة والمقربة، استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة إلى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيّات؟

(١) فوطئت بذلك الأكناف: تهيأت الأحوال.

ظهر القرآن أول ما ظهر في أمّة أمِّيَّة، لم تألف المباحث العقلية، ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية، فلما جاءهم بما ذكر لهم من إشاراتها أو صريح عباراتها – ولم تتسع لها مداركهم بعد – ذهبوا في أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يَقْفُوا ما ليس لهم به علم، فتقبلوها مؤمنين. وتركوا أمر تأويلها وفهما إلى أهل العلم آخذين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس/ ٣٦]، وقوله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء/ ٨٥] ، وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/ ٧٦] إلى أشباه ذلك من الآيات التي علمهم بها الله أن العقل ليس بعربي ولا عجمي، وأن العلم ليس بشرقي ولا غربي.

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين، بعد إذ أعدها الإسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية، فتفجرت لأهل القرآن عيونها النضّاخة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين، سبق في كل مضمار، ونقابة خالصة لهم في سائر شعب الحياة، وقيادة عامة في ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال.

أجل! ولكن بقايا الصدر الأول، المسمى بالسلف، قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الإغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين، حتى رأوا الكثير فيها خطرًا على دين الإسلام، وحربًا على تعاليم القرآن، كما خفّت إذ ذاك أحلام طارت بها الأهواء

والزعازع[١] الفكرية إلى مسالك متشعبة من الشك والابتداع والإلحاد، حتى إذا ركدت تلك الأعاصير، وثابت العقول إلى رشدها، وامتحن الناس موقف القرآن إزاءها، سكنت النفوس القلقة، واطمأنت الأفئدة المضطربة، إذ وجدوا في آياته المحكمة ما كان جُنَّة لهذا الدين، ومنارًا للمحصلين، وحجة قائمة على الجامدين، ورجومًا لشياطين المرجفين[٢] من الجاحدين.

ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوّامون على دين الإسلام الحامون لحماه يهتمون بأمر تلك العلوم، ويترجمون إلى العربية ما كان موضوعًا منها باللغات الأخرى، كما أخذوا يتدارسونها، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها، ولو كانوا من غير المؤمنين. ففي ظلّ القرآن وصادق دعوته الحارة إلى الدرس والبحث والتفكير العميق، تعانق العلم ودين الإسلام عدّة قرون، لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام. وما زال ذلك الأمر قائمًا في البلاد الإسلامية حتى فسدت الملكة العربية، وعجز الناس عن تفهُّم كتاب الله وإدراك تعاليمه ومقاصده بمستقبل مداركهم وحرّ عقولهم. هناك حيل بين العقول والعلوم، وبخاصة في بغداد، فنصّب طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير، حاجرين على المدارك أن تتحرك في ميادين المعقولات، وعلى الأبصار أن تتقلب في صحائف الأرض والسماوات. ومازال شيوخ الدين، باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر،

(١) الزعازع: الشدائد.

(٢) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

والخلفاء والأمراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التي تفشت في أممهم، ويستغلون العامة من شعبهم، استغلال بُهْم الأنعام، حتى عاد الإسلام غريبًا كما بدأ، وانقلب الناس إلى جاهليتهم الأولى. ولقد حذا المسلمون في هذه النوبة حذو المسيحيين في البلاد الغربية، فأقاموا في بغداد ما أقامه الأوربيون في ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم في الرأي والاجتهاد، ولو كان مرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس في العقائد والأحكام بأشياء وضعتها أيديهم، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون.

احتكرت هذه الطائفة – ولاسيما في بغداد – علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة، كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية، وتبعوا في استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، فحرّموا وحلّلوا، وفسّقُوا وكفَّروا، وحذَّروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون، فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطانًا على النفوس والسرائر والعقول، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلِّبين والأمراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية. فلأغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التي قامت باسم الدين، وما هي من الدين في شيء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين،

قضت بأن يعطّل في بغداد القرآن، ويطفأ بها نوره الساطع الذي جعلها في عدة قرون كعبة المحصلين، ومثابة المستنيرين، ومهاد توأمي العلم والدين.

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة، كتب الفوز والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل، فهام الناس في أودية الضلال، ورجعت العقول إلى جاهليتها الأولى، انقطاعًا عن التحصيل، وتقيُّدًا بالتقليد، وأخذًا بالخرافات والأضاليل.

بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن إزاء العلوم العقلية والكونية، يتبين أن حياة تلك العلوم وذيوعها في سائر البلاد التي شملها ظلّ القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معاني هذا الكتاب، ومدى إدراكهم لأسراره وأخذهم بتعاليمه. ولعلَّ القارئ لاحظ كيف ابتدأ تقلّص ظلالها عن الربوع الإسلامية، ومتى انطمست معالمها في الحواضر التي بها كانت زاهية زاهرة، تضرب إليها آباط الإبل من كل صوب، ويقصدها طلاّب المدينة والعرفان من أطراف الأرض.

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها، يعدي بعضها بعضًا، ولاسيما ما كان منها خبيثًا، فالشعوب الإسلامية في الشرق، عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين ما فعل في الغرب رجال الكنيسة

بالمسيحيين، وكم من مرة اتحدت أو تقاربت فيها الأوقات التي كانت تقام فيها محاكم التفتيش في أواسط أوربا، والاضطهادات المذهبية في بغداد وما حولها.

ومالي لا أتحدث بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢م بالبروتستانت من المذابح التي أحصيت ضحاياها، فبلغت سبعين ألفًا عدًّا، مقارنًا ذلك بالجناية الكبرى، التي جناها السلطان سليم عام ١٥١٣م في بلاد العجم، يوم أحصى الشيعة في تلك البقاع بطريقة سِرِّيَّة لم يشعر بها أحد، حتى إذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم، أمر السلطان فَأُبِيدوا فجأة عن آخرهم، وكانوا نحو أربعين ألفًا، ولم يكن لذلك سبب، سوى القصد إلى إثارة نفس عميد الشيعة الشاه إسماعيل ملك العجم، واستفزازه للمحاربة، طمعًا في ملكه، وقصدًا إلى إبادة دولته. فالسبب في هذا المثل كما ترون سياسي بحت، ظهر للناس في شكل ديني. ولهذا المبحث من الأحداث والشواهد ما يخرجنا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الإيجاز والاجتزاء بالعجالات والأمثال.

كذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة، فهو الذي قام بالدعوة إليها، والترغيب في البحث عن دقائقها وأسرارها، وهو الذي ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال: الكندي، ومحمد بن موسى الخوارزمي، ويحيى بن أبي منصور، والعباس بن سعيد الجوهري، وأحمد بن كثير الفرغاني، وجعفر

ابن محمد البلخي، ونصير الدين الطوسي، وثابت بن قرة، وعمر بن الخيام، وابن سينا، وأبي نصر الفارابي، وابن رشد، والحسن بن الهيثم، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والأثقال والموسيقى وغيرها.

القرآن والعلوم الحديثة

لم يبق علينا - إذن - إلا البحث في موقف القرآن الكريم، إزاء ما يسمى الآن بالعلوم (Sciences)، وهل في طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدًّا لا يتعانقان معه، وقتالاً لا يرجوان سلامًا بعده؟ أجل! بيد أنه لابدّ لنا - قبل الدخول في تفاصيل ذلك البحث - من أن نعرِّف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للصرف الحاضر في الغرب وكُثْرًا في الشرق الذي يسير على أثر الغرب في كل شيء، فإن لكل زمان اصطلاحه وعرفه، ولكل عرف حدوده وحكمه. ولنعتمد فيما نقدّم لكم من أهل أوربا، فإنهم محدثو هذه الفلسفة، ومبتدعو اصطلاحاتها، وواضعو تعاريفها، فنقول :

١- يقول هكسلي: «العلم فيما أعتقد، ليس سوى الذوق الإنساني بعد تربيته وتنظيمه، ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة، مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (Telescope)، وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون إلا على تلك القواعد الثابتة، قواعد الشهود بهذه المناظير؟»

٢- ويقول الأستاذ بلفور في خطبة له :

يتوقف «العلم» في تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء، فهو خارج أو يكاد يكون خارجًا عن حدوده الطبيعية ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس، فهي إذن لا تكون من موضوعات «العلم».

٣- ويقول الأستاذ وندل : «العلم - سواء استعان بالآلات أم لم يستعن- عماده ما يلاحظه الإنسان ويحسّه من الكائنات، وما تهديه إليه في المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعية التجارب والآلات، التي تمكّنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة، مع بلوغها من الدقة والضآلة، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين.

وإذا أردنا أن نبحث في باطن النظام الآلي للطبيعة أو في خارجه، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام، وكيف كان؟ وما مصيره؟ أو حاولنا أن ندرك كنه هذا الكون، ومبلغ شعورنا به، ولم وجد ولم خلقنا نحن هنا؟ إذا أردنا ذلك، فإن العلم الحديث ليس لديه جواب عن شيء منه، إذ لا دخل لشيء من ذلك في الحدود المصطلح عليها للعلم، وإذا كان لا علاقة للعلم الحديث بشيء من تلك المباحث، ولا جواب لديه من أمثال ما قدمنا من الأمثلة، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باسم العلم - بالطبع - أن يدّعي أن العلم أقام البرهان على عدم وجود

الله، أو أنه ليس هناك أرواح، أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار ... إلخ».

مما اقتبسناه هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين في تعريف كلمة «العلم» وتحديد مداها وموسوعاتها يتبين أن من الجهل الفاضح واللغط الطائش أن يتعرض باسم هذه الكلمة - ورقعتها من الضيق على ما رأيتم - إلى المباحث العقلية البحتة، وبخاصة ما وراء الطبيعة منها، فإن «العلم» بالمعنى الذي وصفه وعرَّفه واضعوه كما أسلفنا لا يعرض لشيء من هذه المباحث بنفي أو إثبات لا يتناولها بامتحان ولا مناقشة، وكيف وهو لا يصل المحسوسات ولا يعرف موضوعًا غير الماديات، ولا منطقًا سوى المعامل والآلات.

ولقد وقفت الكنيسة في بدء بناء «العلم» على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الإلهيات في جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦م، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذي خلاصته :

١- إن النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان. وأنها كذلك هرطقة، لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس.

٢- إن النظرية القائلة بأن الأرض ليست مركز الدنيا، وأنها غير قارّة، ولكنها متحركة ومتنقلة، هذه النظرية مساوية فلسفيًّا لسابقتها في

هذيانها وخطئها، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة.

ولم تهبط ثورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة إلا في نحو الثلث الأول من القرن السابع عشر بعد إذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم في فهم عبارة «العلم» ويفقهون أن لا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلاً، فهنا نرى القِسِّيسين الكاثوليكيين: بليالدو وغسيندي، يتوليان علنًا في الأعوام (١٦٣٩ – ١٦٤٥م) الدفاع عن نظرية كوبرنيك، فلا يصابان بأذى، ولا يتهمان بهرطقة.

بعد الذي قدمنا في هذا المقام من البيان، نودّ أن نقرِّر بكل توكيد أن موقف القرآن الكريم تجاه «العلم» في العصر الحديث، هو عين موقفه إزاء «العلم» في القرون الوسطى إلى عهد التجديد الغربي، فهو كما كان قبلاً لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير، والأبصار إلى الاعتبار، والآذان إلى الاستماع، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التحسُّس من أسرار الكائنات، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها، والتنقيب عن دقائقها، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأن الله يخلق ما لا يعلمون، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة. كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد في عقائدهم، واتّباع الظن في أحكامهم، والميل مع الأهواء في تصرفاتهم.

على أنهم مع هذا كله يجدون في كثير من آي القرآن ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث، ويعرّفهم ما يتطلبون الوصول إليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه. وإذن كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة في القرآن الكريم، وبيان القول فيه كما ينبغي مما لا يتسع له هذا المقام، فإننا نكتفي هنا بالإتيان على طوائف منها إجمالاً لا تفصيل له، وإيجازًا نجتزئ بالإشارة فيه. ففي هذه الحدود التي رسمنا لأنفسنا نقتبس من الآيات الكريمة ما له علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية. وقبل إنجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله فنقول :

١- ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث في الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف في الكتب الخاصة الموضوعة فيها.

٢- لما جاء القرآن الكريم كان في جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطئ بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بني إسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر، فكان من الحكمة الإلهية أن يتنزّل على محمد في سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزَّل على موسى في سفر التكوين. والحكمة البالغة في ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق، وتقرير الحق من العقائد، وقبول ما يلي ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سبيلها إلى

قلوب عرفت للأجرام العلويَّة وأصلها وألوهيتها وتزاوجها وما كان من أنسالها في تكوين هذه الكائنات ونظامها ما قررته العقلية القديمة في بلاد مصر والإغريق وما بثته في جزيرة العرب وما حولها من أساطير الأشوريين البابليين والكلدانيين. إذن كان لزامًا أن يسترعي القرآن الناس إلى وجه الخطأ في عقائدهم، وأن يشككهم في الباطل الذي اتبعوه، لأنهم وجدوا عليه آباءهم، وأن يطلقهم بذلك من الحجْر الذي أشقاهم وألحقهم بالأنعام من الحيوان.

٣- كانت إذن مهمة القرآن الحكيم، التي أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جلّ شأنه، أن يبين للعقول بضرب الأمثال لم تفكر وفيم تفكر؟ وكيف تفكر؟ فهو في جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كي يملأها الرسّام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال.

٤- لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال في بيان بعض غوامض الحقائق الكونية، بل جاء في ذلك بحقائق أمر الأميِّين وغير المحصِّلين بالتسليم بها والتفويض فيها، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصواب فيها. ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما، وألا يقطعا

في شيء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور، ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون أو يَكِلُون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

٥- إن المسيحيين حينما ثاروا في وجه العلم ونظام الحكم ثورتهم التجديدية في أوربا لم يكونوا ليشبهوا في شيء من مواقفهم تلك أحدًا من الشعوب الإسلامية، فإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان، وقرَّروا للكنيسة فلسفة حَرَّموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها. ثم قرَّروا تكفير من يقول بغيرها، ولو اعتمد في رأيه على الحس والمعاينة. حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونيني اللذان رفضا أن ينظرا إلى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة).

وقد روي عن غاليليو أن من تلاميذ المذهب الأرسطي من كانوا ينكرون وجود أجسام علويَّة مرئيَّة بالفعل، وأنهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك، إذا نفض منها حجر انهار سائر بنيانها على إثره، فكان ذلك سبب مغالاتهم في التمسك بها والحرص عليها مجتمعة.

والآن، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية، ننجز ما سبق لنا الوعد به، فنقول :

(أ) تكون جميع أصول الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث من: إلكترون، وبروتون.

وفي القرآن: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات/ ٤٩]، فما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء في ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرها مما لا نعلم. وجاء في بيان إجمال ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس/ ٣٦]، وفي عبارة ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، من المعاني ما يسكن إليه عقل الإنسان في كل زمان، وتطابقه كما رأينا أحدث نظرية في أصول الأكوان.

(ب) تتولد الحياة من الماء.

وفي القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء/ ٣٠]، فهذه الآية تطابق العلم الحديث في هذا الموضوع. ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين إزاء هذه الآية حائرة قلقة، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه. ولذلك وقع لهم في تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحًا هنا.

(ج) تعدد الأرضين.

لم يذكر القدماء شيئًا في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضي كثيرة غير أرضنا، ومازال الرأي

السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها، حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢م بمناظيره المكبرة والمقربة، وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران. ولم يعتمدوا في هذا التجويز إلا على الحدس والظن، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد.

أما القرآن فقد صرَّح بتعدد الأرضين في آية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق/ ١٢]، ففي تفسير أبي السعود (من مفسري القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض. وفي تفسير النيسابوري أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها إلى الأخرة مسيرة خمسمائة عام وفي كل أرض منها خلق .. إلى أن قال: وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها، إلخ. ومن أصرح الآيات في أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى/ ٢٩] إذ المراد بالسماوات هنا السيارات على ما يأتي لنا من التأويل. ومن الآيات البيّنة في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون/ ٧١].

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان في الأجرام السماوية، ولكن نفى الزمخشري والبيضاوي وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها

صنوفًا من الحيوان يمشون فيها مشي الإنسان على الأرض، فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم.

(د) السيارات هي التي تدور في مدارات وهميّة، وليست كما يقول قدماء الفلاسفة ثابتة في أفلاك دائرة بها، وهذه الأفلاك لا تقبل الخرق والالتئام، إلى آخر ما جاء للقدماء في وصفها والتعريف بها، أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة في آية ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٣٣]، وآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون/ ١٧].

(هـ) الشمس جسم مشتعل تبثُّ النور والنار من ذاتها وترسلهما إلى سياراتها المرتبطة بها وإن اقتضى ذلك إضاعة أضعاف أضعاف ما يحتاج إليه كل سيّار من أشعتها. والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان، وقابلة للفساد والفناء. ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها في الثانية على أقلّ تقدير أربعة ملايين طِنّ. ولا ينبغي أن يزعج هذا عشاق الحياة الدنيا، فإن الشمس على هذا الحساب تحتاج في فقدها جزءًا من مائة جزء من حجمها إلى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة. على أنها بعد أن تصل إلى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة في أكثر أجزاء هذه الأرض صالحة طيبة.

وفي القرآن ما معناه في ذلك: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح/ ١٦]، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ/ ١٣]، قال مقاتل في تفسير الوهج: مجمع النور والحر، وفي القاموس: وهجت النار اتقدت.

ومن الآيات ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير/ ١]، أي ذهب حرّها ونورها، وآية ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ. وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار/ ١ – ٢]، ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات/ ٨ – ١٠] إلى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم. وهنا يجمل أن أذكر بالخير أحد مجتهدي الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستاني، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابًا فيما بين الهيئة الحديثة والإسلام من الاتصال، فأتى على بعض مباحث قيِّمَة مفيدة يحسن أن اقتبس منها ما جاء له في بيان معنى السماء في القرآن إذ يقول:

١- إذا وردت السماء والأرض معًا ومفردتين في آية، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السماوات الكرات والأجرام مطلقًا.

٢- وإذا ورد لفظ الأرض مفردًا ومعه السماء مجموعة، كان الظاهر من أرضنا ومن السماوات الكرات والأجرام مطلقًا.

٣- وإذا ورد لفظ الأرضين مع السماوات مجموعتين، كان الظاهر من الأراضي السماوات والكرات البخارية المحيطة بها.

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الأرض. قال القزويني: كل ما فوق الأرض فهو سماء، وقال الطبرسي في مجمع البيان، كل ما علاك وأظلّك فهو سماء وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمة السماء أن السماء:

١- نفس الجو كآية ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان/ ٦١].

٢- الأجرام السماوية والسيارات كما في حديث «إن في السماء آدم كآدمكم ونوحًا كنوحكم»، وكما في آية ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى/ ٢٩].

٣- جسم عظيم مكوَّر محيط بالأرض، ولكن اختلف الناس في فهم كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية، وهذه مع كرة الهواء التي في جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها، وفيها يقول الأستاذ فاندايك (جزء ثالث – النقش في الحجر):

«إنا عائشون في قعر أقيانوس[1] سيَّال معدل عمقه على الأقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الأرضية»، وفي هذا المعنى جاءت آية ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت/ ١١]،

(١) الأقيانوس: هو البحر المحيط، وهي كلمة يونانية.

ففي مروج الذهب وابن ميثم في شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره، وفي كُلِّيَّات أبي البقاء: كل دخان يسطع من ماء حارّ فهو بخار وكذلك الندى. وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة: (١) ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر/ ١١]، (٢) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان/ ٢٥]، و(٣) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون/ ١٨]، (٤) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء/ ٣٠]، (وذلك في رأي بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ولقد رُوِيت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها، وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف، أي الذي لا يهبط ولا يسقط لأنه في حالة بخارية.

فائدة الجبال في الأرض وحكمتها أنها مقام الإنسان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها، إذ هي الجزء الجامد المرتفع الرأسي الثابت المتماسك الأجزاء والعناصر الصلبة. ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت[1] الأرض

(١) مادت: دارت واضطربت.

ببحارها ولاضطربت بأمواجها كما يشاهد في القسم المائي منها وهنالك لا يكون للإنسان بها مستقرّ ولا للعمران فيها سبب ولا مكان.

ومن الآيات الواردة في ذلك المعنى: (١) ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء/ ٣١]، و(٢) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ/ ٧]، و(٣) ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل/ ١٥].

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكون للإنسان مقامًا حصينًا لا يهدده طغيان البحار ولا يجترفه مضطرب الأمواج. ثم أنها لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها لها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة مالا يخفى على المصلحين. ومن الخطأ أن تتخيل الجبال كالأوتاد تغرز في الأرض أو الحائط لتربط بها الدوابّ خشية فرارها أو الخيمة لبنائها وإقامتها على أعوادها، فإن هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم. ومالنا نأخذ بهذا التأويل السقيم، ولنا في معاني الوتد لغةً ما لا يلجئنا إليه؟

لقد سمى العرب الهنيّة الناشزة[١] في مقدم الأذن وتدًا، فيقال «ما أملح وتدي أذنه» كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة في فكيه. إذن لماذا يقذف بنا الشطط في التأويل حتى نحمّل كتاب الله

---

(١) الهنية الناشزة: لحمة مرتفعة في مقدمة الأذن.

العربي من المعاني ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هي المثبتة في الأرض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة في الأرض والحائط، وأن الأمر بهذا ينعكس عليهم إذ تكون الأرض هي الوتد الذي تثبت به الجبال لا العكس.

ثم ما عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال في الأرض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول أولئك الواهمون. إننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السماوات والأرض بما قدّر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب، فهو الرافع لها، كما في القرآن، بغير عمد مرئية للأبصار، ولكن جعلها سابحة في الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان، فهي تسبح بقدر في مدارها سبحًا لا يعتريه نشوز ولا نُكوب ما دامت تلك النواميس قائمة معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسماوات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[فاطر/ ٤١].

على أن نظرة واحدة إلى نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض تدلك على أن الجبال في الأرض ما هي إلا كالهانات الناشزة في سطح جسم الإنسان لا تقيم بضآلتها وزنًا لاعتداله ولا توازنه، فإن رفعة تلك الجبال الشاهقة في كرة الأرض على قلة عددها تتراوح بين خمسة آلاف من الأمتار وتسعة آلاف متر

تقريبًا، وبعبارة أخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسّم إليها قطر الأرض تقريبًا.

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال في الأرض. أما الحكمة في وجودها فقد سبق الكلام فيها، وإجماله أن الغرض هو إعدادها لعالم الحياة والعمران في كرة الأرض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الأحياء وإقامة معالم الزينة والجمال في أقطارها وربوعها.

يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [ق / ٧].

وبعـــد . . .

فقد آن لنا أن نكتفي بما قدمنا لكم من العجالات والأمثال فإن في استقصاء هذه المباحث ما يحتاج إلى ضخام المطولات. فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا إلى إكمال هذه الموضوعات وإيفائها حقّها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين.

(تم الكتاب بعونه تعالى)

معد التقديم في سطور

مجدي علي سعيد

- مصري، حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة بجامعة القاهرة عام ١٩٨٦، ودبلوم الدراسات الإفريقية بقسم الأنثروبولوجيا بجامعة القاهرة عام ١٩٩٦.
- يعمل حاليًّا رئيس قسم نماء بموقع إسلام أون لاين، النسخة العربية.
- شغل منصب رئيس القسم الثقافي والعلمي بموقع إسلام أون لاين، ٢٠٠٠ – ٢٠٠٤.
- مشرف وحدة البحوث والتطوير بإسلام أون لاين، ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦.
- رئيس تحرير موقع المرأة والأسرة السعودي، ٢٠٠٧.
- رئيس قسم نماء بموقع إسلام أون لاين ٢٠٠٨ – ٢٠١٠.

من أبرز الأعمال والمؤلفات العلمية

- تجربة بنك الفقراء – طبعتان (١٩٩٩، ٢٠٠٧).
- دليل الإعلامي العلمي العربي (محررًا ومشاركًا، ٢٠٠٨).
- تأملات قرآنية في الإصلاح والنهضة، ٢٠٠٩.
- من صناع الحياة، ٢٠٠٩.
- حركة التعاونيات..الطاقة التنموية المهدرة، ٢٠٠٩.
- التعليم مشروع الأمة،٢٠١٠.
- العلوم والتكنولوجيا..أفكار وتجارب في التنمية والنهضة،٢٠١٠.

أعضاء اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١١/٢٠١٠

رئيس اللجنة

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر.

أعضاء اللجنة

إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة)، مصر.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالامبور)، ماليزيا.
حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إستانبول)، تركيا.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة التراث بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيري (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، مصر.
سيد دسوقي حسن (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، مصر .
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر – **أمين اللجنة.**
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشئون الدينية)، عُمان.
عبد الرحيم بنحادة (جامعة الرباط)، المغرب.
عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد الحداد (الجامعة التونسية)، تونس.
محمد عمارة (مجمع البحوث الإسلامية – الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة، تونس)، تونس.

AL-ISLÂM DÏN AL-FITRAH WA AL-ḢOURRÏYAH

Islam, Religion of Instinct and Freedom

‘Abd al-‘Aziz Jawish

DAR AL-KITAB
AL-MASRI



DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI



AL-ISLÂM DÏN AL-FITRAH WA AL-ḢOURRÏYAH

Islam, Religion of Instinct and Freedom

‘Abd al-‘Aziz Jawish

هذا الكتاب

يقدم عبد العزيز جاويش فيه تجديدًا وتصويبًا لفهم الدين وتأويل مصادره، ومراجعة للأفهام السقيمة والتأويلات الباطلة التي علقت به طوال مسيرته، جاعلاً من ذلك مدخلاً للنهضة؛ حيث إن إعادة ذلك الفهم وتلك التأويلات إلى حقيقتها ـ التي تقدِّم الإسلام بحسبانه دينًا للفطرة والحرية، لا دينًا مناقضًا للفطرة مُصادِرًا للحرية ـ يجعل منه دينًا صالحًا للإنسانية في كل زمان ومكان، والكتاب على قسمين؛ يتناول الأول منهما بعض السمات المهمة في الإسلام التي تجعل منه دينًا يتوافق مع الفطرة، أما القسم الثاني فيتناول أثر القرآن في تحرير الفكر البشري.

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO



DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT